الإسلام

ومشكلة الحضارة

بين التعددية والصراع

تأليف

أ.د. يحيى هاشم حسن فرغل
عميد كلية أصول الدين والدعوة بالأزهر سابقا
وأستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الإمارات العربية المتحدة

مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة
ت: ٥٥١٥٥٧٥ - فاكس: ٥٣٧٤٥٤٤

مكتبة التابعين
القاهرة - عين شمس
ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥



الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

مكتبة الصحابة

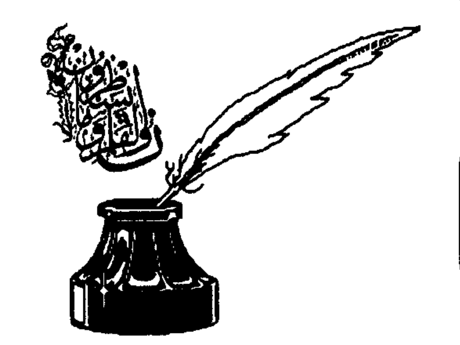
الإمارات – الشارقة .

ت : ٥٥١٥٥٧٥ – فاكس : ٥٣٧٤٥٤٤



القاهرة – عين شمس .

ت : ٤٩٣٨١٤٤ – فاكس : ٤٩٣٤٣٢٥



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن
تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

[آل عمران: ١٢٠]

كل من أهمل ذاتيته

فهو أولى الناس طُرًّا بالفنا

لن يرى في الدهر شخصيته

كل من قلد عيش الغرباء

محمد إقبال

من (صوت إقبال إلى الأمة العربية)

للصاوي شعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

أما بعد ...

القضية اليوم هي قضية الحضارة .

نحن على مفترق طرق كالذي حدث أيام انهيار الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وانبثاق الحضارة الإسلامية على حسابهما .

وكالذي حدث أيام انهيار الدولة الإسلامية في الغرب ، وتراجعها في الشرق، وانبثاق الحضارة الأوربية الحديثة على حساب طرد المسلمين من أوربا ، واستعمارهم في آسيا وإفريقيا .

نحن على مفترق طرق :

فيه أخذت بوادر السقوط تظهر على فرائص الحضارة الأوربية الحديثة المرتعدة.

وأخذ الإنسان المعاصر يتلفت يمنة ويسرة ، يحاول أن يفهم مغزى الأحداث ويتنبأ باليد التي سوف تتناول الشعلة : شعلة الحضارة .

ونحن نخطئ اليوم - خطأ تاريخيًّا - عندما نعرض الإسلام عرضًا مجزءًا مفتتًا .

ربما كان هذا العرض التجزيئي صالحًا عندما كان البناء الإسلامي قائمًا شامخًا قويًا لا يحتاج إلى أكثر من سد ثغرة هنا أو ثغرة هناك .

أما اليوم ونحن نشهد الركام يتساقط حولنا فإن العرض التجزيئي يصبح عبثًا أو تخريبًا أو خطيئة . لأنك عندئذ إنما تأخذ قالبًا من البناء المتساقط لتقول: هذا هو الإسلام ، وهو أمر يدعو إلى السخرية .

لن يفهم الناس شيئًا عندما تحدثهم عن أهل الحل والعقد . ولكنهم يستعدون للفهم عندما نقدم لهم ذلك ضمن الإطار الحضاري الكامل .

لن يفهم الناس عنا شيئًا عندما نحدثهم عن ربا التفاضل أو ربا النسيئة أو المضاربة، ولكنهم يستعدون للفهم عندما نقدم لهم ذلك ضمن خطة بناء الحضارة في الإسلام .

لن يفهم الناس عنا الكثير عندما نحدثهم عن حجاب المرأة وقوامة الرجل، ولكنهم يستعدون للفهم عندما تخرج لهم هذه القضية كجزء طبيعي للحضارة الإسلامية .

لن يفهم الناس شيئًا كثيرًا عندما نحدثهم عن وجوب إعفاء اللحية وستر العورة ، ولكنهم يدركون ذلك ضمن الحرص على شخصية الحضارة الإسلامية بسماتها العامة .

القضية اليوم ـ وقد تهدم الكثير من البناء ـ هي قضية تقديم البناء في صورته الكاملة . البناء الكامل في جوهره الحقيقي . إنها قضية الحضارة .

وجوهر الحضارة في الإسلام يتلخص في أنها قامت على التصميم الهندسي الإلهي للحضارة : بناء من العلم والعمل والإيمان .

ساحته: التسليم للمالك . طاقته المحركة : العبودية للخالق .

آليته : سيطرة الآخرة على الدنيا .

وهكذا قامت الحضارة الإسلامية في أسمى صورها على يد بانيها الأكبر : محمد رسول الله ﷺ .

أ.د. يحيى هاشم حسن فرغل

الحضارة مشروع إسلامي

● **الحضارة مشروع إسلامي:** قيام الحضارة على هذه الأرض كان هو الهدف من هبوط آدم عليه السلام إليها.

ولما كان الهدف من خلق الإنسان هو في قوله تعالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦] ، فإن الهدف من إنزاله إلى الأرض هو في قوله تعالى : ﴿. . . **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠] .

والخلافة هي جوهر مفهوم « **الحضارة** ».

الخلافة هي أن يخلف بعض بعضًا.

والمعنى الساذج لأن يخلف « بعض بعضًا» لا يمكن أن يكون هو المقصود في قوله تعالى: « **خليفة** » .

لأن جميع الحيوانات ـ بحكم التناسل ـ يخلف فيها بعض بعضًا.

ولا يصح أن يكون المقصود بالخلافة قاصرًا على معنى الوكالة في التصرف ، فهذه الخلافة بمعنى الوكالة أيضًا ليست خاصة بالإنسان ، إذن لا بد من خطوة أخرى لفهم الخلافة هنا :

وهي أن يخلف اللاحق السابق في البناء على ما خلّفه . فتنشأ من عملية الخلافة طبقات متوارثة من البناء يتلوها طبقات. .

وذلك هو خصوصية الإنسان فيما نعرف .

وتلك هي خلافته .

وتلك هي حضارته .

ومن هنا جاء تساؤل الملائكة ، واعتراض إبليس .

جاء تساؤل الملائكة في قولهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** . .﴾ [البقرة: ٣٠]

لا يمكن أن يعني الملائكة بذلك المعنى الساذج من الفساد وسفك الدماء كالذي يحدث من أنواع الحيوان الأخرى ، وإلا لكانـوا في مستوى من الإدراك لا يسمح لهم بهذا الخطاب الإلهي .

ولكنهم في تساؤلهم لاحظوا الجانب السلبي في عملية الخلافة وبناء الحضارة.

كانوا يعنون مستوى عاليًا من الفساد ، هو الفساد الحضاري أو الجانب السلبي في بناء الحضارة .

ولذلك فإن الله ردهم ـ إجمالاً ـ إلى الجانب الإيجابي الذي جهلوه ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]

إذن فالحضارة مقصود إلهي رفـيع ملحوظ أساسًا في عملية إنزال الإنسان إلى الأرض .

ومن هنا جاء قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [فاطر: ٣٩] .

إذن فهي خلافة ، وهي حضارة تحت مقاييس الإيمان والكفر .

وهي خلافة ، وهي حـضارة معتنى بهـا من الله منذ البداية. ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]

وهي خلافة، وهي حضارة ممدود لها الحبل في عدالة الله إلى يوم آجل ﴿وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا ﴾[فاطر: ٣٩]

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤] .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف: ٦٩] .

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٧٤] .

ومن هنا يحق لنا أن نقول إن الحضـارة كانت هي الإبداع الذي من أجله خلق الله الإنسان ، إبداعًا إلهيًا : كـالفلك ، والشمس ، والقمر ، والأرض والنهر ، والزهرة .

وكالغابة . وكبيت النمل . وكَعُش النحل .

هو إبداع من إبداعـات الـله تعـالى ، خلق الله مـن أجله الأرض والدنيـا، والإنسان .

لا يؤثر في كونه إبداعًـا لله أن كان الإنسان مـوكولاً إليه إقـامته، أو بعـبارة أدق: أن كان الإنسان باختياره عنصرًا فعالاً في إقامته .

لأن كون الإنـسان عنصـرًا فعـالاً وبإرادته في مكونات هذا الإبداع هو نفـسه إبداع من إبداعات الله سبحانه وتعالى ، ظهر بإرادته وقدرته وكرمه .

ومن هنا كان وجود الشيطان ـ أيضًا ـ على مشـارف الحضارة ودخائلها عنصرًا فعالاً في إقـامتها من حـيث إنه يدعم مبدأ تكوين الإنسان المسئول ، ويؤكد دور الإنسان المختار .

الشيطان يتعرض للإنسان بالوسوسة ، فـيتغلب الإنسان على وسوسة الشيطان ـ أو ينهزم ـ فيستقيم أو يظهر دوره الفعال المختار المسئول .

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦] . ، تمامًا كما كان كيد أعداء يوسف ـ وهم أعـداء له يسعـون إلى مـوته وتأثيـمه وسـجنه إلخ ـ يمضـون بإرادتهم في مشروعهم ، ولكنهم في نفس الوقت يمضون ـ وبكيـد الله ـ في إقامة القدر النافذ الذي أراده الله : ليوسف ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾[يوسف:٢١] .

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

* * *

- **حضارة لا إله إلا الله :**

ومن هنا كانت أهمية «لا إله إلا الله» باعتبارها شرطًا في تحقيق التكليف الأكبر بإقامة « الحضارة » .

ألم يقل محمد رسول الله « **وجعلت لي الأرض مسجدًا ..**» متفق عليه

وقال الله تعالى : ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ** .. ﴾ [الجن:١٨]

إذن فهي الأرض لله .

وهي إذن أيضًا : الحضارة (الأرض + الإنسان + الزمن) لله .

وأن الحضارة لله .

ومن هنا كان الرفض القاطع للشرك .

فهو ـ أي الشرك ـ لا يعني إهدارًا للإنسان الذي يتجه لغير الله فحسب.

ولكنه يعني إهدارًا للمشروع الأكبر «للحضارة» إذ تتجه لغير الله .

أية حضارة تتجه لغير الله فهي فوق أنها حضارة مشركة هي أيضًا حرب على المشروع الذي يضعه الله (للإنسان والأرض والزمن) أي للحضارة .

لا بد من « لا إله إلا الله» لتكون الحضارة « لله » حسب المشروع الإبداعي ، فإذا لم تكن كذلك كانت انحرافًا عن الحضارة الإلهية المرادة أصلاً.

انحرافًا إلى مشروع آخر ينظر إلى وجوده ـ كما ننظر إلى الشيطان أو إلى عصيان ما ـ باعتباره تأكيدًا لكينونة المشروع الأصلي ، أي ليكون المشروع ـ حسب التصميم الموضوع له ـ قائمًا باختيار الإنسان ومسئوليته حسب تكليف صاحب المشروع .

تصبح الحضارة « لغير الله » تأكيدًا للحضارة التي هي « لله » ، في نفس الوقت التي هي فيه اعتداء على تلك الحضارة .

تمامًا كما ينحرف أحد المنفذين لمشروع هندسي عن إرادة صاحب المشروع - ليقيم مشروعًا آخر - عمارة بدلاً من بيت ، أو كوبري بدلاً من شارع - ليؤكد بظهوره هكذا أن الآخر الذي التزم إنما التزم باختيار وإرادة .

* * *

وبنفس القدر كانت أهمية « محمد رسول الله » كعنصر أساسي لقيام الحضارة.

أهمية « محمد رسول الله » ومن قبل مبعثه : عيسى رسول الله ، موسى رسول الله ، إبراهيم رسول الله ، نوح رسول الله . . إلخ .

لأنه بعد أن ترتبط الحضارة بكونها لله وحده ، كان لا بد من رسول يبين ما هو « لله » ، وما هو « لغير الله » .

رسول من صاحب المشروع مبين للمشروع .

وبيان الرسول الذي يأتي هو شريعة الله سبحانه .

وفي شريعته تأتي الملامح والمواصفات الأساسية للمشروع المطلوب.

وكان لا بد أيضًا من أن يأتي الرسول بحيث يمكن تصديقه ويمكن تكذيبه : ليقوم الإنسان بالمشروع مختاراً غير مقسور وفقًا لأصول المشروع نفسه .

غير مقسور كالنحل في مشروعه .

غير مقسور كالنمل في مشروعه .

غير مقسور كالقمر في مشروعه .

شريعة الله هي « كتالوج » المشروع الذي بغيره لا يكون المشروع لصاحبه .

بغيره لا تكون الحضارة لله .

* * *

● **أركان المشروع الإلهي للحضارة :**

ولقد وضع مشروع الحضارة على الأرض وفقًا لأركان ثلاثة من عناية الله : العلم ، والعمل ، والإيمان .

ولهذا أعد آدم منذ البداية وجهز بهذا العلم .

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥]

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:٣١-٣٢]

وتعليم الأسماء هو في بعض وجوهه تعليم عملي؛ لأنه تعليم لا من أجل العلم بالأشياء في حد ذاتها ، ولكن من أجل « التعامل مع الأشياء» .

وهذا العلم - العلم العملي - هو جوهر بناء الحضارة .

● **العلم العملي :**

يقول تعالى : **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾** [سورة ص:٢٩]

لم يقل ليتأملوا .

وما تدبر آياته ؟ اتباع بعمل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢-٣]

قال رسول الله ﷺ :« اللهم إني أعوذ بك من الأربع : من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع»[1]

وفي الأثر: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» ذكره ابن كثير في تفسيره لسورة اقرأ، وذكره أبو نعيم في الحلية مرويًا عن أنس عن الرسول ﷺ .

---

(١) اخرجه الحاكم في مستدركه وصححه .

يقول عيسى ابن مريم عليه السلام فيما يروى عنه في الآثار الإسلامية: « إلى متى تصفون الطريق إلى الداجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين، إنما يبتغى من العلم القليل ومن العمل الكثير » .

ومن أقـواله أيضـًا: « إن الزرع لا يصلح إلا بـالماء والتـراب، كـذلك لا يصلح الإيمان إلا بالعلم والعمل، ويلكم يا عبيد الدنيا إن لكل شيء علامة يعرف بها وتشهد له أو عليه، وإن للدين ثلاث علامات يعرف بهن: الإيمان والعلم والعمل » [1]

وعن سـهل بن عبـد الله التسـتـري : « الناس كلهم سُكارى إلا العلمـاء ، والعلماء كلهم حيارى إلا من عمل بعلمه »

وقال أبو سعيد الخراز : « العلم ما استعملك ، واليقين ما حملك » .

أي على الفعل .

وعن ابن المنكدر قال: « العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه حلّ وإلا ارتحل»

ويقول ابن عـبد ربه: (العلم علمان : علم حـمل ، وعلم استعمل ، فـما حمل منه ضر ، وما استعمل منه نفع» .

ويعرِّف ابـن فورك ـ من المتكلمين ـ العلم :« بأنه مـا يصح ممن قام بـه إتقان الفعل » .

وعن أبي الدرداء: « إنك لا تكون عالـمًا حتى تكون متعلمًا ولا تكون بالعلم عالمًا حتى تكون به عاملاً » .

وينضم إلى ركني العلم والعمل في المشـروع الإلهي للحضارة على الأرض : ركن الهداية بالإيمان .

ذلك أنه إذا كان العلم حظًا مبذولاً للجميع ﴿ **علَّم الإنسان ما لم يعلم..** ﴾ فإن العلم وحده لا يكفى ، وبعـبارة أخرى: العلم الذي يرشح لابتـناء العـمل عليه ـ هذا العلم وحده لا يكفى .

---

(١) انظر اقتضاء العلم العمل للبغدادي ص (٦٨) .

لا بد من الهداية ، وهي لا تعطى كما يعطى العلم ـ للجميع ـ وإنما تعطى لمن يتعرض لها بالإيمان والتسليم. لأن التسليم شرط بديهي في قبولها.

﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

﴿ **إن علينا للهدى** ﴾ [الليل: ١٢] .

﴿ **من يهد الله فهو المهتد** ﴾ [الإسراء: ٩٧]

﴿ **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿ **وإن اهتديت فبما يوحي إلىَ ربي** ﴾ [سبأ: ٥٠]

« **والله لولا الله ما اهتدينا** . . » اخرجه البخاري في صحيحه

ولذلك كان أنفع الدعاء وأعظمه ـ كما يقول ابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية ـ دعاءُ الفاتحة ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ .

إن العقل المتعلم ـ المستقل عن الهدى ـ يمكنه أن يصل إلى شيء من الظن، لكنه لا يصل مستقلاً إلى شيء من الهدى الذي تشعر فيه النفس بالطمأنينة والسكون واليقين .

إن الفلسفات والعلوم التجريبية التي يصل إليها العقل مستقلاً خاضعة لما تخضع له عقولنا من النسبية والنقصان .

لذلك فإن ما نصل إليه اليوم من علم يظهر لنا نقصُه غداً، وما نزال نكتشف بتقدم البحث جهلنا ، وهزال معارفنا، وحاجتنا إلى الهدى واليقين الذي لا تفرزه عقولنا .

في ظل العلوم التجريبية والفلسفات الناقصة يتقدم العلم التجريبي ، ويطرد الحصول على منافع الدنيا ، لكن الإنسانية في عملية بناء الحضارة لا بد لها من أهداف ثابتة واضحة راسخة على مدى القرون ، وإلا كان ضلالها عن أهدافها لا يمكن تلافيه أو البرء منه .

والعلوم النسبية تضل دائمًا عن الأهداف البعيدة الراسخة . فهذا ليس من شأنها ولا يمت إلى قدرتها بسبب، ومن هنا كان الإنسان «حيوان الحضارة» بحاجة إلى مصدر خارجي يهديه إلى هذه الأهداف ويرسم لها الطريق: (**الصراط المستقيم**) .

ومن هنا جاءت ملاحقة العناية الإلهية للإنسان وهو يُعَد للقيام بمهمته « بناء الحضارة» بعد أن «علمّه» جاءت هذه الملاحقة في قوله تعالى ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

ولا يتلقى الإنسان هذا الهدى إلا من نافذة الإيمان . ولكي يقوم الإيمان فالطريق في « التسليم» .

ويتضح ذلك - في الذاتية الإسلامية - من حقيقة كبرى مؤداها أن الاتجاهات الفكرية البشرية مهما اختلفت ومهما وضعت من شروط - على اختلافها - للتوصل إلى المعرفة فإنها تتنازل عن شروطها هذه في الأسس التي تقوم عليها ، وتؤمن بهذه الأسس إيمانا تسليميًا نزولاً على حكم الضرورة العملية .

فعلت ذلك الفلسفة العقلية اليقينية، والفلسفة اللاأدرية، والفلسفة التجريبية[١] أقرت بذلك علنا ، أو أقرت به خفاء .

ومن هنا كان خطاب الوحي إلى البشرية .

وكان مدخل هذا الخطاب عن طريق « الإنذار باليوم الآخر» في جميع رسالات الأنبياء كما تحدث عن ذلك القرآن الكريم ، وفي رسالة محمد ﷺ كما جاء في القرآن الكريم أيضًا ، وفي السيرة النبوية في وضوح شديد .

﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ** ﴾ [المدثر: ١-٢]

« **يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا**»[٢] .

---

(١) انظر كتابنا «الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية» نشر دار الفكر العربي (١٩٧٦) وانظر كتابنا «فلسفة التسليم» ، وكتابنا «مداخل إلى العقيدة الإسلامية» لطلاب كلية أصول الدين .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ومسلم في صحيحه ، وفي غيرهما بمثله .

والإنذار يصنع موقفًا يتلخص في كلمتين :

خبر عن مـجهول، يقابل بالتصديق أو يقـابل بالتكذيب . وهو منطق عملي يركز فيه المنذر على أمر نمارسه في حياتنا العملية ـ جميعًا مهما اختلفت فلسفاتنا: الأخذ بالأحـوط فيما يتـضمن الخبـر عنه تحذيراً من خطر محـتمل ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ [الشورى:٤٨] .

وهنا تبدأ الخطوة الأولى في الإيمان ، وهي خطوة تحقق اليقين في النجاة .

ولأنها خطوة مبنيـة على التسليم لله ـ في موازاة الذين يسلمون لغيـره ـ فإنها تستـتبع وراءها عناية الله بزيادة الهـدى ، وعنايته بزيادة الإيمان ، وعنايتـه باليقين التام ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:٤]

وهكذا صنع إيمان أبي بكر وعمـر وعلي وعثمـان والصحابة والتابعين ـ وفـقًا لشـروط عملـية طبـقت فـيمـا يتـعلق بأركـان الإنذار الأربعـة : في مصـدره ، وموضوعه، وحامله ، ومتلقيه .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان:١]

هكذا وفقًا للذاتية الإسلامية .

● **الأخروية :**

إذن فالحضارة ـ وفقًا للمفهوم الإسلامي ـ مراد إلهي يصنع باختيار وابتلاء ، وفق الإرادة الإلهية . وقيام حضارة أخرى تتصف بالإنسانية دون الإلهية هو ابتلاء وفرز يؤذن بتدافع حضاري محتوم .

ومن هنا فإننا نؤكد أنه لا أمل في قيام نظام إسلامي دنيوي بحت ، حتى في الأمور الدنيوية، حتى في الأمور المتصلة بماديات هذه الدنيا .

التصـور الإسلامي لا بد أن يجـعلها مغـموسة بالنـظرة الأخروية . هذه هي طبيعة هذا النظام .

وهذا هو اختـيار الله لنا في هذا النظام . فمن أراد نظامًـا إسلاميًا للحـضارة فليدرك البعد الأخروي في كل فقرة من فقراته ، وكل حلقة من سلسلته . .

والذين يتصورون قيام حضارة إسلامية دنيوية بحتة يجربون خدعة بلقاء .

وسوف ينتهي بهم الطريق إلى سد .

لأنهم من البداية حـاولوا أن يطلبوا من النظام الإسلامي للحـضارة ألا يكون إسلاميًا .

البعد الأخروي لا بد منه عند اختيارنا للإسلام .

وتلك هي الحضارة الإسلامية في ذاتيتها التي تحققت .

وهي هي الحضارة الإسلامية في ذاتيتها إن أردنا لها أن تحقق مرة أخرى .

وهكذا وفقًا للذاتية الإسـلامية قامت الحضارة الإسلاميـة على أركانها الثلاثة المترابطة : العلم والعمل والإيمان .

حضـارة فذة في تاريخ البـشرية، مرت بأطوارها في البـناء والاستقـرار قرونًا طويلة .

● **تفكك أركان المشروع :**

ولم يبدأ التداعي إلا بدخول التفكك في هذه الثلاثية التي قام عليها المشروع .

التفكك في ثلاثية العلم والعمل والإيمان .

وأول ما دخل التفكك وبعنف فإنه جاء في مفصل الربط بين العلم والعمل .

ولقد جاء هذا المرض الحـضاري من الفلسفة اليونانية التي انفـتح لها المسلمون من نافذة « العلم» والشغف بالمعرفة .

واستـشرى هذا المرض عن طريق « المتكلمين » الذين خـاضوا بحـسن نية في مبـاحث نظرية لا صلة لها بـالعمل ، كالعـلاقة بين الذات الإلهـية والصـفات ، وخلق الأفعال ، وخلق القرآن ، والجوهر والعرض . . إلخ

ومن هنا بدأ التداعي .

ومن عجب أن الحضارة الغربية المعاصرة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بالتمرد على هذا التراث اليوناني والأخذ بالمنهج التجريبي كصورة من صور الربط بين العلم والعمل : درسًا تلقته عن الحضارة الإسلامية [1] .

ولكن هذا العجب يلحقه الأسى إذ أن هذه الحضارة الغربية لم تكمّل الدائرة الثلاثية فاستبعدت عنصر الإيمان ، وقامت على العلمانية .

ومن هنا تتضح الفروق الذاتية بين المشروع الذي قامت - وتقوم - عليه الحضارة الإسلامية وبين مشروع قامت عليه الحضارة الغربية المعاصرة .

يتضح الفرق أساسًا في أن هذه الحضارة الغربية قامت في جوهرها نقضًا من ناحية وتأكيدًا من ناحية أخرى للمشروع الأصلي للحضارة « أن الحضارة لله» .

ثم تتضح الفروق بعد ذلك: في أن فصلت بين العلم والعمل من جانب ، والإيمان من جانب آخر . والمسلمون اليوم مدعوون إلى مشروعهم الأصلي الذي « جُعلوا » له، لا إلى مشروع آخر هو في ذاته نقض لذات المشروع الأصلي : نقض للذاتية الإسلامية .

* * *

(١) نختار هنا - من بين شهادات كثيرة - شهادة برتراندرسل - حيث يذكر أن هناك اتجاهًا فكريًا في أوربا نابعًا من انتصارات العلم «يعتبر سلطان القدماء اليونان كابوسًا جاثمًا ، ويذهب إلى أن من الأفضل اليوم أن ننسى معظم ما أضافوه إلى عالم الفكر» - انظر تاريخ الفلسفة الغربية ج١ ص (٧٣) .

- وهو يرى أن اليونان «استكشفوا الرياضة، وفن التدليل القياسي وابتكروا الهندسة إلا أن ضيق نظر اليونان وانحصاره في جانب واحد يظهر في الرياضة، فتفكير اليونان كان يتجه بهم في التدليل على نحو قياسي، يبدأ مما يظهر لهم أنه بديهي، ولم يكن تفكيرهم يسير سيراً استقرائيًا بادئًا مما شاهدته الحواس» .

- ثم يقول في عبارة صريحة: إنه «على الرغم من أن فئة قليلة منهم هم الذين أشرقت عليهم أشعة المنهج العلمي لأول مرة إلا أنهم بصفة إجمالية لم يكونوا يستسيغون المنهج العلمي بطبيعة عقولهم. .» المصدر السابق ج١ ص (٧٤) .

- وفي عبارة أكثر صراحة يقول عن تطور نظرة قدماء الفلاسفة اليونان إلى القول برجوع المادة إلى العناصر الأربعة: التراب، والنار، والماء، والهواء، يقول: «ها هنا عند هذا الحد وقفت كيمياء القدماء وقفة الأموات، ولم يخط هذا العلم خطوة أخرى إلى الأمام حتى أخذ الكيمائيون المسلمون في بحثهم عن حجر الفيلسوف وإكسير الحياة» المصدر السابق ص (٨٠-٨١) .

عالمية الحضارة الإسلامية

● عالمية الحضارة الإسلامية:

إذا كانت أركان الحضارة الإسلامية تتكون كما قدمنا سابقًا من الربط بين العلم والعمل والإيمان ، وتتحرك في ساحة التسليم لله ، بطاقة محركة تنبثق من العبودية لله ، وآلية تستمد من سيطرة الآخرة على الدنيا ؛ فإنه يجب أن نعلم أيضًا أن انفتاحها لا يقف دون العالمية .

وهي عالمية تقرر وفقًا لصريح القرآن وصحيح السنة :

يقول تعالى:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان: ١]

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]

ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

ويقول تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١]

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]

ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢]

وفي الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ :

« أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود » صحيح مسلم .

وعالمية الإسلام هي التي اخترقت حواجز القومية :

في حجة الوداع يقول: **«أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى »**(١)

ولما بلغ النبي ﷺ استهانة أحد المنافقين بسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، قام مغضبًا وخطب الناس في المسجد فقال: **« يا أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي»**(٢)

- **وعالمية الإسلام هي التي اخترقت حواجز اللون :**

وانظر قصة أبي ذر الغفاري مع بلال رضي الله عنه ، إذ تجادل معه واشتد به الغضب، فقال له أبو ذر : « يا ابن السوداء » فلما سمع رسول الله ﷺ بذلك أنكره أشد الإنكار ودعا أبا ذر إليه وسأله :

« يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم »(٣)

وكان عبادة بن الصامت رضي الله عنه من الصحابة الأجلاء أسود اللون ، وكان رئيس الوفد الذي أرسله عمرو بن العاص لمفاوضة المقوقس ، فضاق به المقوقس لسواده،

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .
(٢) ذكره في كنز العمال بسنده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلا
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

وطلب من الوفد أن يتكلم غيره ، فاعتذر الوفد عن ذلك ، وأصروا على أن يكون عبادة هو المتكلم ، قائلين للمقوقس : « هذا أفضلنا رأيًا وعلمًا ، وهو سيدنا وخيرنا ، وقد أمَّرَهُ الأمير علينا فلا نخالف أمره » .

● **وعالمية الإسلام هي التي اخترقت طبقات الغنى والفقر :**

مر رجل من وجهاء الناس أمام مجلس لرسول الله ﷺ فسأل أصحابه قائلاً: **ما ترون في هذا ؟** قالوا : رجل من أشراف الناس ، وهو حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفّع ، وإن قال أن يسمع لقوله .

فسكت رسول الله ﷺ .

ثم مر رجل آخر ، فسألهم : **ما ترون فى هذا ؟**

قالوا : رجل من فقراء المسلمين وهو حري إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع قوله . فقال رسول ﷺ : « **هذا خير من ملء الأرض من هذا** »[1] .

● **وعالمية الإسلام هي التي اخترقت طبقية الحكام والرعاة :**

وتعرفون قصة جبلة بن الأيهم من ملوك آل جفنة مع عمر رضي الله عنه .

أسلم على زمن عمر رضي الله عنه ولما قدم على عمر أحسن استقباله وخرجا إلى الحج . فبينما كان جبلة يطوف بالبيت إذ وطئ إزاره رجل من بني فزارة فانحل ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزاري .

فلما علم رضي الله عنه بذلك خيّره بين أن يرضى الرجلَ أو يقتص الرجل منه ، فسخط جبلة وما كان منه إلا أن فر مع قومه إلى القسطنطينية ، ووجد في النصرانية موئلاً له ، على ما به من كبر وعصبية وتعالٍ على بقية خلق الله .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

● **وعالمية الإسلام هي التي اخترقت سدود الجنسيات والأعراق:**

وتعرفون قصة محمد بن عمرو بن العاص مع المصري عندما ضربه لسبقه إياه، قائلاً : أنا ابن الأكرمين . فشكا المصري محمدًا إلى الخليفة عمر ﷺ، فأرسل إلى عمرو بن العاص وابنه أن يحضرا إذا جاءهما كتابُه ، فلما حضرا أمر عمرُ المصريّ أن يضرب محمدًا بالدرة ، فضربه كثيرًا ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك - أي ابنه - إلا بسلطانه .

قال الرجل المصرى : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربني . فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه ، ثم قال لعمرو : أيا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أحرارًا .

● **وعالمية الإسلام هي التي اخترقت الحواجز بين المسلمين وأهل الذمة :**

يقول ﷺ : «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا** » . ويقول رسول الله ﷺ : «**من آذى ذميًا فأنا خصمه يوم القيامة ، ومن خاصمته خصمته** »[1]

وأوصى عمر ﷺ: (أن يُوفّى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، ولا يكلفهم فوق طاقتهم) .

---

(١) ذكر العجلوني في كشف الخفاء رواية عن أحمد أنه لا أصل له، ثم قال: (لكن ناقش الحافظ ابن حجر في ثبوت ذلك عن أحمد ، وقال : إن له أصلاً) فقد رواه أبو داود بسنده عن عدد من أبناء الصحابة عن آبائهم عن رسول الله ﷺ بلفظ: (من ظلم معاهدًا أو تنقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئًا منه بغير طيب نفس منه ، فأنا خصمه يوم القيامة) وذكر البيهقي مثله في سننه عن ثلاثين من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم بلفظ: (الا من ظلم معاهدًا أو تنقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة - وأشار رسول الله ﷺ إلى صدره - الا ومن قتل معاهدًا له ذمة الله ورسوله حرم الله عليه ريح الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا) ، وأما المشهور من قوله ﷺ عن الذمة: (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) فقد أشار السندي - ت ١١٣٨- في حاشيته على النسائي بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة في شرحه لقوله ﷺ : « تتكافأ دماؤهم » : أشار إلى ثبوته ، انظر ج ٨ ص ٢٠ ط ٢ ، بينما ذكر أبو بكر الضحاك - ت ٢٧٨ هـ - في كتاب « السنة » ج٢ ص ٥٧٢إلى أن الصحيح أن الرسول ﷺ قالها في حق الذين يسلمون من الكفار ، ولو صح فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبخاصة أن الأدلة الأخرى تتضافر على ذلك .

● **وعالمية الإسلام هي التي أزالت الفروق بين الأنبياء جميعًا:**

يقول رسول الله ﷺ : « **أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ليس بينه وبيني نبي ، والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد** » متفق عليه ، ويقول ﷺ : « **إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وجمّله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويَعْجَبُون له ويقولون : هلاّ وُضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين**» متفق عليه . ويقول تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾ [الأعراف:١٥٧] .

● **وعالمية الإسلام هي التي اخترقت حواجز الأرض والحدود فجعلت الأرض مسرحًا متصلاً :**

يقول تعالى : ﴿**قل يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [العنكبوت:٥٦] ، ويقول تعالى : ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** ﴾ [النساء: ١٠٠]

وروى النسائي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال :

مات رجل بالمدينة ممن ولدوا بها ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**يا ليته مات بغير مولده**» .

قالوا : ولم ذاك يا رسول الله ؟

قال : «**إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس بين مولده إلى منقطع أثره في الجنة**»

● **وعالمية الإسلام تطابقت مع خاتميته :**

لأنها ـ أي هذه الخاتمية ـ تعني أنه لم تعد للبشرية جميعًا حاجة لنبي بعد محمد ﷺ ، ولا يتطابق ذلك إلا مع العالمية .

يقــول الرســول ﷺ : « **فـضلــت على الأنبـيــاء بست ...** » وذكــر منهــا «**وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون**»[1] .

ويقول ﷺ : « **أنا العـاقب الذي ليس بعده أحـد** » والعاقب الذي لا نبي بعده . أخرجه مسلم في صحيحه .

ويقول ﷺ : « **ولي خمـسة أسـماء : أنا محـمد ، وأنا أحـمد ، وأنا الماحي الذي يمحـو الله بي الكفـر ، وأنا الحـاشـر الذي يحـشـر الناس على قـدمي ، وأنا العاقب**»[2]

ويقــول ﷺ : « **إني عند الـله لخـاتم النبــيين ، وإن آدم لمجندل فـي طينه ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات الأنبياء يرين** »[3] .

● **ومن أمـارات عـالمية الإسـلام أن أجناسًـا غيـر العـرب وجـدوا أنه ـ أي الإسلام ـ يكون لهم كما يكون لغيرهم :**

ومن هنا دخله الفـرس فأحـســوا أن الإسلام هو لهم أيضًــا ، ودخله الأتراك فأحسوا أن الإسلام هو لهم كما قد كان للعرب والفرس من قبل .

ودخله أهل الأندلس في الغـرب فكان الإســلام لهم كمــا هو للمــسلمين في المشرق . ودخله الأفارقة فأحسوا أنه هو لهم كذلك .

ويدخله الأوربيون في العصر الحديث فيحسون أنهم هم دعاة الإسلام.

ومن هنا فإن المتشائمين في مســتقبل الإسلام ـ بالنظر إلى تدهور حال العرب أو الفرس أو الأتراك ـ يجهلون أعماق كــون الإسلام عالميًا ، يجهلون أن الإسلام ليس لهؤلاء وحدهم ، وإنما هو للبشرية عمومًا .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه .

(٣) رواه أحمد في مسنده .

وأن دولة العرب لم تكن إلا دورة واحدة من دورات الحضارة الإسلامية .

وأن دولة الفرس - في ظل الإسلام - لم تكن إلا دورة واحدة من دورات الحضارة الإسلامية .

وأن الدولة العثمانية لم تكن إلا دورة من دورات هذه الحضارة كذلك.

وإذا كان بعض فلاسفة الحضارة - «شبنجلر» مثلاً - يرون - بحق - أن التاريخ ما هو إلا مسرح لعدد كبير من الحضارات العظمى ، وأن لكل منها فكرتها وعواطفها وحياتها وإرادتها وشعورها وموتها الخاص بها . . . فإنهم لا يدركون الحقيقة بالنسبة للإسلام ، إذ ينظرون إليه باعتباره حضارة أدت دورها وانتهت .

ذلك لأن عالمية الإسلام تجعله باقيًا في انسياحه وتنقله وقابليته لجميع الشعوب. فالإسلام يصنع دورات من حضارة : يقوم فيها العرب بدور ثم يقوم فيها الفرس بدور ، ثم يقوم فيها الترك بدور ، ثم يقوم فيها الأفارقة والأوربيون بدور .

لأن الإسلام ليس لجنسية من هؤلاء ، إنما هو للعالم .

لأنه هو النظام العالمي .

● **ولكي يكون نظام ما إنسانيًا عالميًا فإنه لا بد له من شروط موضوعية :**

١- أن يكون قائمًا على إيثار الإنسان وتفضيله على غيره من المخلوقات.

٢- أن يكون قائمًا على الرحمة بالإنسان والعطف عليه وتكريمه والحب له .

٣ - أن يكون محققًا للتوازن الضروري المطلوب بين حرية الإنسان وعبوديته.

٤- أن يكون قائمًا على العلم : العلم بالإنسان وتكوينه وظروفه وغاياته القريبة وغايته العليا .

٥- أن يكون قائمًا على العدل .

● **وإنه لمن المؤكد أن ليس ثمة نظام يجمع بين هذه الصفات ليكون نظامًا إنسانيًا عالميًا غير الإسلام :**

أولاً: فهو من الناحية الأولى: (إيثار الإنسان . . . . إلخ) نجد ذلك في الإسلام من بداية وجود آدم عليه السلام .

فمن بداية الأمر ، وعند خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام ، أمر الله الملائكة بالسجود للإنسان .

ومن بداية الأمر أيضًا طرد إبليس من رحمة الله لعصيانه هذا الأمر.

ومن بداية الأمر أيضًا آثره الله على الملائكة إذ علمه ما لم يكونوا يعلمون .

والقرآن الكريم يصرح بأن الله سبحانه وتعالى خلق للإنسان البيئة الكونية المحيطة به ، وسخرها له وجعلها في خدمته .

وحيث يصرح القرآن بذلك لا نجد به إشارة واحدة تدل على أن الإنسان مخلوق لخدمة أحد غيره ، أو لنفع مخلوق آخر .

ولقد جاء الإسلام إلى بني آدم ـ منذ البداية ـ ليجعل الإنسان على شرف الصلة المباشرة بالله ، وليمحو الوسائط من طريقه إلى الله : **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾** {الذاريات:٥٦}

ثانيًا : أما كونه قائمًا على الرحمة بالإنسان ، والعطف عليه والحب له فإن الإسلام يقدم لنا علاقة الإنسان بالله باعتبارها قائمة على الحب له والعطف عليه والرحمة به بشرط أن يتوجه اليه :

يقول تعالى : **﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾** { البقرة: ٢٢٢}

ويقول : **﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾** {البقرة:١٩٥}

ويقول : **﴿ إن الله يحب المتقين ﴾** {التوبة:٧}

ويقول : ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ [آل عمران:١٥٩]

ويقول: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة:٥٤] .

وفي الحديث القدسي: « **وجبت محبتي للمتحابين فيّ ، والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ ، والمتباذلين فيّ** »[1] .

ومن حديث عمر بن الخطاب ﷺ مما رواه الشيخان ، أنه قدم على النبي ﷺ سبي ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي ، إذ وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبي ﷺ :

«**أترون هذه طارحة ولدها في النار** ، قلنا : لا وهي تقدر على ألا تطرحه .

فقال : **لله أرحم بعباده من هذه بولدها** » متفق عليه

ومن حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قال رجل لم يعمل خيرًا قط .. فإذا مات فحرقوه واذروا نصفه في البر ونصفه في البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين . فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك وأنت أعلم . فغفر له** »[2]

وروى مسلم في صحيحه :« **والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في الفلاة** » .

● **ثالثًا : أما عن كونه محققًا لحرية الإنسان التامة ، وعبوديته التامة كذلك فذلك هو التوحيد في الإسلام :**

(لا إله إلا الله .) ، (إياك نعبد . . .)

وهو التوحيد في مصدر التشريع : ذلك أن من يشرّع لك فإنه يستعبدك .

---

(١) مصابيح السنة للإمام البغوي . حسن .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه .

فأولئكم ـ في غير الإسلام ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله)
أما في الإسلام (إن الحكم إلا لله .)

يقول الدكتور «هرمان راندال» في عبودية التشريع - في حديثه عن بنتام-: (كان من المتفق عليه في القرن الثامن عشر أن الله هو المشرّع . . ، ولقد سعى الناس لأن يجدوا قوانين الله في تلك الطبيعة. وهكذا فما صنعه الله للطبيعة والإنسان معًا يصنعه المشرّع للمجتمع.)

فلا مبالغة في قولنا : إن من يشرّع لك يستعبدك ، سواء كان ذلك متمثلاً في شخص المستشار القانوني المتواضع ، أو كان متمثلاً في تشريعات الكونجرس ، أو البنك الدولي ، أو مجلس الأمن ، أو المجمع المسكوني .

ومن ثم يصبح النظام الإسلامي هو الوحيد الذي يحقق للإنسان حريته كشرط من شروط العالمية الإنسانية .

● رابعًا : أما كونه قائمًا على العدل :

فالعدل الإلهي هو وحده العدل الحقيقي، لأن البشر جميعًا نسبتهم إليه واحدة فهو خالقهم جميعًا ورازقهم جميعًا ، ومعلمهم جميعًا ، وهاديهم جميعًا.

فلا يتحيز كما يتحيز البشر لطبيعة . ولا يتحيز كما يتحيز البشر لجنس .

ولا يتحيز كما يتحيز البشر لإقليم . ولا يتحيز كما يتحيز البشر لمصلحة .

وأخيرًا فإنه لا يتحيز كما يتحيز الكهنة ضد البشرية كلها ليأتي خلاصها ـ أي هذه البشرية ـ على يدهم وحدهم .

ومن ثم يقرر الإسلام أنه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥] ، فلا يرث البشر خطيئة آدم لتظل لعنة الخطيئة مسلطة على رقابهم إلى يوم القيامة (!).

يقول تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] .

ويقول تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧]

ويقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠]

ويقول تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

ويقول تعالى : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨] .

ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩] .

ويقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود:١٠١] .

ويقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس:١٣]

وفي الحديث القدسي : « **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة** »[1] .

(ما من أمير عشيرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يَفُكَّ عنه العدلُ ، أو يوبقه الجور)[2] .

● **خامسًا : أما كونه قائمًا على العلم :**

فذلك لأنه صادر من الله سبحانه وتعالى الخالق للإنسان .

يقول تعالى : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]

صادر ممن يعلم علمًا تامًا محيطًا : حقيقة الإنسان وتكوينه وإمكاناته وغاياته وتطوراته على مدى التاريخ الإنساني كله ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً.

وهو عالم أيضًا علمًا تامًا محيطًا بالظروف المحيطة بالإنسان : في المجتمع ، وفي الأرض ، وفي الكون . والإنسان بالضرورة يتأثر بذلك كله ؛ إنه يتأثر حتى بالأشعة الكونية التي تأتيه من وراء المجرة التي تسكنها الأرض .

---

(١) صحيح « مصابيح البغوي» .

(٢) مصابيح البغوي .

إنه ليس هناك نظام يصح أن يوصف بأنه للإنسانيـة كلها إلا أن يكون صادرًا ممن يحيط بهـذه العلوم جميـعًا ، وليس ذلك إلا لله ، خالق الإنســان ، وخالق الأرض وخالق الكون ، والمدبر لها جميعًا ، لغاية يقررها لها جميعًا .

إن الله هو الصانع الحـقيقي ، ولا نظام يصح للمصنوع إلا أن يـكون مأخوذًا من تعاليم الصانع .

إن الصانع هو الذي يعلم أسرار صنـعته ، والإعراض عن الصانع فيـه تدمير للمصنوع ، وانحراف به عن الغرض الذي صنع من أجله .

وإذن فلا نظام عالميًـا للإنسان إلا أن يكون مأخوذًا من الله سبـحانه وتعالى : أي إلا أن يكون هو الإسلام .

● **المرجعية في النظام العالمي :**

إنك إذا دعوت إلى نظام عــالمي فإنك لا بد أن تحتكم إلى فلســفة أو نظرية أو عقيدة توضح الحقوق والواجبات والغايات التي يقوم عليها هذا النظام .

ولذا فإن لكــل فلسفة أو نظـرية نظامها الخـاص بها ، وإذا كـانت النظرية أو الفلسفة تنتمي إلى فـرد معين ، أو أمة معينة ، أو طبقة معـينة أو عصر معين ، ـ ولا بد لهــا من ذلك ـ فإن الـنظام الذي تدعو إليـه هو نظام هذا الفـرد ، أو هذه الأمة أو تلك الطبـقة في ذلك العصـر ، وهذا في حد ذاته كـاف في إبطال كونه نظامًا عالميًا إنسانيًا .

وهذه العيوب الجوهرية يبرأ منها النظام الإسلامي براءة مطلقة .

لأن هذا النظام لا ينتمي لفـرد ولا لطبقة ولا لأمـة ، وإنما هو ينتمي إلى الله الخالق للإنسان ، الرحيم بالإنسان العليم بالإنسان .

وإذن فهو لا يحمل في ثناياه عوامل نقضه وانهياره ، كما هو الشأن في النظام

العالمي المصنوع بإرادة مجلس الأمن ، أو مجموعة الدول ، أو مجموعة البنوك ، أو مجموعة المؤتمرات .

وقد يظن البعض أن عوامل التحيز والعنصرية الموجودة في الغرب اليوم مجرد تراث يضمحل شيئًا فشيئًا ، وهو في طريقه إلى الزوال .

والحق غير ذلك .

إنها خطة رسمية دولية ، تختفي وراء أقنعة أحيانًا ولكنها تنكشف أحيانًا أخرى لتظهر في صورتها الصحيحة .

وعلى سبيل المثال نشرت مجلة «الإيكونوميست» البريطانية بتاريخ ٧/ ٢/ ١٩٩٢م نص مذكرة سرية للبنك الدولي تقترح أن يتولى البنك تشجيع تصدير الصناعات القذرة من الدول الصناعية المتقدمة إلى بلدان العالم النامى. وقالت المجلة: إن لورنس سمرز كبير الخبراء الاقتصاديين في البنك الدولي هو الذي أعد المذكرة وأنها أحدثت ضجة .

وقالت الإيكونوميست: إن «سمرز» ذكر في مذكرته السرية ما نصه : (بيني وبينكم : أليس من الواجب على البنك الدولي أن يشجع على المزيد من هجرة الصناعات القذرة إلى الدول الأكثر فقرًا ؟!

وأضافت المجلة إن «سمرز» قال في مذكرته: إن أغلب مناطق أفريقيا على سبيل المثال أقل تلوثًا من لوس انجلوس) [(١)]

وعلى صعيد آخر يذكر لنا ملحق جريدة الاتحاد بأبي ظبي الصادر في ٢٠/ ٢/ ١٩٩٢م عن اليابانيين أنهم : (لا يشيرون إلى أنفسهم أبدًا على أنهم آسيويون، لأن باقي أهل آسيا بالنسبة لهم هم أجناس أقل مرتبة ، والسماح لهم بالاستقرار في اليابان والهجرة إليها لن يؤدي إلا إلى تشويه « النقاء العنصري

(١) جريدة الأهرام ٨/ ٢/ ١٩٩٢م .

للجنس الياباني » بـدليل تلك المذكرة الداخلية التي تقول المراسلة إن جهاز الشرطة الوطني في طوكيـو أصدرها مؤخراً لينبـه فيها ضـباط الأمن إلى أن بعض هؤلاء الآسيويين له « رائحة نفاذة متـميزة » ولا يتردد في الكذب ، وتطلب المذكرة منهم أن يغسلوا أياديهم بعد احتجاز هؤلاء المشبوهين) .

● **أهمية النظام العالمي :**

إن الدعوة الذائعة اليوم إلى النظام العالمي والعولمة تشير بحق إلى تيقظ الشوق الفطري الإنساني إلى العالمية .

الإنسانيـة ضاقت بظلام الدروب ، والتـواءات الطرق ، وتطلعت إلى الطريق الشامل المستقيم .

هذا هو الجزء المضيء في الدعـوة إلى النظام العالمي والعولمة ، أما الاسـتجابة لهذا الشوق فكيف تكون ؟ هذا هو السؤال .

هذا هو الجزء الذي تجيب عليه القوى الاستعمارية إجابة خاطئة .

لقد تيقظ الشوق ولا بد من إرضائه ، ولكن إرضاء هذا الشوق إلى العالمية لن يكون إلا تحت نظام تتحقق له شروط العالمية التي ذكرناها .

* * *

الأصالة والمعاصرة

● **الأصالة والمعاصرة :**

إن إهدار شخصية الإسلام ، وذاتيته ، وخصوصيته هو أعتى حركات تزييف الحقائق الإسلامية القائمة على قدم وساق في عالم اليوم .

وهو أخطر الحركات المضادة للإسلام على الإطلاق ، وهو أخطر من كل ما يجرى على السطح من معارك سياسية أو اقتصادية أو عسكرية . وهي حركات ـ أو معارك ـ تستعمل فيها كل أساليب المناورة والخداع والكر والفر والمكاشفة والمسايرة، وتكشير الأنياب ، أو لبس أقنعة الأحباب . . إلخ حسب الظروف والأحوال .

ومن أهم ميادين الكر والفر في المواجهة الإسلامية المعاصرة موضوع : الأصالة والمعاصرة .

وسوف نتجه مباشرة إلى الكلام عن الأصالة والتراث والمعاصرة .

● **الأصالة :** تعني الرجوع إلى الأصل .

والأصل يعني الإنسان . أو إنسانية الإنسان. بفطرته التي فطره الله عليها .

شطرها الضروري « الطبيعي » . كفطرة ربانية تقوم على جوانب متكاملة : جسدية وعقلية ، ووجدانية واجتماعية ، وكونية .

وشطرها الإرادي التكليفي القائم على التسليم الاختياري للخالق ، مقابل تسليم بقية المخلوقات تسليمًا طبيعيًا لخالقها سبحانه وتعالى .

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان:٢٢]

والتسليم الاختياري الإرادي لله تعالى يعني الدخول في دينه وهو الإسلام .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران:١٩]

والدخول في دين الله يعني الاستقامة على نهج الله وصراطه **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾** [الأنعام: ١٥٣]

والاستقامة على نهج الله تعني التسليم لإرادته والخضوع لمقاصده سبحانه والعمل وفقًا لشريعته .

* **المقصود بالأصالة على هذا النحو إذن هو :**

(إنسانية الإنسان = فطرته الطبيعية + فطرته الإرادية التسليمية التكليفية)

إن الأصالة في حياة الإنسان تعني المستقر الثابت الممتد في الماضي والحاضر والمستقبل .

والمستقر الثابت هنا إما أن يكون مستقرًا ثابتًا بالضرورة ، وهذا هو الجزء الذي وضعه الله فينا عقلاً وجسدًا وروحًا واتصالاً بالمجتمع واتصالاً بالكون .فتسلم له ضرورة . ثم هو الجزء الذي أراده الله منا فنسلم له اختيارًا : دينًا وتشريعًا ، وخلافة في الأرض .

● **التراث :**

ومن هنا يمكننا أن نتصفح التراث لنميز فيه بين ما يتفق مع الأصالة وما يتعارض معها .

هنا يمكننا أن نقول : ليس كل ما في التراث أصالة .

إذ ليس من المعقول ـ بداهة ـ أن يكون كل ما يلتقطه الإنسان في طريقه طوال الأحقاب والقرون إضافة للإنسان كإنسان : فطرة طبيعية وفطرة إرادية .

هناك الكثير جدًا من التراث الذي لا ينتسب إلى الأصالة بدرجة أو بدرجات .

إن التراث ليس إلا الحصيلة التاريخية لحركة الإنسان : ما بين الأصالة والمعاصرة في وقت من الأوقات .

وإذا أردنا مزيد توضيح لهذه النقطة في مجال تراث الفكر الإسلامي فإننا نلقى نظرة سريعة على مسار هذا الفكر في عصوره الأولى ما بين الأصالة وما كان يسمى المعاصرة آنذاك . فسوف نجد الخط البياني الذي يبدأ بمجموعة الإيمان بالنص إلى أن ينتهي في أقصى اليسار بمجموعة الإيمان بالفلسفة .

حيث نجد في أقصى اليمين: القرآن والسنة، لنرتب بعدهما موقع الصحابة

والتابعين، ثم أئمة الحديث ثم أئمة الفقه، ليدخل المسار بعد ذلك مع علماء الكلام: أشاعرة ومعتزلة، ثم ما يسمى الفلاسفة المسلمون، ثم زعماء الفلسفة اليونانية.

هذا كله موجود في التراث الإسلامي .

فليس بوسعنا إذن القول بأن كل ما في التراث أصالة .

فليست نظرية وحدة الوجود أصالة . وليست فلسفة إخوان الصفا أصالة .

وليست نظرية العقول العشرة أصالة . وليس ادعاء الحلول الإلهية أصالة .

وليست شيوعية القرامطة أصالة . وليست إباحية الحشاشين أصالة .

وإنما هو ماض ، يدرس لتعرف خباياه ومداخله ومخارجه لأهداف مختلفة .

وكما أنه ليس كل ما في التراث أصالة ،فكذلك ليس كل ما في الأصالة تراثًا.

فليس القرآن تراثًا . وليس الوحي عمومًا (قرآنًا وسنة) تراثًا .

وإنما هو الأصل . أصل حاضر ، حي .

وينبغي أن نتعامل معه على هذا الأساس .

فأين يأتي دور التراث إذن ؟

هنا نقول : دور التراث ، أو بعبارة أصح : دورنا نحن مع التراث:

هو أن نأخذ منه وندع . ومقياسنا في هذا الأخذ والترك هو : نأخذ منه كلما كان هذا الأخذ أقرب إلى الأصالة . وأقدر على المعاصرة .

ونترك : كلما كان الأخذ أبعد عن الأصالة وأعجز عن المعاصرة .

● المعاصرة :

وإذا عرفنا الأصالة والتراث على هذا النحو عرفنا معنى المعاصرة .

وعرفنا ما ينبغي من المعاصرة التي تحافظ على الأصالة وتتمشى معها .

معنى المعاصرة إذن :أن نعيش بأصالتنا مع عصرنا . نعيش بأصالتنا لأنها نحن .

مع عصرنا : لأن العيش مع العصر ضرورة واقعة أولاً ، ورسالة واجبة ثانيًا .

أما أنه واقع ، فلأنها ـ أي المعاصرة ـ واقع زمني ، يتصف به كل البشر؛ إنه مثل السماء والأرض والشمس والقمر . . ، وهو ليس حكرًا لأحد ، وليس استعمارًا للزمن ، يحق لأحد .

إننا ـ واقعًا ـ لا يمكننا أن نغلق الأبواب دون عصرنا .

فهو يقتحمنا ، ويجرفنا ، أردنا أم لم نرد .

التكنولوجيا ، الحروب النووية ، والفضائية ، الهندسة الوراثية ، ثورة الاتصال . . . إلخ .

إنه يتحتم علينا أن نعيش « عصرنا » .

لكن بأي معنى .

هل نعيش «له» . .؟ أو نعيش « معه » . . ؟

أن نعيش «لعصرنا» يعني أن نكون ملكًا له، نفقد ذواتنا ، ونفرغ أنفسنا من محتواها، لنحشوها بكل ما يأتي من جديد، تنتجه «المنطقة الاستعمارية للعصر» .

فنفقد بذلك الأصالة من أول خطوة .

إن هذا منهج خاطئ ، وهو فوق ذلك منهج فاشل .

لأن أصالتنا تعيش في دمائنا .وتنبض في أدمغتنا ، وتنبع من فطرتنا

يقول رسول الله ﷺ : « **إن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة** »[1] .

أما أن نعيش مع عصرنا ، فإنه يعني أن نفهمه ، وأن نشعر بهمومه ، وأن نستغل إمكاناته لنعبره إلى المستقبل ، إلى ما بعد العصر .

إن هذا العصر سيال متحرك نحو المستقبل ، وعلينا نحن أن نساهم في وضع صورة ما بعد العصر .

صورة المستقبل المفتوح .

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، بسنده عن الحسن البصري في سؤاله أحد الصحابة عن خطب رسول الله ﷺ .

نعبر « المنطقة الاستعمارية للعصر» تلك التي رفعت أعلامها الحضارة المعاصرة، بعد أن استعمرت الجغرافيا والتاريخ ، أعلنت أنها استعمرت «العصر».

وعلينا نحن أن نعيش مع هذا العصر لنعبره إلى ما بعده .

ولعلنا بذلك نكون أكثر صلاحية لإبداع صورة المستقبل ، أكثر من أولئك المنغمسين في أحضان العصر .

إن المعاصرة بالنسبة لنا ـ إذا أردنا الاحتفاظ بالأصالة ـ لا تعني العيش للعصر.

وإنما العيش معه ، أو بعبارة أدق : في موقع قيادته .

من أجل تقديم المساهمة الإيجابية المبدعة لتغييره ..

ولا يكون ذلك إذا أفرغنا ذواتنا وحشوناها بمحتويات العصر .

وإنما يكون إذا احتفظنا بذواتنا ، وجعلنا من أصالتنا : إيمانًا ، وعلمًا وعملاً، أدوات نعالج بها العصر من أجل المستقبل .

إنه لا يصح أن نخسر العصر ، تمامًا ، كما أنه لا يصح أن نخسر الأصالة .

ذلك أننا إذا خسرنا العصر خسرنا الأصالة ، وإذا خسرنا الأصالة خسرنا العصر أيضًا .

إن المعاصرة رسالة الأصالة .

إن التقوقع والجمود والهروب من العصر خيانة لرسالة الأصالة فينا .

إن الأصالة بشقيها : الطبيعي والاختياري .. تدعونا إلى الإمساك بناصية العصر .

إذا خسرنا العصر خسرنا الأصالة ، لأن الأصالة تدعونا إلى إعادة تشكيل العصر ، من أجل إعادة تشكيل المستقبل .

ومن الناحية الأخرى : فإننا إذا خسرنا الأصالة خسرنا العصر أيضًا، لأننا عندما نخسر الأصالة نخسر أنفسنا ، ومن خسر نفسه فإنه لا يملك شيئًا .

وعلى أساس ما تقدم فإنه يمكننا أن نقول : ليست الأصالة مناورة لفظية ، أو مراوغة فكرية ، أو بعثًا للأموات ، أو إقامة للمـهرجانات ، أو تفتيشًا عن خامل الثقافات . . أو استعراضًا لألوان الفـولكلور ، أو تخشعًا أمام قبور الفراعنة ، أو انتشاء بأعياد النيروز ، أو تغزلاً بمكارم قحطان، أو تعصبًا لما يسمى التراث . . .

كلا : إنما الأصالة بكلمة بسيطة : هي الاستقامة على فطرة الله ، طبيعة فينا وديانة منزلة علينا .

كذلك فإن المعاصرة ليست هي : القبعة ، أو الجينز ، أو الفيديو ، أو الرطانة بلغات الـعالم المتحـضر ، أو اقـتناء للوحة «لفـان جوخ» ، أو الرقص في أعـياد الميلاد، أو تبادل الكئوس ومخاصرة النساء في الحفلات . .

ولكن المعاصرة هي :

تحرير العصر من الأسر، وحث الخطى نحو المسـتقبل إلى عصر جديد، نخط فيه سورة العصر على أعلام الأمم، أو هيئة الأمم إن شئت .

قال الله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر] .

يقول رسول الله ﷺ : « مَـا من مولود إلا يولد على الفطرة فـأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجـسانه ، كما تنتج البـهيمة بهـيمة جمـعاء هل تحسون فـيها من جدعاء »[1] .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣١] .

* * *

(١) رواه البخاري ومسلم . .

الذاتية.. ودماء مسفوحة

● **الذاتية .. ودماء مسفوحة:**

لكي نتعرف على ذاتية الحضارة ـ فيما ينبغي أن يكون ـ وطبقًا للمنهج الإسلامي ، يجب أن نقرر مبدئيًا أن الإسلام « نسق » .

والنسق لا يقبل التفكيك . تمامًا كما هو الحال في أي كيان عضوي متكامل.

كنظام الذرة ، والخلية .

وجسم الحيوان ، والفلك .

وإذا قبلنا تفكيك نسق ما فإن هذا يعني أننا قبلنا تدميره يقينًا ، ولحساب غيره احتمالاً .

الأنساق لا تفكك ، وإذا فككت دمّرت .

وإن كثيرًا من المفكرين الإسلاميين ـ وفي هذا القرن العشرين بالذات ـ ليقومون بدور تفكيك الإسلام [1]: ظنًا منهم أن يعودوا إلى تركيبه بعد ذلك تركيبًا عصريًا (!!) .

فيأخذون منه « إفراد الله بالعبودية » ليروجوا لـ « الليبرالية » : مع أن إفراد الله بالعبودية جزء من النسق الإسلامي العام ، و « الليبرالية » جزء من النسق العلماني العام ؛ فهيهات .

ويأخذون منه تكريم الله « للإنسان » عبدًا لله ، ليروجوا لحقوق الإنسان .

تكريم الله للإنسان العابد جزء من النسق الإسلامي .

وحقوق الإنسان جزء من النسق العلماني الذي تقوم عليه هيئة الأمم «العصرية » .

(١) هؤلاء أهون حالاً ممن يعومون الإسلام إلى سطحية الالتقاء مع غيره في صياغات شديدة العمومية لا تختص بدين .

ويأخذون منه رعاية الإسلام للفقراء ليروجوا للاشتراكية.

رعاية الفقراء جزء من النسق الإسلامي.

وإفقار الأغنياء جزء من النسق الشيوعي .

ويأخذون منه شرعية « البيع » و « الربح» ليروجوا للربا .

الربح جزء من النسق الإسلامي في الاقتصاد .

والربا جزء من النسق العلماني .

وهكذا . . . .

قالوا : تلك الحضارة (المسيحية اليهودية الإلحادية !!) :

هي العلم ، والإسلام دين العلم ، وتغافلوا عن وضعية العلم في البناء الإسلامي ، وهي وضعية الأداة التنفيذية ، لا الفيلسوف ، ولا المشرع ، ولا المنظّر ، ولا المقيّم للأشياء .

قالوا : هي العقل، والإسلام دين العقل ، وتغافلوا عن وضعية العقل في الإسلام ، وهي وضعية المخلوق الساجد لأمر الله .

قالوا : هي القوة، والإسلام دين القوة ، وتغافلوا عن وضعية القوة في البناء الإسلامي ، وأنها مطلقة في جانب الله ، مقهورة بشرع الله في جانب المخلوق .

وهكذا . . .

قالوا: هي الغنى والرفاهية والجمال، والإسلام دين الغنى والزينة والجمال . .

صنعوا لنا ملامح القربي والتشابه مع الغرب ليمحقوا تميز الإسلام وليسحقوا ذاتيته ، ولتظل القبلة الحضارية هناك .

صنعوا للحضارة الإسلامية ملامح القرب والتشابه وأعلنوها بغير خصوصية لتنزلق في مزالق التبعية .

طمسوا ملامح الخصوصية ، فأفقدوا الأمة شرط النصر من الله الذي إنما يأتي لمن ينصرون الله .

طمسوا ملامح الغربة ، فأفـقدوا الأمة شرط عودتهم إلى الإسلام ، أو عودة الإسلام إليهم « **بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء** »[1] .

أسقطوا الخصوصية، فأسقطوا الملامح ، فأسقطوا الشخصية وأهدروا الذاتية .

لمصلحة من ؟ : المعاصرة كما يقولون !!

وأولى بهم أن يسموها اعتصارًا .

لحساب التجديد كما يظنون ، وأولي بهم أن يسموه التبديد .

إن الذي يقوم به هؤلاء المفكرون لن يعود على الإسلام بالمعاصرة .

وإنما يعود عليه بالتفكيك والتبديد .

إن للإسلام شخصيته الحضارية .

والشخصية كائن عضوي يؤخذ ككل .

أو على الأقل تجري المحاولة في هذا الأخذ على هذا الأساس .

التفكيك قد لا يضر بالمادة أو بالجماد .

قطعة الحـجر عندما تـقسم إلى عشـرة قطع فإن كل قطعة منـها تظل منتسـبة بالفعل إلى « الحجر » ، ولا تصبح شيئًا آخر .

أما الشـخصـية ـ ككائن عـضوي ـ فـإنها إذا فككت لا تصـبح هي هي . . وكذلك لا تصبح هي هي إذا أعيد تركيبها وفقًا لمنظومة أخري .

إن فقدان الخصوصية الشخصية ليس بعثًا ولكنه اقتبار .

---

(١) اخرجه مسلم في صحيحه .

لا يبعث الإسلام وهو أشلاء مختلطة بالمسيحية ، أو باليهودية ، بالاشتراكية أو الشيوعية ، بالرأسمالية أو الربوية ، بالديموقراطية أو الليبرالية بالدكتاتورية أو الأتوقراطية ، أو الثيوقراطية ، بالتقدمية أو التطورية أو الرجعية ، بالوسطية أو الثورية ، بالراديكالية أو الأصولية ، بالعقلانية أو العلمانية أو العلموية ، بالقومية أو الماركسية أو البعثية ، بالعصرنة أو الإنسانية ، أو عالم القرية الواحدة المحكوم بمجلس الأمن .

لقد ذهب ـ أو يجب أن يذهب ـ إلى مزبلة التراث القريب :

قول أحدهم : «علينا أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة : خيرها وحلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب » .(1)

لقبد ذهبت ـ أو يجب أن تذهب ـ إلى مزبلة الحاضر القريب بلايين الكلمات التي كتبها الاتباعيون للحضارة (المسيحية اليهودية الإلحادية) يروجون بها لها ، ليجعلوها هي القبلة ، بزعم أنها هي العصر ، وأنها هي العلم .

ولقد كذبوا ، فهذه الحضارة ليست هي العصر ، وإنما هي المستبد بالعصر ، وهذه نزعة إلى استعمار الزمان ، بعد استعمار المكان ، نزعة إلى استعمار التاريخ بعد استعمار الجغرافيا .

أما العصر الحقيقي فهو عصر الله الذي أقسم به ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ سورة العصر

وهذه الحضارة ليست هي العلم ، وإنما هي المحتكر للعلم ، باسم القوة.

العلم والعلم التجريبي نفسه منهج بشري قديم .

وللإسلام فيه دور رائد أصيل .

(1) مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين ص ٤١ .

وهو مع ذلك ليس روح هذه الحضارة ، ولا روح عصر هذه الحضارة.

روح هذه الحضـارة ، وروح عصـر هذه الحضارة نعـثر عليه فـي الدنيوية أو العلمانية .

نعثر عليه في الصراعية أو التطورية .

نعثر عليه في الأصولية المسيحية والأصولية اليهودية .

نعثر عليه في التخليط بين هذا كله مع الإلحادية .

نعـثر عليـه في مسـحة السـفسطة اليـونانية القـديمة ، التي حاصـرها الفكر الإسلامي في سجن « العندية » ثم انبـعثت على يد شياطين الفلسفـة المعاصرة في مذاهب « الصيرورة » و « النسبية» و « التاريخية » . .

ليست تلك إذن هي حضارة العصر أو حضارة العلم .

كذب وتزييف .

تزييف لهذه الحـضارة يراد به بعـد ذلك تزييف للإسلام ، فلا يعـود الإسلام بذاته ، أو بشخصيته .

فلا يعود الإسلام غريبًا .

ولا يعود الإسلام إسلامًا .

ولا يعود الإسلام .

ولا تظهر ذاتية الإسلام بالتفكيك .

إنما تظهر بإدراك خصوصيته التركيبية .

وهي تظهر في النظر إلى قضاياه الأساسية مقارنة بنظرة الغرب إليها.

ففي العلاقة بالله نجد المحـور في الإسلام هو إسلام الوجه لله ، وفي الغرب نجد أرقي شكل من أشكال النفاق الفكري : إذ يعلن الحياد إزاء المسألة. !

وفي العلاقة بالزمن نجد المحور في الإسلام هو الأخروية .

وفي الغرب نجد المحور هو الدنيوية .

وفي العلاقة بالتاريخ نجد المحور في الإسلام هو التوازن وفي الغرب نجد المحور هو الصراع حتى الإبادة .

وفي العلاقة بالبيئة نجد المحور في الإسلام هو في الاستفادة بها مسخرة من الله مكفولة بشريعته . وفي الغرب نجد المحور هو المغالبة حتى وهم السيطرة .

وفي العمل من أجل الترقي نجد المحور في الإسلام هو الجهاد في سبيل الله، بينما نجد المحور في الغرب هو دعوي جبرية التقدم .

وفي قضية الحقوق نجد المحور في الإسلام يدور حول حقوق الله المنعم بحقوق الإنسان ، بينما نجد المحور في الغرب هو حقوق الإنسان المنتهبة بأيدي قوانين البقاء .

وفي قضية الضعفاء نجد المحور في الإسلام هو النصرة من الله بواسطة الضعفاء يقول رسول الله ﷺ : «**أبغوني في ضعفائكم فإنكم إنما تنصرون بضعفائكم**»(١) .

بينما نجد المحور في الغرب هو النصرة على الضعفاء بواسطة السوبرمان .

وفي قضية التشريع نجد المفارقة التي لا تستبين إلا بالتسليم لله ـ الذي هو أساس الإسلام ـ هذا التسليم الذي لا يكون إلا بتطبيق الشريعة تطبيقًا كاملاً قد يعذر فيه تقصير المستضعفين ولا يعذر فيه إنكار الجاحدين .

الشريعة : أهدافًا ، وأحكامًا ، عامة ، وجزئية ، وإن يكن مع النزول على أحكام الواقع في التدرج والانتقال والتيسير، مع الأخذ بوسائل التنفيذ الحديثة المتجددة .

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين ج١ ط١٩٨٤ ص ٣٣٥ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي .

وقد يتفيهق بعضهم فيقول :إن الوسائل الحديثة تجر معها قيمًا خاصة بها .

ونقول : نعم ، لكن في التشريع الإسلامي العلاج لذلك .

إذ نأخذ من هذه الوسائل تحت قواعد التشريع الإسلامي :

الضرر يزال ـ ارتكاب أخف الضررين ـ سد الذرائع ـ رد المفاسد مقدم على جلب المصالح بعد حساب الموازنة بينهما . . إلخ .

نعم لقد درج الفكر ـ في المجال الإسلامي ـ المعاصر على اصطياد جهات التشابه بين الإسلام وبين غيره من الأديان والمذاهب والأنظمة ، وجري التركيز على ذلك ، حتى كدنا نري كل دين أو مذهب أو نظام ـ قائمًا بذاته هناك ، يعلن تفرده وكينونته وشخصانيته ما عدا الإسلام .

فككنا الإسلام .

قلنا : في الفلسفة اليونانية « العقل » وفي الإسلام « العقل» ، ثم أخذنا بالفلسفة اليونانية .

في الفلسفة المعاصرة « العلم » وفي الإسلام « العلم» ثم أخذنا بالعلموية .

في الفلسفة « النيتشوية» «القوة» ، وفي الإسلام «القوة» ، ثم أخذنا بالنيتشوية .

في النظام العلماني «الدنيوية» وفي الإسلام «الدنيوية» ثم أخذنا بالعلمانية.

في النزعة الحضارية « المتعة» وفي الإسلام « المتعة» ثم أخذنا بالمتعوية .

في اليهودية « التوحيد» وفي الإسلام « التوحيد» وفتحنا الباب لليهودية .

في المسيحية «المحبة» وفي الإسلام «المحبة والرحمة» وفتحنا الباب للتنصير.

في الصوفية الهندية « النرفانا» وفي الإسلام « ابن عربي» وفتحنا الباب للنرفانا . . . . وهكذا .

صار الإسلام مزقًا وأشلاء . . .

وفي ركام المزق والأشلاء تضيع الشخصية كما يضيع الوجود .

إذا كان «س» من الناس له أنف ففي كل واحد من الناس أنف .

وإذا كان له «أمعاء» فلكل حيوان أمعاء . . .

أين «س» إذن ؟

من هو «س» ؟

مزقناه . قتلناه .

إذن فنحن أمام جريمة .

* * *

وأسلوب ثان في محاولات محو الذاتية :

ذلكم هو الذي اتبعه المستشرقون منذ وقت غير قصير ، وتابعناهم فيه إلى حد كبير . وهو أن تمزق حقائق الإسلام وتوزع على أكياس « جانبية» يسهل التخلي عنها ، فهذا كيس « الصوفية» توضع فيه « المحبة» .

وهذا كيس « السلفية» يوضع فيه « الاتباع» .

وهذا كيس « المعتزلة» يوضع فيه « التنزيه» .

وهذا كيس « المعاصرة» يوضع فيه « العقل أو العلم» .

وهذا كيس « الأصولية» يوضع فيه « الالتزام» .

فإذا بما هو « الإسلام» أصبح « لا شيء» ، وعندئذ تتصدي العلمانية لملئه فتصبح العلمانية إسلامًا أو الإسلام علمانية .

ذلكم هو أسلوب التوزيع لميراث الإسلام !!

أما الأسلوب الثالث: فهو ما رسمته المنطقية الوضعية أو المذهب التحليلي من منهج دقيق في التعامل مع الإسلام ، وهو أن تؤخذ العناوين من تراث الحضارة الإسلامية وتفرغ من مضمونها الإسلامي ، وتحقن بمضامين جديدة واقعية وكما يقول أستاذ الوضعية المنطقية (أن نملأ الصور المفرغة لتلك المبادئ بمضمونات جديدة) وعلى هذا الأساس يعاد تفسير مفاهيم الإسلام وعقائده ، فيكون «الله» جل جلاله ماذا ؟ صفات ، وتكون الصفات ماذا ؟ « العلم» مثلاً ؛ وهات «العلم» أفرغه من مضمونه القديم واملأه بالمضمون الحديث ، فيصبح هو «العلم التجريبي»[1] . . و « يا دار ما دخلك شر» . وهكذا . . . .

وتحول القضية برمتها إلى باطنية عصرية ، أو إلى وجهة نظر لغوية!!!

هذه هي أساليب العصر الثلاثة :

التفكيك بحثًا عن التشابه .

والتوزيع من أجل التمزيق .

والتفريغ من أجل التزييف .

هذه هي أساليب العصر في تدمير الذاتية الإسلامية . . . وهكذا ترتكب الجريمة الكبري !

والمسلم في «مستقر الذاتية» ليس أمامه إلا أن يرفض هذه الأساليب جميعًا ويلزم بيته الذي هو: « الإسلام » . الإسلام هو «ما يميزه » .

وهو فيما يميزه ليس تلك الشطائر أو المزق أو « العرائس» التي تقدم من هذا الجانب أو ذاك .

المسلم يرفض الانسياق إلى تناول الإسلام من خلال رؤية يونانية ، أو لاتينية، أو ماركسية أو براجماتية ، أو تاريخية .

---

(١) انظر تجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمود .

المسلم يرفض الانسياق إلى تناول « عرائس» كاذبة مغشوشة تقدم إليه بعناوين من تراث قديم . .

المسلم يرفض الانسياق إلى مسارب التيه بتسمية ما هو من الإسلام بأسماء الفرق والمذاهب .

الإسلام هو كلمة « الإسلام» لفظًا ومعنى .

وما يميزه هو معنى كلمته .

« إسلام الوجه لله» وسيطرة الآخرة على تصرفاته تحقيقًا لهذا «الاسلام» .

* * *

إن الإبقاء على الذاتية إنما يكون بإبراز نقاط المفارقة والاختلاف : تلك بديهية لا يمكن أن تكون محل خلاف وإن غابت عنا طويلاً .

ففي الحضارة الغربية سيطرة الدنيوية ، أما في الذاتية الإسلامية فسيطرة الأخروية .

في الحضارة الغربية التسليم «للإنسان» أما في الذاتية الإسلامية فالتسليم «لله».

ذلكم جوهر الذاتية الذي في ضوئه يعاد النظر في كل ما يبدو من مظاهر التشابه بين الإسلام وبين الحضارة الغربية فإذا لكل شيء من هذا التشابه معني مختلف .

ولا يعني هذا رفض الحضارة الغربية جملة ، إذ مع كون ذلك انعزالاً قاتلاً وانتحارًا جماعيًا ، فإن فيه افتئاتا على الله : لأنه لا تخلو هذه الحضارة من خير فيكون نكران هذا الخير نكرانًا لنعم الله ، وحرمانًا من فضله .

وإذا كان لا بد من الانتقاء واختيار ما يصلح فإن السؤال يظل قائمًا : ما مقياس ذلك ، ما مقياس ما يصلح وما لا يصلح « لنا» ؟

ذهب بعض الكاتبين إلى « أخذ التكنولوجيا» كما هي ، وانتقاء بعض القيم النافعة . وهو رأي خطير يحتاج إلى مراجعة وتمحيص .

لا بد من مقياس .

والمقياس هو في قلعة الذاتية الإسلامية القائمة على التسليم لله ، والسيادة للآخرة .

عندئذ لا بد من أن نعلن رفض استيراد ما يأتي من تلك الحضارة في باب القيم، والأهداف، والأحكام التشريعية العليا لأنها جميعًا جاءت تحت «سيطرة الدنيوية» .

ثم نعلن الأخذ بما عندهم من « الوسائل» التي يمكن أن نستخدمها لقيمنا وأهدافنا وشريعتنا أو بعبارة أشمل وأدق لتأكيد ذاتنا .

حتى التكنولوجيا لا بد فيها من المراجعة [1].

على أن يتم ذلك على أسس من أصول شريعتنا :

في تحقيق المصلحة «من المنظور الإسلامي» وسد الذريعة « من المنظور الإسلامي» وارتكاب أخف الضررين « من المنظور الإسلامي» أيضًا .

* * *

وما عدا ذلك فمصيره الفشل المؤكد .

ذلك أن ضمائر ذواتنا ممغنطة بما لا يتفق مع أقطاب هذه الحضارة الغربية .

إن المغناطيس الذي صنعت به الذاتية الإسلامية تكون أقطابه من : جبريل ، ومحمد ، والقرآن .

(١) يجب أن ننظر بحذر وتشكك إلى الآراء المتداولة عن نقل الأعضاء والهندسة الوراثية ، والسيطرة على البيئة .. إلخ .

فكيف ينجح في داخله مغناطيس معادٍ :

تكونت أقطابه من «وليم جيمس »، و«القديس بولس»، و«كارل ماركس» ؟!

كيف ينجح مجال مـغناطيسي كهذا معاد لمغناطيس عـقيدة الملك الذي هو بيد الله ، ومغناطيس الملكوت الذي هو بيد الله كذلك ؟

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [تبارك:١].

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [تبارك:١٦-١٧]

فيا أيها البشر : ادخلوا مساكنكم .

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل:١٨].

ملك الله . . . ونحن !

ملك سليمان والنمل !

في قوانين ملك الله أين الصراط المستقيم ؟

في قوانين ملك سليمان أين الأمان ؟

ادخلوا مساكنكم .

تلكم هي الذاتية الإسلامـية : وكل طرح عدا ذلك فإنما يحـسب في عمليات التزييف القائمة على قدم وساق.

ولا يتوهم واهم أننا ونحن نتـحدث عن ذاتية النسق الإسلامي نعنـي حصيلة التراث التي تكونت عبر القرون .

كلا .

فما هكذا يـكون موقف الإسلام من تراث أمة وشعـب ، وهو أصلاً صاحب الموقف الفاحص الناقد الرافض لمنطق « إنا وجدنا آباءنا على أمة» .

ولكن الذاتية الإسلامية تعني مـا هو إسلام خالص، نطق به « الوحي»: قرآنا وسنة . وتراثًا بمقدار اقترابه من القرآن والسنة .

إن هذه الذاتية تتلخص في :

الإسلاميـة : إسلام الذات لله .

الإلهيـــة : خضوع الذات لله .

الأخرويـة: ربط الدنيا بمصالح الآخرة .

● معركة « الذاتية» :

صمـيم المعركة الدائرة الآن بـين مقومـات الحضارة الإسـلامية وأعـدائها هي معركة الاعتصام بالذات .

وهي معركة ثقافية .

صميم المعركة الدائرة الآن هو في الدائرة الأولى لصنع الإنسان المسلم .

لقد تهاوت بالفعل دوائر خـارجية تم صناعتها وتهاويهـا تاريخيًا ، دائرة بعد الأخري .

تهاوت دائرة الدعوة بالجهاد .

وتهاوت دائرة الدولة الإسلامية .

وتهاوت دائرة التشريع .

وبقي قلب البناء : الدائرة الثقافية الذاتية .

تلك الدائرة التي توشك أن تنهار .

ولكنها توشك بعد ذلك أن تعود « **بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء**»[1]

ولقد أنبأنا الرسول ﷺ بمراحل المعركة ، من قبل . إذ قال ﷺ : «**توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟**

قال : بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قيل: وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[2]

وحب الدنيا وكراهية الموت ، هو من الأمراض التي أصيبت بها الذاتية الإسلامية المبنية أصلاً على الأخروية .

وفضلاً عما في الحديث من معان وعظات فإن فيه من النبوءة ما يدل على نبوته ﷺ وصدقه في التلقي من عالم الغيب . .

إذ من كان في تصوره يوم ذاك أن ينظر إلى جماعة المسلمين باعتبارها هدفًا من أهداف (الأمم. . .)؟ تحرص الأمم على إبادته ، بعد أن كانت تمتلئ خوفًا من مهابته ؟

وهنا ونحن نتحدث عن « الأكلة » لا يملك الباحث إلا أن يسجل دور إسرائيل بينها .

حيث تظهر إسرائيل ـ بوضوح ـ بين هذه الأكلة وما هي إلا اللعاب الذي يسيل من فم الغرب المتلمظ شوقًا إلى بقايا القصعة . . .

وقد أشار الله تعالي إلى هذا اللعاب في قوله تعالي :

﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ [المائدة: ٦٠].

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) اخرجه أبو داود .

أزيحوا هذه الأكلة أولاً .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من مراكزها العسكرية والاستراتيجية فأزيحوها من اقتصادكم .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من اقتصادكم فأزيحوها من تعليمكم .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من تعليمكم فأزيحوها من إعلامكم .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من إعلامكم فأزيحوها من عقولكم .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من عقولكم فأزيحوها من قلوبكم .

وذلك أضعف الإيمان .

أما أن تحل الأكلة في ذلك كله وبرضا منا وحب وابتهال في ذلك كله فنحن - إذن - دعاة الأكلة إلى القصعة .

فهل نرضي أن نكون نحن دعاة « الاستعمار» ودعاة « الصهيونية» لأننا - في الجوهر - دعاة أن تظل لهذه « الحضارة المسيحية اليهودية الإلحادية» مكانة القبلة الحضارية في حياتنا . ؟!!

وتاريخنا الإسلامي حافل بأمثلة التداعي إلى القصعة ، كما أن حاضرنا صارخ بمعاركها ، ولكننا نحن الذين بأيدينا نجري لأنفسنا غسيل المخ ، بحيث لا نتذكر التاريخ ، ولا نري الحاضر .

يكفي أن نذكر ما حدث في الحروب الصليبية .

● **دماء مسفوحة في قدس الذاتية :**

يقول المؤرخ الأوربي « ميشو » في كتابه تاريخ الحروب الصليبية : إن الصليبيين لما جاءوا إلى المعرة بالشام قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين ، اللاجئين إلى الجوامع، المختبئين في السراديب، وأهلكوا صبرًا ما يزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات .

قال «ميشو» : تعصّب الصليبيون في القدس أنواع التعصب الأعمي الذي لم يسبق له نظير حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم فكانوا يُكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت، ويجعلونهم طعامًا للنار، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ويجرونهم في الساحات ويقتلونهم فوق جثث الآدميين . ودام الذبح في المسلمين أسبوعًا حتى قتلوا منهم ما اتفق على روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة، ولم ينج اليهود ـ كالعرب ـ من الذبح فوضع الصليبيون النار في المذبح الذي لجئوا إليه وأهلكوهم كلهم بالنار) [١]

فما هي الصورة المقابلة لهذه الهمجية ؟

ما الذي كانت تمليه الذاتية الإسلامية على صلاح الدين عندما استرجع القدس.

(كان في القدس لما استرجعها صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ من الصليبيين مائة ألف ، منهم ستون ألف راجل وفارس ، سوي من تبعهم من النساء والأطفال .

فأبقي صلاح الدين على حياتهم ، واستوصي بهم خيرًا واكتفي بأن ضرب على كل رجل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة، وعلى كل طفل دينارين[٢] ورخص للبطريرك الأكبر أن يسير آمنًا بأموال البيع ، وذخائر الجوامع التي كان غنمها الصليبيون في فتوحهم !!) .

تلك في ميزان الذاتية أمة الكذب والنفاق ، وهذه أمة الصدق والهداية.

وماذا حدث للموريسكيين[٣] من سحق للذاتية الثقافية فضلاً عما تم فيهم من سحق عسكري وسياسي واجتماعي :

١ - (يحظر على الموريسكيين استخدام الملابس العربية التقليدية[٤] ، ويرغمون على ارتداء الملابس على النمط الأسباني ، ويمنع أي خياط يخيط

(١) انظر « الإسلام والحضارة العربية » لمحمد كرد علي ، جـ ١ ، ص ٢٩٦ .
(٢) يتحدثون عن الجزية فليتهم في الغرب قبلوا منا الجزية بدلاً من الإبادة .
(٣) هم المسلمون الذين تنصروا في عملية تصفية الإسلام في الأندلس !! .
(٤) تذكر معركة الحجاب في فرنسا وغيرها .

الملابس المحظورة ، فإن فـعل عوقب بأشد العـقاب ، كمـا يمنع الموريسكيون من ارتداء الملابس الحريرية والملابس الفاخرة) .

هكذا جاء في المرسوم الذي أصدرته الملكة «جوليانا» (١٤٧٩ ـ ١٥٥٥م) .

وأمـهلهم المرسوم ست سنوات ، وبعـدئذ مـدت المهلة إلى عشـر سنوات ، وفرض مرسـوم آخر أن تلبس كل طبقة اجـتماعية مـلابس متميزة خـاصة بها ثم أعطيت النساء مهلة سنتين حتى يتخلصن من استخدام الملحفة وغطاء الوجه[1] .

٢ - مرسوم خاص بالذبائح :

يمنع الموريسكيون من ذبح الحيوانات على الطريقـة الإسلامية ، ويفرض أن يذبحها جزار مسيحي من أصل أسباني قديم ، ويجب أن تحمل إلى المسلخ .

يستثني من ذلك صـيد الجمال والدواجن ، فكان يجوز ذبحهـا في البيوت حتى ألغي ذلك الاستثناء بقرار في التاسع والعشرين من شهر تموز عام ١٥١٣ م .

٣ - مرسوم خاص بالزواج :

يلزم الموريسكيـون بالزواج على الطريقة المسـيحـية . كمـا يجب على كل منصر، أن يتزوج نصـرانية أصلاً، ويفرض على كل موريسكيـة منصرة أن تتزوج من نصراني أصلاً ويرغم الموريسكيون في كل حالة أن يكون الإشبين من المسيحيين القدمـاء، ولا يجوز أن يكون من الموريسكيين ولا من اليـهود الذين تم تعمـيدهم حديثًا .

٤ - مرسوم خاص بالزيارات :

يرغم الموريسكيون المقيمون خارج غـرناطة الذين نصروا قسرًا ، على عدم زيارة الموريسكيين المقيمين في مملكة غـرناطة ، خشية أن يتآمروا معـهم ، فيشعلوا الثورات بتقويتهم ، وتأثرهم ، وتحالفهم مـعًا ، ويهدد من لا يتقيد بذلك بأقصي

(١) انظر «النسب الشريف » الذي تنتسب إليه حركة مهاجمة الزي الإسلامي أو الحجاب في عصرنا الحاضر .

العقوبات من مصادرة الممتلكات والموت حرقًا ، ويسمح لموريسكيي مملكة غرناطة الذين كانوا خارجها حين صدور هذا القرار ، بالعودة إلى بيوتهم في غرناطة .

٥ - مرسوم خاص ببيع العقارات غير المنقولة :

لا يجوز لأي موريسكي بيع ممتلكاته لأي موريسكي آخر ، إلا بعد أن تمنحه السلطات إذنًا ، علمًا بأنها لم تكن تمنح هذا الإذن ، إلا بعد تأكدها من إخلاص المشتري الجديد للكاثوليكية ، وخلال الاستئذان ، يجب على الموريسكي ذكر السبب الذي يجعل بيع الممتلكات بالنسبة إليه ضرورة ، ومن خالف ذلك فباع بدون إذن السلطان عوقب بالعقوبات السابقة الذكر ، ثم منع الموريسكيون من بيع ممتلكاتهم البتة سواء كان ذلك البيع لموريسكي أو نصراني ، خشية أن يأخذوا قيمة ممتلكاتهم ، فيفروا بها إلى شمال أفريقيا ، ويشتركوا بعد ذلك بالأعمال التي كانت مصدر إزعاج لأسبانيا ، كما فعل الكثيرون من قبل ، ومن خالف هذه القرارات يعاقب بأشد العقوبات .

٦ - مرسوم خاص بمنع الكتب العربية :

يجب على كل موريسكي ـ تم تنصيره قسرًا ـ أن يسلم كل ما في حوزته من كتب باللغة العربية ، سواء أكان مقيمًا في غرناطة ، أم في القري والأماكن التابعة لها ويتم تسليم الكتب والمخطوطات كافة ، إلى السلطات المسئولة في مدة لا تتجاوز خمسين يومًا من تاريخ صدور هذا القرار ، وبعد تسليمها ، يفحصها مختصون لمعرفة فحواها ثم يحرق منها كل ما كان له أدني تعلق بالدين الإسلامي، سواء في الفقه أو في العقيدة على رءوس الأشهاد ، وبعدئذ ترد الكتب المتعلقة بالفلسفة والطب والعلوم الأخري ـ بعد ترخيصها ـ إلى أصحابها ، ومن ثبت أنه يقتني أي كتاب أو مخطوطة بعد العشرين من شهر حزيران عام ١٥١١م تصادر كل ممتلكاته ، علمًا بأن السلطات لم تكن تعيد أي كتب أو مخطوطات : ذلك أن حملة محاكم التفتيش ، لم تكن تقتصر على الدين الإسلامي ، بل تعدته إلى اللغة

العربيــة ، كما تبين في المراسيم التي صــدرت في عهد الملك فــيليب الثاني ، وفي المراسيم التي صدرت سابقًا ، في عــهد الملكين الكاثوليكيين ، كذلك كانت الحملة على كل ما يرتبط بالعرب من عادات وتقاليد وأعراف اجتماعية .

٧ - مرسوم خاص بمنع الأسلحة :

يسمح لنصــاري مالقة بأن يحــملوا السلاح دفاعًــا عن أنفسهم ، وحــماية لمــتلكاتهم من اعتــداءات الموريسكيين ، وصــونًا للمــدينة من تلك الاعتــداءات المتكررة ، بينما يمنع الموريسكيــون من حمل أية أسلحة ، أو استخــدامها إلا بإذن من السلطات العليا المسئولة ، أما إذا حمل أي موريسكي السلاح بدون ذلك الإذن المشار إليه سابقًا ، فيــقصي عن البلاد إلى الأبد ، وتصادر ممتلكاته ، فإن ثبت أنه قد اقترف تلك الجريمة مرة سابقة ، ففي المرة الثانية يحكم عليه بالموت ، إذا ضبط متلبسًا بتلك الجريمة .

٨ - مرسوم خاص بالإرث :

يمنع المنصّــرون قسرا من الموريسكــيين من تقسيم ممــتلكاتهم المنقولة وغــير المنقولة وتركاتهم على الطريقة الإسلامية ، ويرغمــون على تقسيمها طبقًا للأعراف المستعملة لدى الأسبان ، ومن خالف ذلك ، عرض نفسه للعقوبات الصارمة .

٩ - مرسوم خاص بالتعاون مع مسلمي شمال أفريقيا :

كل موريسكي يتبين أنه حمي ، أو آزر ، أو تــعامل مع المسلمين المهاجمين لشواطئ مملكة غرناطة الذين يحدثون أضــرارًا ، من قتل ونهب وسرعة وإزعاج ، لا تقل عقوبته عن الموت المؤكد .

١٠ - مرسوم خاص بالهاربين من مملكة غرناطة :

كل موريسكــي يهرب من مملكة غرناطــة ، يحرم من ممتلكاته منهــا ، فإن عاد إليها ، قبض عليه ، وبيع بيع العبيد بالمزايدة .

١١-مرسوم خاص بممارسة الشعائر الإسلامية والملتحقين بالثوار :

إذا تبين أن موريسكيًا منصرًا مارس بعض الشعائر الإسلامية ، فيجب على السلطات والنبلاء أن تصدر بحقه أشد العقوبات التي تصل إلى مصادرة الممتلكات، وكذلك إذا التحق بالثوار المعتصمين في رءوس الجبال .

على هذا النحو مضت السياسة الأسبانية في غيها ونقمتها واضطهادها للمسلمين بمختلف الوسائل إلى أن تم تنصير أعداد كبيرة منهم قسرًا تحت رهبة الأحكام الشنيعة التي كانت تقوم بها محاكم التفتيش وينفذها رجالات الإكليروس، فكان الموريسكي يضطر إلى اعتناق النصرانية ولو ظاهرًا هربًا من الثبور والويلات التي كانت تصب جامها على رأس كل متمسك بدينه أو عروبته .

ازدادت سرية الممارسة للشعائر الإسلامية ، فغدا الموريسكيون يحذرون أشد الحذر حتى من أبنائهم لأن أولئك الأبناء كانوا يربون في ظلال الكنائس والأديرة على الدين المسيحي ، خاصة المذهب الكاثوليكي ثم يردون إلى أسرهم ، عيونًا تشي لمصلحة محاكم التفتيش للقضاء عليهم ، وقد كانت محاكم التفتيش أو بالأحرى محارقها تلتهم الكثير من الموريسكين الأبرياء ، لأقل الشبه والوشايات ، ونعلم أن لكل فعل رد فعل أدي ذلك إلى ازدياد سريتهم في التنظيم بعد أن كان الأمر لا يستدعي كل هذا الحذر وكل تلك السرية[1] .

ذلكم كان في بلاد المغرب ، في الأندلس من قرون مضت .

ولكن حبل الغزو الفكري العسكري متصل وللقارئ أن ينظر معنا ـ فيما يأتي كيف يرتبط الغزو الثقافي الفكري التبشيري ، بالغزو العسكري . . . في بلاد المشرق فأيهما ينكر المنكرون ؟

---

(١) نقلاً من بحث للدكتور محمد عبده حتاملة بمجلة (دراسات) التي تصدر عن الجامعة الأردنية عدد كانون الأول ١٩٨١م ، والبحث موثق بالمراجع والوثائق الأجنبية على وجه الدقة .

ها هو القـائد البرتغـالي ـ قبل أن يضع قـدمه على أرض الخليج العـربي في القرن السادس عشر الميلادي ـ يرسل إلى إمام عمان الرسالة التمهيدية التالية :

(من ربان برتغالي إلى الإمام سيف بن سلطان الأول اليعربي . . . الحمد لله خلق الأرض والسمـاوات ، أنتم يا من تحكمون على رعاياكم في خـلافاتهم . . تعلمـون أننا نحن جـيش الله ، وقـد خلقنا لنكون أداة لعـقـابه الإلهي ، ووهبنا السـيطرة على الذين يحل بهم سـخطه . . . إننا لا نرحم من يشكو ، أو نشـفق على من يبكي . . فقد نزع الله الرحمة من قلوبنا حقًا ،والويل كل الويل لأولئك الذين لا يمثلون لأوامرنا لقد دمرنا مدنًا وقضينا على أهلها وأفسدنا الأرض . . .)
إلى أن يقول :

(إن قلوبنا قـدت من حجارة ، وأعـدادنا كحبـات الرمل ، ونحن نعتـبر أن أعدادكم الوفيرة قليلة وقـوتكم خسيسة . . . إننا نحكم الدنيا بالتأكـيد من مشرق الشمس إلى مغربها . . .)[1] .

وصـحيح أن الإمـام سيف بن سلطان الأول رد عـليه بما ينبـغي . . . ولكن هكذا ـ بداهة ـ يبدأ الغزو العسكري . .

وهكذا مع الغزو الفكري ، والعسكري بدأت إرسـاليات التنصير تنزل بالخليج العربي وتعمل عملها بالمنطقة .

وبدأ اهتمام الدول الاستعمارية بالمنطقة ابتداء من البرتغال (١٥٢٢ ـ ١٦٤٠م) إلى فرنسـا ، وهولندا ، ثم بريطانيا التي كـانت أطولهم احتلالاً للـخليج العربي (١٧٩٨م ـ ١٩٧١م) .

وكان اهتمام الدول الاستعمارية بالمنطقة في ذلك الوقت وما يزال مرتبطًا أشد الارتباط بالنشاط التنصيري ، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك القرار الذي أصدره

---

(١) الخليج العربي أمام التحدي العقدي لسعيد عـبد الله حارب نشر مكتبة الأمة في دبي طبعة أولى سنة ١٩٨٥م ، ص ٤٣ ـ ٤٦ ، وانظر ما نقل عنه : تاريخ عمان لوندل فيلبس ترجمة محمد أمين عبد الله ص ٦٧ .

«لويس الرابع» عشر عام ١٦٧٩م بتعيين كبير دير الكراملة بالبصرة قنصلاً فرنسيًا بها وما تلا ذلك من تتابع أحد عشر قسيسًا في القيام بواجبات القنصل في البصرة بين عامي (١٦٧٩م - ١٧٣٩م)(١) .

وعندما تأسست « الإرساليات العربية الأمريكية عام ١٨٨٩م أكد القس «صمويل زويمر» و « جيمس كانتين» كما يقولان (أن للمسيح الحق في استرجاع الجزيرة العربية) !!!

وادعيا أن الدلائل التي تجمعت لديهما تؤكد أن المسيحية كانت منتشرة في هذه البلاد في بداية عهدها ، لهذا كما يقولان (فإن من واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية) هكذا (!!!)

وعندما وصل «زويمر» إلى البحرين حوالي عام ١٣١٠هـ (بدأ يتصل بالناس في الأسواق ويناقش الشباب منهم في أمور الدين ، وكان يحادثهم باللغة العربية فقد كان يجيدها ، وبدأ يتحسس فيهم ميولهم وآمالهم . . . ويقول لهم : إنه جاء إليهم في بلادهم ضيفًا عليهم ، وإذا لم يقبلوه فهو ضيف الله . . . وكانوا يقولون له : أنت ضيف إبليس وبقي هذا اللقب عالقًا به طوال تردده على البحرين بعد ذلك)(٢) .

وعندما ضاقت عليه أرض البحرين ورفض الحاكم أن يثق بتعهداته استعان في عام ١٨٩٩م بالمقيم السياسي البريطاني الكولونيل «ميد» في إلزام الحاكم بإجابة طلباته لكنه لم ينجح، ولكنه أعاد الكرة (عام ١٩٠١م) فنجح هذه المرة في أن يشتري ويضم أو يتسول قطعًا من الأرض يضمها إلى مشروعه وما أن حل عام ١٩٠٦م حتى كانت جميع المباني الملحقة قد اكتملت مكونة المركز العام للإرسالية في البحرين(٣)وكانت هذه هي المحطة الثانية للتبشير في المنطقة بعد محطة البصرة».

(١) المصدر السابق ص ٤٧ نقلاً عن دليل الخليج لوريمر ج ٦ ، ص ٣٤٢ .
(٢) المصدر السابق نقلاً عن المؤرخ البحريني مبارك الخاطر في كتابه (القاضي الرئيسي الشيخ قاسم بن مهزع) .
(٣) المصدر السابق ٥٩ - ٦١ .

ثم اتجه «زويمر» بعد ذلك إلى مسقط ، وكتب «زويمر» عنها يقول : (منذ بعض الوقت ومسقط تقدم فرصة مفتوحة لنشر الإنجيل . . . والعرب مستعدون للقدوم إلى منزلي لمناقشة الأمور الدينية إذا دعوتهم . . . والكتب المقدسة تباع في معظم الأماكن ، وتقرأ في السوق أو في المقهي .) وعلى العموم لم يواجه هذا الغزو أية مشاكل تذكر في مسقط في تلك الأيام بسبب وجود الحماية البريطانية ووجود قنصل أمريكي استخدم حمايته لمتابعة هذا الغزو .

وهكذا اتجهت محاولات الغزو من البصرة إلى البحرين إلى مسقط ، إلى الساحل الشمالي ، إلى قطر ، إلى الكويت ، على تفاوت في درجات الفشل والنجاح في هذه المناطق ، ولكنها في جميع الأحوال كانت شديدة الارتباط بالسلطات الاستعمارية، وكان إخفاقها أو نجاحها مرتبطًا بمدي ظهور أو اختفاء هذه الرابطة الاستعمارية ، ذلك لأنه كما يقول الأستاذ «سعيد حارب» : كان هذا الارتباط الظاهر يؤدي إلى ابتعاد سكان الخليج العربي عن نشاط هذه الإرساليات بعد الاستقلال وانتشار الروح الوطنية المستقلة عن أية تبعية ، وكان بقاء الإرسالية في عملها يعني بقاء صورة من الماضي الاستعماري ، فرأت العقلية التنصيرية (الغازية) أن تطوي هذه الصفحة لتبدأ بعدها صفحات أخري تكون ذات ملامح وأساليب جديدة تتفق مع المتغيرات التي حدثت بالمنطقة) .

ثم يقول «سعيد حارب» : (إن واقع التنصير في منطقة الخليج العربي يهدد المنطقة بأسرها فخطورة هذا النشاط لا تتوقف عند الخليج بل تتجاوز إلى بقية أجزاء الجزيرة العربية التي هي الهدف الرئيسي للتنصير)[1] .

ثم يقول الأستاذ «سعيد حارب» بعد أن يشير إلى النشاط التبشيري العام الموجه إلى المسلمين في جميع بلاد آسيا وأفريقيا : (إن الهدف الرئيسي لم يكن غائبًا لحظة عن دعاة التنصير . فمكة المكرمة هي الهدف (كذا !!!) والجزيرة

(١) المصدر السابق من ص ٧٠ إلى ص ٧٥ .

العربية هي الطريق إلى ذلك ، والخليج هو البداية التي يلج فـيها التنصير إلى مكة المكرمة، كما يصفه . . . زويمر .)[1].

* * *

لقد جاء في تقـرير اللجنة الثالثة من لجان مـؤتمر أدنبرج التبشيـري الذي عقد عام ١٩١٠م :

(اتفقت آراء سـفراء الدول الكبـري في عاصـمة السلطنة العـثمانـية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجع إلى تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوربا كلها)[2] .

ولما انتهت اللجنة الـسابقة من لجان المؤتمر المذكـور من أعمالهـا قال « اللورد بلفور» رئيس الشـرف : (إن المبشرين هم سـاعد لكل الحكومات في أمـور هامة ولولاهم لتعذر علـيها أن تقاوم كثـيرًا من العقبات ، وعلى هـذا فنحن في حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين فأجيب اللورد إلى اقتراحه) [3] .

ويقول «شنكال» رئيس غرفة التجارة في همبرج تعليقًا على أهمية هذا المؤتمر: (إن نمو ثروة الاسـتـعـمـار مـتـوقف على أهمـيـة الرجـال الذين يذهبـون إلى المستعـمرات، وأهم وسيلة للحـصول على هذه الأمنية إدخال الدين المسـيحي في البلاد المستعمرة لأنه هو الشرط الجـوهري للحصول على الأمنية المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية)[4] .

---

(١) المصدر السابق ص ٧٤ .

(٢) كتاب الغارة على العالم الإسلامى تأليف أ.د شاتليه ترجمة مساعد إليافي ومحب الدين الخطيب ، القاهرة ، المطبعة السلفية / عام ١٣٥٠ هـ ، ص ٧٢ .

(٣) الغارة على العالم الإسلامى ـ السابق ـ ص ٧٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٨٠ .

لقد جاء في قرار المؤتمر المذكور (إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، والمؤتمر يشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية، وأن ينتفعوا من أعمال إرساليات التبشير التي تبث مبادئ المدنية)[1] .

أما في مؤتمر «لكنو» التبشيري الذي عقد عام ١٩١١ فقد جاء في ختام تقرير للقس «سيمون» عن حركة الجامعة الإسلامية في ماليزيا :

(إن العامل الذي جمع هذه الشعوب وربطها برابطة الجامعة الإسلامية هو الحقد الذي يضمره سكان البلاد للفاتحين الأوربيين (!!) ولكن المحبة التي تبثها إرساليات التبشير النصرانية ستضعف هذه الرابطة وتوجد روابط جديدة تحت ظل الفاتح الأجنبي)[2].

وجاء في ختام تقرير القس «ينغ» في مؤتمر «لكنو» المذكور عن الانقلابات السياسية في جزيرة العرب :

(إنه قد أزف الوقت لارتقاء العالم الإسلامي وسيدخل الإسلام في شكل جديد من الحياة والعقيدة ، ولكن هذا الإسلام الجديد سينزوي في النهاية ويتلاشي أمام النصرانية)[3].

ومن الغريب حقًا ـ كما يقول الدكتور «سعيد إسماعيل علي» ـ أن تمتد يد المبشرين حتى إلى داخل الجامع الأزهر ، نعرف ذلك من رسالة أرسلها طالب طرابلسي كان يدرس في الأزهر ـ في وقت غير بعيد جدًا ـ إلى مجلة الفتح العدد ٦٤ حيث ذكر أنه بينما كان جالسًا بالأزهر يراجع دروسه إذا بطائفة من المبشرين يدخلون الأزهر ، وما كادوا يصلون الصحن حتى تفرقوا في أنحائه ، وذهب كل واحد منهم إلى ناحية كعادة موزعي الإعلانات ، فعلم أن في الأمر شيئًا ، وقام

(١) المصدر السابق ص ٨٢

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٢ .

من مجلسه لعله يعرف السبب الذي دعاهم إلى الانتشار على خلاف المعتاد ، وما هو إلا أن لقيه بعضهم فدفع إليه بكتاب من الكتب ، عنوانه « النجدين» يدور حول الكيفية التي يصير بها المسيحي مسلمًا والتي يعتنق بها المسلم المسيحية ، والهدف الأخير كان هو المقصود بالطبع ، فذهب الدارس إلى بعض أولي الأمر في الأزهر ، محتجًا على ترك هؤلاء يدخلون المسجد .

كذلك كشف أحد دارسي الأزهر أن الجامعة الأمريكية وزعت مرة بجوار الأزهر منشورات تدعو فيها طلاب العلم للاعتناء بمحاضرتها ، فلبي عدد من الأزهريين (حسني النية) دعوتها ، وملئوا قاعة المحاضرات حتى ازدحمت بهم وكأن الدعوة لم تصل إلا للأزهري فيما يقول صاحب الرواية ، بالإضافة إلى عدد قليل من غيرهم وكانت المحاضرة باللغة الإنجليزية التي لا يعرفها الأزهريون (!) ومن هنا كانت الجامعة تستعين بمترجم ينقل معناها إلى المستمعين ، يقول صاحب الرواية : إنهم فوجئوا بالمحاضر يبشر ويوجه إلى الإسلام تهما خبيثة ، حتى تبرموا واعتذر المترجم بأنه ناقل فحسب .

وكما يقول الدكتور «سعيد إسماعيل علي» الذي ننقل عنه ما سلف (كان نشاط المبشرين يتعاظم وبدأت الشكاوي وصيحات الاحتجاج ترتفع من كل مكان فكان لا بد للأزهر من أن يتخذ موقفًا حازمًا ، فاجتمعت لأجل ذلك هيئة كبار العلماء برئاسة شيخه في ١٩٣٦/٦/٢٦م ، وعرض في الاجتماع ما استفاضت به الأخبار من قيام المبشرين بتنصير أبناء المسلمين في مختلف الجهات بما يتخذون من وسائل الحيل والفنون والإغراء تارة وضروب العنف والإرهاب أخري . وبعد البحث والمداولة قررت الهيئة ـ انظر مجلة نور الإسلام ربيع أول ١٣٥٢ هـ ـ مطالبة الحكومة بأن تسن تشريعًا حازمًا يجتث بذور هذا الفساد ، ويستأصل شأفة هذا المرض الوبيل القتال ، كي يطمئن المسلمون على دينهم وكي يكون أولادهم وإخوانهم وأقاربهم في مأمن)(١)

(١) انظر كتاب دور الأزهر في السياسة المصرية ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

ولا جدال في أن دور الغزو الفكري قد فاحت رائحته الكريهة في هذه المؤتمرات وذلك النشاط كما لا شك أن ذلك يتم بالمخدر الأقوي: استبعاد الدين .

واستبعاد الدين هنا مقصود به « الدين الإسلامي » بخاصة ، وإذن ، فالعلمانية موظفة لدور تآمري ملوث .

يقول القس«إكسنفلد » في مناقشة له بمؤتمر أندنبرج التبشيري الذي أشرنا إليه سابقًا وذلك بعد أن أشار إلى (أن الخطر الإسلامي صار أمره معروفًا عند الجميع . . .) قال : إن الحكومة لا بد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين في المدارس العلمانية ما دام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية . . .)[1] .

وهنا يكون من الواضح أن العلمانية وإن كانت تستبعد الدين إلا أنها تجد في الدين المضاد حليفًا طبيعيًا يشاركها في العمل على تحطيم الدين الأصلي السائد .

إن العاملين في مجال تحطيم المسلمين والإسلام هنا هم ثالوث متداخل الأركان : الاستعمار والتبشير والعلمانية . ثم انظر بعدُ تحت، أي حذاء من أحذية هذا الثالوث تجد من يسمون أنفسهم دعاة الإسلام الجديد » !!!

● **أما في الخلافة العثمانية :**

فنحن نعرف ما حدث للخلافة العثمانية التي تآمر الغرب على إسقاطها في بداية هذا القرن بعد أن ظلت أكثر من أربعة قرون القلعة الشامخة للإسلام والمسلمين تحميهم وتذود عنهم كلاب أوربا المسعورة ، وتبث الرعب في رجالها البغاة وتصل إلى مخادعهم لتملأها بكوابيس الذل والهوان .

صحيح أن هذه الإمبراطورية كانت قد شاخت وسرت في جسمها أمراض الحضارات الكبيرة، وأنها كانت في حاجة إلى دم جديد ، أو إلى مركز إشعاع إسلامي جديد .

---

(١) كتاب الغارة على العالم الإسلامي ص ٨٢ .

لكن غير الصحيح هو ما تولى كبره الغرب من التآمر على توزيع ميراث هذا «الرجل المريض» ودفن دولة الإسلام الكبري إلى الأبد ، باسم العلمانية ، وبأيدي العلمانيين من زعماء تركيا .

والسؤال الآن : ما الذي حدث للدولة الإسلامية على يد العلمانية في تركيا ؟

وهنا فإني أترك القارئ يستمع إلى رواية الأستاذ «فهمي هويدي» الذي سعى إلى إستامبول ولقى رجالها المخضرمين الذين عايشوا التجربة العلمانية الكمالية .

يقول الأستاذ فهمي هويدي : إنه عندما سألهم عن حقيقة ما جري تحفظوا جميعًا على الفور وقالوا : القانون التركي يسمح بالتعرض بالنقد والتقييم والتجريح للذات العلية والرسل والكتب السماوية ، ولأي مقدس باستثناء رمز واحد هو : شخص كمال أتاتورك .

ليس هذا فقط ، بل إن ذكر الإسلام أو الشريعة يعد من المحظورات التي يعاقب عليها القانون بالسجن ١٢ عامًا ، والمشتغلون بالعمل الإسلامي يتحايلون على ذلك النص القانوني ، فلا يذكرون أمثال تلك الكلمات «ولكنهم يشيرون إلى الإسلام والشريعة ، أحيانًا بكلمة «الحق» ، «أو وجدان الأمة» (مللي شعور) وفي هذا الصدد يذكر أن «نجم الدين أربكان» ، رئيس حزب الرفاة ـ وهو حزب إسلامي لم يجرؤ على ذكر صلته بالإسلام ـ سئل أثناء محاكمته عما إذا كان يعني الإسلام أو الشريعة ، بكلمة الحق التي يرددها أحيانًا ، فكان رده أنه لم يقل بأنه يقصد المعني الذي أشارت إليه المحكمة ، وأنه يحاسب على نص كلماته لا على تفسير المحكمة له .

وعندما ألححت في الأسئلة ـ الكلام للأستاذ «فهمي هويدي» ـ اشترطوا عليه قبل أي حديث ألا يشار إلى أسمائهم ونصحوني في الوقت ذاته بالرجوع إلى كتابين ـ إن أردت التعرف على الوجه الآخر للصورة هما : الرجل الصنم (أتاتورك) وهو من تأليف ضابط تركي مات منذ سنتين (١٩٨٤م) حجب اسمه ،

ووضع صفته فقط على غلاف الكتاب ، خشية التعرض للعقاب أو الملاحقة من جانب الكماليين ، والكتاب يتداول سرًا في تركيا ، وقد ترجم إلى العربية في السبعينات، وطبع في بيروت والكويت ، أما الكتاب الثاني فعنوانه هو : «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» (يقصد الكماليين) من تأليف شيخ الإسلام في عهد السلطان عبد الحميد ، الشيخ «مصطفى صبري» ، وقد طبع خلال الخمسينات في القاهرة، وصدرت له نسخة محققة في العام الماضي (١٩٨٥م) قدمها الدكتور «مصطفى حلمي» من جامعة الإسكندرية .

تشير مجمل تلك المصادر إلى أن «مصطفى كمال» ـ الذي أعطى لاحقًا لقب «أتاتورك» أو أبو الأتراك ـ قدم نفسه في البداية باعتباره منقذًا للخلافة وللأمة الإسلامية ، وفي بيان أصدره بمناسبة افتتاح مجلس الأمة التركي سنة ١٩٢٠م قال: « إن افتتاح المجلس في يوم الجمعة هو من أجل الاستفادة من بركة هذا اليوم .. وباشتراك جميع النواب في صلاة الجمعة بجامع «حاجي بيرام» سيؤخذ الفيض من نور القرآن والصلوات على الرسول ... سيبدأ من الآن في جميع أرجاء الوطن المقدس والجريح بقراءة القرآن والبخاري الشريف ، وستتلي الصلوات من فوق المنابر في يوم الجمعة بعد الأذان وعندما تتلي الأسماء السلطانية لمولانا وسلطاننا وخليفتنا ، فستتلي الأدعية من أجل خلاص حضرته السامية ، ومن أجل خلاص بلده وخلاص رعيته وتحقيق السعادة لهم في أقرب وقت» .

ولكنه بعد عامين فقط من هذا الكلام (في سنة ١٩٢٢م) أعلن أن تجربته أثبتت إمكانية فصل السلطنة عن الخلافة ، وأن مجلس الأمة التركي يستطيع أن يمثل الحاكمية والسلطنة ، وبذلك تعود السلطنة إلى الأمة .

على الفور شكلت لجنة لبحث الأمر ، وأعدت مشروع قانون الفصل بين الخلافة والحكومة، وعندما طرح المشروع للتصويت اعترض «مصطفى كمال» على مبدأ التصويت قائلاً : إنه من الطبيعي أن يوافق مجلس الأمة بالإجماع على إعادة السلطة إلى الأمة ، والحفاظ على استقلال الأمة والوطن.

كانت هذه الخطوة هي التمهيد الطبيعي لإلغاء الخلافة بعد ذلك في شهر مارس من عام ١٩٢٤م ، بالقوانين الثلاثة الشهيرة ، التي حملت أرقام ٤٢٩ ـ ٤٣٠ ـ ٤٣١ ـ وينص أولها على إلغاء وزارتي الأوقاف والشرعية بينما ينص القانون الثالث على أن تلحق جميع المؤسسات العلمية والدينية بوزارة المعارف .

كان ذلك إيذانا بميلاد الدولة العلمانية الجديدة التي بدأت هويتها تلك تتردد على مختلف الألسنة وفي مختلف المحافل ، وفي مذكرات «علي كيليج» ـ أحد رجال «أتاتورك» ـ أن قضية العلمانية أثيرت في اجتماعات مجلس الأمة ، في حضور «مصطفى كمال» ، فقام أحد العلماء من أعضاء المجلس وقال: « إن الكل يتحدث عن العلمانية ، ولكني لا أستطيع فهم معناها على وجه التحديد «عندئذ قاطعه «مصطفى كمال» بحدة وقال: إنها ، تعني أن نكون آدميين يا شيخنا . . آدميون !

وبينما كانت الدعوة إلى العلمانية تشتد ، فإن الحملة على الشريعة كانت تمضي معها في خط مواز ، وكان «مصطفى كمال» هو الذي قاد تلك الحملة ، حيث بدأها بأن قال غامزًا : « إن الدين المتعلق بالضمير شيء والشريعة التي تريد أن يتجمد المجتمع وأمور الدنيا عند القرن السابع (الميلادي) شيء آخر « (لاحظ أن العبارة تتردد بنصها الآن في أوساط العلمانيين[1]) ، مما قال أيضًا : « إن التشريع والقضاء في أمة عصرية يجب أن يكونا مطابقين لأحوال الزمان، لا للمبادئ ولا للتقاليد « أما وزير العدل في حكومته، «محمود أسعد» ، فقد هاجم الشريعة ووصفها بأنها « قانون الصحراء»[2] ، وقال : « إن الشعب التركي جدير بأن يفكر بنفسه ، دون أن يتقيد بما يفكر فيه غيره من قبله ، لقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية تبدأ بكلمة «قال» المقدسة ، أما الآن فلا يهمنا أصلاً ماذا قالوا في الماضي؛

---

(١) لاحظ أيضاً أن الكلام ما يزال للأستاذ «فهمي هويدي» .

(٢) قارن هذا مع ما يقوله أحمد عبد المعطي حجازي عن الموازنة بين ثقافة الحضارة الزراعية « مصر » وثقافة الصحراء التي يحملها المتشددون في الإسلام . انظر الأهرام ١٨/ ٥/ ١٩٨٨م .

بل يهمنا أن نفكر نحن، وأن نقول نحن، وقد شاعت في أنقرة آنذاك عبارة تقول: لا نريد شرعًا فيه قال وقالوا ، لكنا نريد شرعًا فيه قلنا ونقول» .

هذه « الظاهرة » أفرزت القانون المدني الجديد ، الذي جاء ترجمة للقانون المدني السويسري .

وكان هو البديل الذي حل محل الشريعة الإسلامية ، وقد اعتبره أتاتورك تحقيقًا للانتصار النهائي للكفاح في سبيل المدنية في عصر تأسيس الجمهورية وقال : إن إقرار القانون المدني وتنقية الدستور لصالح العلمانية (بحذف المادة التي تنص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام) هو بمثابة لبس التاج في مراسم انتصار مبادئنا الثورية .

أراد الكماليون أن يتخلصوا من الشريعة فترجموا كل ما أمكن نقله من مواد القانون السويسري ، وقد واجهتهم بعض المشكلات الصغيرة في هذا الصدد ، إذ ـ تبينوا مثلاً ـ أن القانون السويسري يمنع الزواج بين الأخوة في الرضاعة ، استنادًا إلى اجتهادات الكنيسة الفرنسية ، شأنه في ذلك شأن الشريعة الإسلامية .

وقد عرضوا الأمر على أتاتورك الذي أغضبه هذا التماثل ، مما دفع ناقلي القانون إلى إلغاء الحظر ، والسماح للتركي بأن يتزوج أخته في الرضاعة ، إمعانًا في رفض كل ما جاءت به الشريعة !

ثمة ملاحظة طريفة في هذا الصدد أوردها أحد الكتاب الفرنسيين «موريس برنو» قال فيها : إن الكماليين عندما استبعدوا الشريعة وظنوا أنهم تخلصوا من عبء كلمات مثل : قال وقالوا ، فإنهم لم يفعلوا أكثر من استعارة القانون المدني السويسري لتطبيقه ، غير مدركين أنه نابع من مصدرين ، أحدهما روماني والآخر مسيحي ، أي أنهم استعانوا بقانون له مصادره الأقدم عهدًا من الفقه الإسلامي ، الذي زعم «مصطفى كمال» أنه ألغاه بسبب توغله في القدم وإذ يسجل الأمير «شكيب أرسلان» هذه النقطة فإنه يضيف أن أوربا التي يتطلع إليها هؤلاء ـ وأمثالهم ـ ليس

فيها قانون غير متأثر بالتعاليم المسيحية والتشريع الروماني ، وأنه ليس في الدنيا شرع أو قانون يخلو من قال وقالوا ، غاية ما هناك ، أنهم يستبدلون سلفًا بسلف .

لم يقف جهد أتاتورك وجماعته عند هذا الحد ، ولكن الأمر تجاوز تعطيل الشريعة إلى محاولة قطع كل الروابط التي تصل الأتراك بالإسلام ، فقد تحولت الخلافة إلى دائرة صغيرة تابعة إلى وزارة الداخلية للشئون الدينية - يانت إيشي - وأغلقت كل مدارس التعليم الديني ، وكل التكايا والزوايا والأضرحة ومقار الطرق الصوفية ، وألغيت أعياد الفطر والأضحي لعدة سنوات ، ومنع أداء فريضة الحج ، ومنع الأذان باللغة العربية ، حيث أصبح يؤذن بالتركية، واستمر هذا الوضع حتى سنة ١٩٥٠م ، أي بعد وفاة أتاتورك وطرحت فكرة ترجمة القرآن بالتركية لتكون الصلاة به ، ولكن لم يكتب لهذا الاقتراح أن ينفذ وألغيت الجمعة (أيضًا) واستبدل بها الأحد ، ومنع الحجاب فضلاً عن أن القانون المدني كان قد منع تعدد الزوجات ، وأباح زواج المسلمة بغير المسلم ، وصدر قانون يمنع ارتداء الطربوش ، الذي عد رمز الانتماء للدولة الإسلامية ، وتم استبداله بالقبعة ، التي كان الناس يعتبرونها لباس أهل الكفر لأن حافة القبعة تحول دون السجود في الصلاة ، وكانت الطامة الكبري ، أن قرر أتاتورك إلغاء الحرف العربي واستبدل به الحروف اللاتينية ، وتم ذلك تحت شعار إتاحة الفرصة للناشئة الأتراك لأن يستفيدوا من علوم الغرب ، ولتخليص الأتراك من إسار اللغة العربية ، ليكون انتماؤهم القومي صافيًا ، كما كتب «فالح رفقي» ، أحد رجال أتاتورك ، ولكن القرار كان يعني في حقيقة الأمر ليس فقط قطع الصلة بين الأتراك وبين لغة القرآن ومنابع الثقافة الإسلامية ، ولكن أيضًا إسقاط كل التراث الثقافي الإسلامي الذي نهل منه الأتراك معارفهم الدينية .

وكانت الذروة في سعي أتاتورك للالتحاق بالغرب والتعلق به ، أن طلب وهو على فراش المرض - قبل وفاته - من السفير البريطاني في أنقرة ، أن يخلفه في حكم تركيا !!

وهي المفاجـأة التي أعلنتها صحـيفة « الصنداي تايمز» قـبل سنوات (عدد ١٤ فبراير ٦٨) عندما نشرت القصة ، ونقلت تفاصيلها ووثائقها المثيرة عن ابن السفير البريطاني الأسبق ، السير «بيرسون ديكسون».

في الشق المتعلق بالديموقراطية والحريات ، فإن التساؤلات التي قد تثور بشأنه يرد عليها بلاغـة ذلك العنوان الذي اختاره أبرز مفكري الكماليـة « شوكت باشا» للموسوعة التي وضعها من ثلاثة أجزاء للتـعريف بعبقريته ومناقبه ، وكان العنوان هو « الرجل الأوحد » أمـا رئيس وزرائه وخليفتـه «عصمت إينونو» فقـد قال عن الرجل في إحدي المناسبات : « إن حبه عباده»!

ويذكر كتـاب « الرجل الصنم» أن بعض أعضاء مجلس الأمة اعـترضوا على قـانون منع الطربـوش ، ودعوا إلـى احتـرام رأي المجـلس ، فكان رده أنا الذي جمـعت هذا المجلس ، وأنا الذي صنعـته ، فإذا كنتـم تطالبون باحـترام المجلس فإنني علاوة علـى ذلك أحترم أثري وصنع يدي ! ، وعندما خطر لبـعض أعضاء المجلس أن يفكروا في إنشـاء « الحزب الجـمهـوري التقـدمي» وعرف أن احـترام المعتقـدات الدينية من بين مبادئه ، فإنه أصـدر قانونًا باسم « إقرار السكون» أغلق بمقتضاه الصحف ، وألقي القـبض على رؤساء التحرير ، ووضع كل العلماء تحت المراقبة ، وأغلق الزوايا والتكايا وعندما ثار بعض أعضاء المجلس على اغتيال أحد المعارضين « علي شكري» وطـالبوا التحـقيق في الجريمة فـإنه أمر بحل المجلس ، وأنشأ حزب « الشعب» برياسته معتبرًا نفسه نائبًا عن الشعب.

أما قصص إقامـة الأحزاب وتقويضها ، وصناعة الدمي السيـاسية من هياكل العبيد الجاهزة في كل عصر ، وتشكيل المحاكم ثم إلغائها وفصل قضاتها والازدراء بالجماهـير واحتقار شـأنها ، هذه القصص تملأ أكـثر من ٤٠٠ صفحـة في كتاب الرجل الصنم ، فضـلاً عن أن تفاصيلهـا المأساوية ما زالت مـحفورة في أعـماق الجيل المقهور الذي لحق بعصر « الانطلاقة العلمانية العظمى»[١] .

(١) نقلاً عن جريدة الأهرام للأستاذ فهمي هويدي ، جزاه الله خير الجزاء .

وهكذا سقطت تركيا معقل الخلافة العثمانية والدولة الإسلامية وانفرط عقد الشعوب الإسلامية المعقودة حباتها بها ، وتداعت الأكلة المنهومة الناقمة إلى القصعة الثرية .

وتداعت شعوب المسلمين ، التي كانت قد بدت عليها الشروخ من قبل وأعلنت الحماية الغربية الموتورة على شعوب المشرق والمغرب من شعوب الإسلام، وعقدت اتفاقيات الغرب في تقسيم ميراث الرجل المريض. وبالرغم من هذا السقوط المدوي لتركيا حيث تمزقت دولتها الإسلامية الكبري أشلاء فإن الدجالين من سماسرة الغرب ودعاة العلمانية يروجون لهذا السقوط ويلبسونه ثوب «النهوض» هكذا .

وردًا على هذه المزاعم يقول الأستاذ الدكتور «محمد البهي» :

(يلاحظ أن تركيا هي الدولة الإسلامية في الشرق التي أعلنت العلمانية الغربية كأساس لسياستها الجديدة ، منذ تولي أتاتورك السلطة فيها بعد الحرب العالمية الأولي ، والسياسيون في الغرب على الخصوص ومعهم المستشرقون في بحوثهم وكتاباتهم يشيدون بتقدم صناعي علمي فيها ، ويعودون بأسبابه إلى دخول تركيا مجال الغرب بدون الإسلام ، ففصلها بين الإسلام - كدين - والدولة، هو العامل في نظرهم الذي قربها من الدولة المتطورة .

إن تركيا في قبولها للعلمانية كانت مجبرة في تسوية الصلح الذي دار وراء الكواليس مع الحلفاء ، بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولي ، وقصد الحلفاء من إعلان تركيا العلمانية ، وفصل الإسلام عن الدولة وهي مركز الخلافة الإسلامية إلغاء الخلافة الإسلامية ، كأداة تجميع للمسلمين : عرب ، وعجم على السواء في آسيا وأفريقيا ، إذ سيترتب على إلغاء الخلافة إمكان تمزيق المسلمين إلى عرب ينطقون بالعربية ، وغير عرب ينطقون بلغاتهم الوطنية ، وعندئذ يمكن التبشير بالقومية العربية كذلك لتوسيع الهوة بين المسلمين ثم لكي لا تكون للقومية

العربية فاعلية بعد عزل العرب عن غيرهم من المسلمين ويلاحظ أن هذا وذاك ، كان مقدمة ضرورية لعزل فلسطين عن قلعتها تمهيدًا لالتهامها)[1] .

ونحن لا نتذكر ذلك لمحض المقابلة بين ذاتية وذاتية ، أو لمحض التأكيد على الذاتية الإسلامية ، وأننا اليوم في معركة الجهاد الثقافي للمحافظة على هذه الذاتية، بعد أن سقطت بالفعل القلاع المتقدمة . . .

ولكننا نذكر ما نذكر لنصل الماضي بالحاضر في المعركة الدائرة .

ماضي الحروب الصليبية ، والقضاء على المسلمين في الأندلس ، ثم القضاء على الدولة الإسلامية، بحاضر الإبادة البشرية التي تجري في فلسطين، والشيشان، والبوسنة والهرسك، وما يرتكب في كل ذلك من فظائع همجية وحشية ، لا تقاس عليها أعمال التتار والبربر والعصور الوسطى . . .

وخذ عينة صغيرة من فلسطين ...

(الصحفي الفلسطيني « باسم عيد» أعد بحثًا خاصًا لمركز حقوق الإنسان في إسرائيل « بيتسليم» نقل فيه اعترافات جندي مسرّح من الوحدات الخاصة اسمه «داني»، ومما جاء في هذه الاعترافات :

«في أحد الأيام أطلق صديقي الرصاص على شاب عربي حتى أخرج أمعاءه من بطنه ، وبعد أن سقط الشاب مضرجًا بدمائه تقدمنا نحوه ، وإذا به ينزف ويبصق علينا ، قلت له : اخرس ، وبدأت أضحك ، وكأن هناك أحدًا يدغدغني، ربطت جرحه ، وطلبت من أحد الجنود أن يضع له حجرًا داخل جرحه لوقف نزيف الدم ، وعندما أخبرت أمي بهذه الحادثة بدأت بالضحك. .)

(جندي آخر يدعى «دودو» يري أن المسئولية تقع على عاتق من وجهّه للقتل فيقول: « يعطونك الاندفاع لتكون مفترسًا، ويصل بك الحد لتصلح مفترسًا فعلاً بسبب العمل الذي تقوم به فتكون أنت إنسانًا غير ذلك، لكن العمل هو العمل . .

(١) انظر « العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق» ص٤٧ وما بعدها .

وما هي الوحدات الخاصة تلك ؟ هي وحدات شكلها الإسرائيليون في نهاية عام ١٩٨٨م، وأعلنوا عن وجودها رسميًا عام ١٩٩٠م وقد حدد الهدف الأساسي لهذه الوحدات باعتقال وتصفية الشبان الفلسطينيين المسلحين من خلال نصب الكمائن لهم ، والتنكر بالزي النسائي، أو زي السياح واللباس العربي، ويستخدم جنود هذه الوحدات سيارات تحمل لوحات الضفة الغربية زيادة في التضليل وحتى يتمكنوا من دخول القرى دون إثارة ريبة الشبان .

ويتسلى أفراد هذه الوحدات في أوقات الفراغ بشراء الدجاج للتصويب عليه ، وبعد التسريح يفكرون بالذهاب إلى البوسنة للقتال ضد المسلمين .(١)

ولنسمع إلى صحفي إسرائيلي ناقد لبعض التصرفات الإسرائيلية «أرييه شافيت» في مقال له بجريدة «ها آرتس» نقلته وكالات الأنباء العالمية ولم تمنعه الرقابة الإسرائيلية العسكرية لعلها تريد بذلك تأكيد الزعم بأنها دولة ديموقراطية.

يعلق «أرييه شافيت» على مجزرة «قانا» التي قتلت فيها القوات الإسرائيلية ما يزيد على مائة مدني في هجوم مقصود على مقر قوات الأمم المتحدة في لبنان في «قانا» : ويزعم أنها تهاجم قوات المقاومة اللبنانية وحزب الله ، فيقول :

(إن مجزرة «قانا» تعبير فاضح عن بذرة فاسدة مزروعة في الثقافة الإسرائيلية .. كيف قتلناهم بسهولة من دون أن يذرف دمعة واحدة ومن دون أن نشكل لجنة، ومن دون أن نملأ الشوارع تظاهرات .

لقد قتلناهم بفاعلية كبري وكنا واثقين من أننا نعمل استنادًا إلى حسابات باردة ومواقع عملية .

كانت ذريعتنا الكبيرة هي أن المسئولية لا تقع علينا وإنما على «حزب الله» لكنها ذريعة واهية ، ذلك لأننا عندما اتخذنا القرار بفتح النار بغزارة على المناطق

(١) جريدة الخليج بالإمارات ٦/ ٥/ ١٩٩٣م .

السكنية في جنوب لبنان - في وقت لم يكن هناك أي خطر حقيقي يهدد إسرائيل - فإننا قررنا بذلك في الواقع أن نسفك دماء عدد غير محدد من المدنيين الأبرياء .

وعندما اتخذنا القرار بإخـراج نصف مليون شخص من منازلهم وبقصف من بقي منهم ، في وقت لم يسـقط فيـه أي قتيل إسـرائيلي ، فإننا قـررنا بذلك في الحقيقة أن نقتل العشرات منهم . . .

إن ما جـعلنا نصل إلى مثل هذه القـرارات الدنيئة من دون أن نـعتبـر أنفسنا أوغادًا هو أنهم بالنسبة إلينا غير موجودين .

قتلناهم ببسـاطة لأنه لم يكن من الأهمية بمكان بالنسبـة لنا ألا نقتلهم ، لأن عدم قتلـهم ليس في سلم أولوياتنا ، لقد قتلناهم لأن الفـارق الشاسع بين الطابع المهم إلى حد القـداسة الذي نوليـه لأرواحنا وبين الطابع قليل الأهميـة لأرواحهم سمح لنا بقتلهم[1] .

إننا مقتنعون إلى درجة لا تقبل الشك بأن حـياة الآخرين ليست بالأهمية التي نوليها لحياتنا طالما أن البيت الأبيض ومجلس الشـيوخ ، وصحيفة «نيويورك تايمز» طوع بناننا .

ونحن نؤمن إيمانًا مطلقًا بأنه طـالما لدينا «إيباك» «مجلس المنظمات اليـهودية» «وبرونجمان» رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، وديمونة المفاعل النووي ، «ويادفاشيم» نصب ضحـايا المحرقـة النازية ، ومتحف المحـرقة ، فإن من حـقنا أن نبلغ ٤٠٠ ألف شخص أن أمامهم ثماني ساعات لإخلاء منازلهم ، ومن حقنا أن نتعامل مع منازلهم بعد انقضاء الساعات الثمـاني كأهداف عسكرية ، ومن حقنا أن نلقي ستة آلاف قذيفـة على المناطق الآهلة بالسكان والقرى والبلدان ، ومن حـقنا أن نقتلهم من دون أن نشعر بأي ذنب)[2]

---

(١) لاحظ الضغط الذي مارسته الولايات المتحدة الأمريكية على هيئة الأمم المتحدة لسحب قرارها باعتبار الصهيونية مذهبًا عنصريًا .

(٢) جاء ذلك ضمن مقال للأستاذ/ عزت صافي بجريدة الخليج٢٣/ ٥/ ١٩٩٦م .

وماذا عن البوسنة والهرسك؟ :

يقول «فوشتيك» السفاح الصربي بالحرف الواحد في حديثه لمجلة « دير شبيجل» :

« لقد قتلت وحدي مئات المسلمين ، وقمت شخصيًا بإطلاق الرصاص على الأسري المسلمين للقضاء عليهم» .

وعندما نبهته المجلة إلى المعاهدات الدولية التي تحرم قتل الأسري قال :

« إنه لم يجد سيارات لنقل الأسري فوجد أرخص طريقة أن يقتلهم بالجملة ، مثلما أجهز رفاقه الصرب على ٦٤٠ مسلمًا كانوا يختفون في مخبأ.

وعندما سألته المجلة عن الهدف من الحرب ؟

قال دون تردد : هدفنا هو القضاء على المسلمين فالمسلمون في أوربا يجب أن يختفوا كأمة . واستمر قائلاً :

وأنا أقتل كل قادر على الحرب من المسلمين ، ومن لا أقتله أقوم بحرق عينيه ... ونحن نلجأ إلى تهشيم أيدي الأسري ببطء حتى يعترفوا بما نريد من معلومات ..)

هذا هو الفحش الإجرامي الذي يجري على ملأ من دول تتحدث عن العدالة وحقوق الإنسان وتحاكم هذا على نسف طائرة ... وهذا على خطف رهينة ... إلخ بينما هناك عملية إبادة عرقية دينية ، وطرد جماعي لثلاثة ملايين مواطن من أراضيهم ، وقتل وتعذيب وحرق أكثر من سبعين ألف شهيد جهارًا نهارًا أمام تواطؤ عالمي ، وأمام دول .. تكتفي بالشجب والتصريحات ودول أخرى تخفي رءوسها في الرمال ... والظلم على الضعفاء دوار ، ودورنا قادم في الطريق .

أقول لهؤلاء إن دورنا قادم في الطريق ، فالجنود التاميل يقتلون اليوم مئات المسلمين في مذابح متصلة في سيريلانكا ، والهنود يقتلون مسلمي كشمير ،

والبورميون يذبحون مسلمي بورما بالآلاف ، والدبابات الروسية أعملت السلاح في الجبهة الإسلامية. . . والترسانة العسكرية النووية والميكروبية والكيماوية - في إسرائيل - تتربص لتصفية الإسلام من الكرة الأرضية كلها في المعركة التي يبشر بها التلمود والتي يسمونها معركة «هرمجدون»[١].

وتؤمن الحركة الأصولية المسيحية الصهيونية الأمريكية بهذه المعركة وهي حركة تضم - كما جاء في موسوعة إكسفورد للعالم المسيحي الصادرة عام ١٩٨٢م - الأعداد التالية :

١٠٠,١٥٧,٢٤٠ مليونًا على مستوي العالم .[٢]

٧٤,٧٢٨,٠٠٠ مليونًا في أمريكا وحدها .

وقد حددت الحركة موعدًا لهذه المعركة .

حددته في عام ١٩٨٨م ، ولما لم يحدث حددت له عام ١٩٩٢م وعندما لم يحدث حددت له موعدًا جديدًا هو عام ٢٠٠٠ م باعتباره النهاية ، وبداية الألف عام الجديدة السعيدة، التي يحكم المسيحيون فيها العالم وفقًا لما جاء في سفر أشعيا النبي، والإصحاح الثالث عشر، وهم قد كانوا يواظبون على قراءة هذا السفر، وذلك الإصحاح، يوميًا أثناء حرب الخليج الثانية في ١٧ يناير ١٩٩١م[٣].

إن العجب كل العجب فينا نحن الذين نتلقي هذه الأخبار والتقارير بشيء من الاندهاش والاستغراب : الصدمة إزاء مزاعم عن التقدم والحضارة والرقي ، والحضارة الإنسانية ، والمحافظة على حقوق الإنسان .

كيف نندهش ؟

كيف نندهش وقد أخبرنا ديننا الحنيف بكل هذا الذي يحدث ؟!

---

(١) تحقيق الأهرام في ٣٠/٩/١٩٩٢م .

(٢) المسيحية والحرب، للقس د. رفيق حبيب ، ص (١٩) .

(٣) المصدر السابق ص (١٩٧) .

ألا يعني هذا الاندهاش إثمًا فكريًا أو معصية عقلية ، تعني أننا ـ لا شعوريًا ـ أكثر تصديقًا لمزاعم عن حضارتهم منا لما أخبرنا به الرسول (عن همجيتهم ؟!

(يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ...) رواه أبو داود بسنده في سننه ، وصححه الشيخ الألباني .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أنذرنا بهذا الخطر في صيغة يغلب عليها الخطر المادي، فإنه وهو خطر الاستئصال ، يتضمن حتمًا خطر المحو . . الثقافي في آخر المطاف .

معركة الثقافة . معركة الذاتية .

وإن القرآن أنذرنا بما يسبق الخطر المادي ، وما يعقبه على السواء .

أنذرنا بالغزو الثقافي . أنذرنا بغزو الذات . . .

يقول تعالي: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]

ويقول تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١- ٥٢] .

ويقول تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة:٥٧-٥٩]

ويقول تعالي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

إن المقارنة بين أهمالنا لما أخبرنا به الله ورسوله وبين ما رسخ في وجدان البعض منا حول التقدم والرقي والقيم الإنسانية التي تأتي من الغرب... إلخ هذه المقارنة تبين إلى أي حد وصلنا في معركة الذات .

إنها تؤكد أننا غارقون إلى الأذقان تحت هزيمة فكرية ينبغي أن نتخلص منها أولاً قبل أن ندخل المعارك السياسية أو العسكرية .

إنه لا ينبغي أن يغيب عن وجداننا أننا أمام حملة صليبية جديدة أشد ضراوة وأقوي تخطيطًا من جميع الحملات السابقة .

ذلك لأن الحملة الجديدة أخذت تقدم لنفسها بحرب ثقافية استمرت طوال هذا القرن استهدفت محو الذاتية الحضارية الإسلامية ، بواسطة المبشرين والمستشرقين والمستعمرين والعملاء، ووصلتِ إلى قدر ملحوظ من النجاح في عملية الاستئصال الثقافي الذي من شأنه أن يؤدي إلى النتائج التي لم تصل إليها الحروب الصليبية من قبل في المشرق وهي نتائج لا تقل خطرًا عن عملية الاستئصال التي نجحت نجاحًا كاملاً في الأندلس من قبل ، ولا زالت تجر ذيولها في شرق أوربا .

يقول الفيلسوف الفرنسي الشهير «جان بول سارتر» في مقدمة كتاب «المنبوذون في الأرض» : (كنا نحضر أبناء السادة من أفريقيا وآسيا ونطوف بهم بضعة أيام في لندن وباريس وأمستردام فتتغير ملابسهم ، ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الجديدة ، ويرتدون السترات والسراويل ، ويتعلمون لغتنا وأساليب رقصنا وركوب عرباتنا . . . ونلقنهم أسلوب الحياة ، على أثاث جديد ، وطرز جديدة ، من الزينة ، واستهلاك أوربي وغذاء أوربي كنا نضع في أعماق قلوبهم أوربا ، والرغبة في تحويل بلادهم إلى أوربا ، ثم نرسلهم إلى بلادهم ، حيث يرددون ما نقوله بالحرف تمامًا ، مثل الثقب الذي يتدفق منه الماء في الحوض.

هذه أصواتنا تخرج من أفواههم ، وحينما كنا نصمت كانت ثقوب الأحواض هذه تصمت أيضًا ، وحينما كنا نتحدث كنا نسمع انعكاسًا صادقًا وأمينًا لأصواتنا

من الحلوق التي صنعناها . وكنا واثقين أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونهـا غير ما وضـعنا في أفواههم . ليس هذا فحـسب ، بل إنهم سلبوا حق الكلام من مواطنيهم !!!) .

ويقول «مستـر بيرغرين وورسشورن» في مقـال له بجريدة «الصنداي تلجراف» في ١٧/ ١٢/ ١٩٧٨م ، بعد أن يشير إلى انهيار الإمبراطورية العثمانية :

(الأهم من هذه السيطرة المادية كان هو المدى الذي تغلغلت فيه الأفكار والقيم الغربية إلى صـميم الروح العربية، حـتى أنتجت جيلاً من النخـبة المثقفـة العربية المستعدة للتـعبد في الصوامع النصرانية طبعًا، بـل في صوامع العلم والتكنولوجيا التي أصبـح الغرب نفسـه يؤمن بها، ذلك أن هذه الأصـنام الغربية الجـديدة التي أثبتت قدرتها على نسف إيماننا بالمسيح ستنسف إيمانهم بالله بالطريقة نفسها) .

ثم يدعو الغرب إلى القـضاء على الإسلام ، ويحذره من النهضـة الإسلامية قائلاً : (إن تشـجيع الإسلام على القيـام بنهضة تصل إلى نوع جديد مـن الجهاد وجـعله يفتـرض في نفسـه القدرة عـلى النجاح في ذلك دون أن تجـابه صلابتـه بصلابتنا سيكون معناه الحكم على العالم المسيحي بمصير خسيس تعيس يجلبه على نفسه ، وعندئذ سيكون العالم المسيحي مستحقًا لمثل هذا المصير) .

ثم يدعو إلى استعمال كافة الوسائل التي تحول دون ذلك ، وألا يستبعد أخيرًا اللجوء إلى استعمال القوة المسلحة .

صميم المعركة الدائرة الآن ليس في ظواهرها السـياسية أو العسكرية ولكنه في أعماق مشكلة الذات الثقافية .

وهنا لم يتركنا الله ورسوله حياري أمام الحل المطلوب .

وهو حل ثقافي في المقام الأول وبخاصة بعد أن ذابت قلاع المقاومة المتقدمة .

إنه حل المحافظة على الذات .

حل المحافظة على التميز .

حل المحافظة على الخصوصية .

حل الغربة : «**بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**»[1]

لكي نكون نحن :

ولكي نتهيأ لنصر موعود ليس لغير الذات الإسلامية .

ولكي نقدم للعالم شيئًا غير ما هو فيه ، مما بدت عوراته ، وانحلت قوائمه ، وأصبح على شفا جرف هار من انهيار مرصود .

يقول تعالي : ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ [الماعون: ١-٣] .

تلك جميعًا صفات الحضارة المسيحية اليهودية الإلحادية المعاصرة .

يدع اليتيم - في غير احتفالات الشاشة التليفزيونية والدعاية النفاقية .

ومنه دع النسل، وصده، وبيعه أشلاء في أسواق الطب الحديث .

ولا يحض على طعام المسكين ، في غير احتفالات الشاشة التليفزيونية والدعايات النفاقية .

ومنه التلهي بمجاعات العالم الثالث وردها إلى غير النهب الاستعماري .

ثم تلتفت الآيات إلينا .

﴿ **فويل للمصلين . . .** ﴾

نحن .

لماذا ؟ لأننا لا نعمل بما يتفق مع هذه الصلاة .

وما الذي يتفق مع هذه الصلاة ؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

هو أن نهجر هؤلاء الذين يكذبون بالدين .

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨] . .

أن نزيحهم من ثقافتنا .

تقتضي صلاتنا منا أن نجعل قبلتنا هي القبلة الإسلامية .

لا أن نجعل قبلتنا هناك في الغرب .

وإلا إن كنا نصلي غير مصلين .

وإلا إن كنا مسلمين غير مسلمين .

وإلا إن كنا مرائين .

﴿ الذين هم يراءون ...﴾

ويمنعون العون .

يمنعون العون عن الآخرين .

ولكنهم أولاً يمنعون عن أنفسهم العون من الله .

يمنعون عن أنفسهم العون الذي من شأنه أن تمدهم به الصلاة لو أنهم يصلون.

لو أنهم يصلون غير مرائين .

لو أنهم يصلون إلى قبلتهم، وليس إلى قبلة الحضارة المسيحية اليهودية الإلحادية !!! .

* * *

نهاية التاريخ
أم حضارة متداعية؟

● **نهاية التاريخ أم نهاية الحضارة؟ :**

الزعم بنهاية التاريخ، هو ما ادعاه المفكر الأمريكي «فرانسيس فوكوياما»: وهو النائب السابق لمدير مجموعة تخطيط السياسة بوزارة الخارجية الأمريكية .

وقدم أطروحته تلك أولاً: في محاضرة ألقاها بهذا العنوان: «نهاية التاريخ» خلال السنة الدراسية ٨٨/ ١٩٨٩م بمركز مختص بالبحث في «نظرية وتطبيق الديموقراطية بجامعة شيكاغو» .

ثم تحولت المحاضرة إلى مقال شهير بمجلة «ناشيونال إنتيرست» ، ثم تحولت إلى كتاب نشرته دار النشر «فيريبريس» .

وقام بترجمة الكتاب إلى العربية الدكتور «حسين أحمد أمين» ونشره «مركز الأهرام والنشر» ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م .

وقد ذهب المؤلف في كتابه إلى أن الديموقراطية الليبرالية تشكل: «**نقطة النهاية في التطور الأيديولوجي للإنسانية، والصورة النهاية لنظام الحكم البشري، وبالتالي فهي تمثل نهاية التاريخ**» ، وبعبارة أخرى فإنه - كما يقول «فوكوياما» - إنه بينما شابت أشكال الحكم السابقة عيوب خطيرة أدت إلى سقوطها ، فإن الديمقراطية الليبرالية يمكن القول بأنها خالية من مثل تلك التناقضات الأساسية الداخلية .

ولم يكن يقصد «فوكوياما» بنهاية التاريخ نهاية وقوع الأحداث، بما في ذلك الأحداث الخطيرة والجسام، وإنما يقصد «التاريخ من حيث هو عملية مفردة متلاحمة وتطورية، لتجارب كافة الشعوب في جميع العصور» ص(٨) .

وقد ارتبط هذا الفهم للتاريخ من قبل بكل من الفيلسوف الألماني «هيجل»، و«ماركس»، فعند هذين المفكرين: أن ثمة تطوراً متلاحماً للمجتمعات البشرية من مجتمعات قبلية بسيطة قائمة على العبودية وزراعة الكفاف، إلى مختلف أشكال الحكومات الدينية والملكية والأرستوقراطية الإقطاعية، وانتهاء بالديمقراطية الليبرالية الحديثة والرأسمالية القائمة على التكنولوجيا عند «هيجل»، والشيوعية من بعد ذلك عند ماركس .

كان في اعتقاد كل من «هيجل» و«ماركس» أن تطور المجتمعات ليس إلى ما لا نهاية، بل إنه ستوقف حين تصل البشرية إلى شكل من أشكال المجتمع يشبع احتياجاتها الأساسية والرئيسية، وهكذا افترض الاثنان أن للتاريخ نهاية: هي عند «هيجل» الدولة الليبرالية، وعند «ماركس» المجتمع الشيوعي، وليس معنى هذا أن تنتهي الدورة الطبيعية للحياة والأحداث، وإنما يعني هذا أنه لن يكون ثمة مجال لمزيد من التقدم في تطور المبادئ والأنظمة الأساسية، وذلك لأن كافة المسائل الكبيرة حقًا ستكون قد حلت . ص(٩) .

ثم يصل «فوكوياما» إلى أن يقول في كتابه: إن لنا ونحن نودع القرن العشرين أن نعود إلى تأكيد ما قرره «هيجل» من قبل وهو: **«أن تاريخ البشرية يتجه بالشطر الأعظم من البشرية صوب الديمقراطية الليبرالية كنهاية للتطور التاريخي»** .

وذلك لسببين : الأول يتصل بالاقتصاد ومن ثم بالعلوم الطبيعية الحديثة، والثاني يتصل بما يسمى «الصراع من أجل الاعتراف ونيل التقدير والاحترام» ص(٩)، فالبشر لا يرغبون في الرفاهية المادية فحسب، وإنما يسعون إلى الاعتراف بمكانتهم وكرامتهم من جانب غيرهم من البشر .

فمن ناحية السبب الأول: نجد أن المبادئ الليبرالية في الاقتصاد - أي السوق الحرة- قد انتشرت ونجحت في خلق مستويات من الرخاء المادي لم نعهدها من قبل سواء في الدول المتقدمة أو العالم الثالث .

ولذلك أثره الكبير في **«استقرار الديمقراطية على أساس فرضيات ثلاثة تقوم عليها السياسة الخارجية الأمريكية:**

الفرضية الأولى: أن الديمقراطيات الليبرالية لا تميل إلى محاربة بعضها، ولذلك له أثره الكبير في توسيع دائرة منطقة السلم في العالم .

الفرضية الثانية: أنه ليس هناك مثال تاريخي واحد لأية دولة ديموقراطية ارتدت

إلى السلطوية بعد وصول مستوى الفرد فيها إلى ما فوق مستوى ٦ آلاف دولار من الناتج المحلي لسنة ١٩٩٢م .

والفرضية الثالثة: أن أفضل طريقة لتشجيع النمو الاقتصادي هي دمج الدولة دمجًا كاملاً في النظام الرأسمالي الليبرالي للتجارة والاستثمار .

وتأتي هنا أهمية **التقدم العلمي** : حيث تخلق آفاقًا متجانسة من إمكانات الإنتاج الاقتصادي، فالتكنولوجيا تتيح إمكانية تراكم الثروة بغير حدود، وتتيح بالتالي إمكانية إشباع قدر متزايد دومًا من الرغبات الإنسانية، ولا شك في أن هذه العملية تضمن تجانسًا متزايدًا بين كافة المجتمعات البشرية بغض النظر عن أصولها التاريخية أو تراثها الحضاري . . وقد زادت الروابط التي تربط بين مثل هذه المجتمعات بفضل الأسواق العالمية وانتشار الثقافة الاستهلاكية في العالم كله» ص(١١) .

غير أن هذا العامل الاقتصادي لا يكفي وحده للوصول إلى نهاية التاريخ من وجهة نظر الديمقراطية الليبرالية، لأنه: ثمة حالات عديدة أمكن فيها للدول الديكتاتورية الوصول إلى معدلات نمو اقتصادي لم تتمكن المجتمعات الديمقراطية من تحقيقها» ص (١١)، وذلك لأن الإنسان عند «فوكوياما» «ليس مجرد حيوان اقتصادي» ص (١٢) .

ومن هنا يتبين «لفوكوياما» أهمية العنصر الثاني الذي يحرك التاريخ وهو **الرغبة الأساسية لدى الإنسان في الحصول على اعتراف الغير به واحترامه**، وهو الأمر الذي لا يوفره التقدم الاقتصادي في ظل الدول الديكتاتورية ، فكانت نهاية التاريخ من ثم لا يمكن أن تتم في ظل التصور الماركسي، وكان لا بد من توقعها في ظل تحقيق المجتمعات الديمقراطية الليبرالية بزعم أنها هي التي تحقق العنصرين معًا: التقدم الاقتصادي، والحصول على الإحساس بالرضا وعزة النفس .

هذا الأمر هو الذي جعل «فوكوياما» يعود إلى «هيجل» ونظريته غير المادية في

التاريخ القـائمة على أساس «الصـراع من أجل نيل التقدير والاحـترام» ص (١٢) وذلك بالوصول إلى الديمقـراطية الليبـرالية، كما يـعود في نفس الوقت إلى ذلك الجانب الذي سماه أفلاطوه: «الثيموس» «أي الهمـة أو الشجاعة أو القوة الغضبية» ضمن الجوانب الثلاثة عنده للإنسان: العقل والشهوة والقوة الغضبية ص (١٣) .

ثم هو يبني أطروحته على اتجاه الاقـتصاد العالمي في طريق العولمة : ويقرر أنها - أي العولمة وجدت لتبقى لأسباب ثلاثة:

أولاً: لأنه - كما يقـول: «لم يبق هناك نموذج تنمية كبديل عـملي يعد بنتائج أفضل من العولمة حـتى بعد أزمة الدول الأسيوية عـام ١٩٩٧م / ١٩٩٨م طبقًا لما صرح له به بعض زعماء الحركة الاقتصـادية النامية في سنغافورة وماليزيا من أنهم أصبـحوا يفضلون نمط السـياسة القـائمة على الحقـوق الذي هو سمة من سـمات الغرب «يفـضلونه على نمط السـاسة القائمـة على الدكتـاتورية الأبوية كسـمة من سمات الثقافة الأسيوية» .

السبب الثاني: في عدم احـتمال نقض العـولمة هو: أن مشاكل عـدم المساواة الاقتصـادية التي يسعى اليسار إلى حلهـا لا يمكن حلها في الوقت الراهن إلا على أساس من المستوى العالمي .

السبب الثالث: أن العولمة المعاصرة تلقى الدعم من تكنولوجيا المعلومات التي نشرت التليفون والفاكس والراديو والتليفزيون والإنترنيت في أقصى بقاع الأرض.

وليس معنى ذلك عند «فوكـوياما» : «أن الديموقراطيات الراسخـة المعروفة في زمننا هذا كـالولايات المتحـدة أو فرنسا أو سـويسرا لا تعـرف الظلـم أو المشكلات الاجتماعـية الخطيرة، غير أن هذه المشكلات هي في ظني - حسب تعـبيره - وليدة قصور في تطبـيق المبدأين التوأم : الحرية والمساواة، اللذين قـامت الديمقراطية على أساسهما ولا تتصل بعيوب في المبدأين نفسيهما» ص(٨) .

وهنا نجد أن «فـوكويامـا» يتناسى أن الديمقراطيـة الحديثة لم تـقم على أساس هذين المبدأين الحرية والمساواة فحسب: ولكن بضمـيمة العلمانية إليهما، ومن هنا يصح لنا أن نتوقع مجيء العيوب من هذا المبدأ الثالث .

وإذا كان هذا الاعتذار مقبولاً في شأن إخفاق الديمقراطية الحديثة إلى حد أنها كمـا يقـول «فوكويـاما» نفـسه «قـد ترتد إلى أشكال أخرى للحكم أكـثر بدائـية كالحكومة الدينية أو الديكتاتورية العسكرية» ص (٨) . . فهل يقبل العلمانيون هذا الاعتذار عندما يقال في شأن النظام الإسلامي؟ .

وبالرغم من تصريح «فوكـوياما» بأن الإنسان ليس حيوانًا اقـتصاديًا، وإنما هو يحتوي على الرغبة في اعتراف الآخر به «انطلاقًا من الثيموس الأفلاطوني ومطلب الاعتراف عند هيجل» فإننا نحن نـرى أن الأمر مع ذلك ما يزال يتحرك في النطاق المادي، ولا يمكن تحقيق الشـعور بالاحترام إلا من خلال تحقيـق رغبة الإنسان في التطلع للحـصـول على الرضـا من خـلال رغبـتـه في الاتصـال بالأعلى، بالله والآخرة، وإذن فلا ينتـهي التاريخ إلا باستسلام الإنسانيـة كلها للدين الذي يشبع هذه الرغبة ، وذلك ما تنبأ به محمد ﷺ في قوله من علامات الساعة «**والذي نفسي بيده ليـوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فـيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حـتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجـدة خيراً من الدنيا وما فيها**» رواه البخاري وغيره .

وقـد ارتبط هذا الفـهـم للتـاريخ بكل من الفـيلـسـوف الألماني «هيـجل»، و«ماركس»، فعند هذين المفكرين: أن ثمة تطورًا متلاحمًا للمجتمعات البشرية من مجتمعـات قبلية بسيطة قائمة على العبودية وزراعـة الكفاف، إلى مختلف أشكال الحكومات الدينية والملكية والأرسـتوقراطية الإقطاعية وانتهاء بالديمقـراطية الليبرالية الحديثة والرأسمالية القائمة على التكنولوجيا .

ونحن نرى أن هذا التاريخ بهذا المفهوم الدنـيوي البحت نظرية قابلة للجدل،

إذ أين المسار الديني الخاضع لقيومية الآخرة عند من يعتقد كونه عاملاً أساسيًا لا يزول؟ .

ولقد كان في اعتقاد كل من «هيجل» و«ماركس» أن تطور المجتمعات ليس إلى ما لا نهاية، بل إنه سيتوقف حين تصل البشرية إلى شكل من أشكال المجتمع يشبع احتياجاتها الأساسية والرئيسية وهكذا افترض الاثنان أن للتاريخ نهاية: هي عند «هيجل» الدولة الليبرالية، وعند «ماركس» المجتمع الشيوعي، وليس معنى هذا أن تنتهي الدورة الطبيعية للحياة والأحداث، وإنما يعني هذا أنه لن يكون ثمة مجال لمزيد من التقدم في تطور المبادئ والأنظمة الأساسية، وذلك لأن كافة المسائل الكبيرة حقًا ستكون قد حلت . ص(٩) .

ونحن نقول: إن هذا يتوقف على وجهة النظر القيمية: إذ أين تأثير مسار القيم الأخروية عند من يؤمن بها؟ .

ثم يؤكد فوكوياما في كتابه: أن لنا ونحن نودع القرن العشرين أن نعود إلى تأكيد ما قرره «هيجل» من قبل: أن تاريخ البشرية يتجه بالشطر الأعظم من البشرية صوب الديمقراطية الليبرالية .

ونحن نرى أن هذا التأكيد ينطلق من تقدير مفعم بالذاتية، وهي ذاتية ليست مقدسة، ولا محصنة ضد الجدل، فإذا لم تؤصل على أسباب موضوعية فقد أصبح وخصومه على مفترق طرق منذ البداية .

وما يذكره «فوكوياما» من أسباب لهذا الاعتقاد يؤكد ذاتيته .

● **هل تراجع فوكويوما؟ .**

في مقاله الأخير الذي أصدره «فوكوياما» مؤخرًا بعنوان: «إعادة نظر في نهاية التاريخ» وقد نشرته مجلة «الكتب وجهات نظر» في عددها الثامن / سبتمبر ١٩٩٩م بترجمة الأستاذ «أحمد محمود» . . .

يتساءل «فوكوياما» في هذا المقـال الأخير: هل يعني ذلك أن من الصحيح أن ما قدمه في كـتابه من أن كل شيء في النظام السياسي والاقتصـادي الكوني يسير فعلاً إلى حالة الاستقرار النهائية؟ .

يجـيب «فوكـوياما» على هذا السـؤال في مقـاله الأخيـر بالنفي، ولأسـباب سيـاسية واقتـصادية إلى الحد الذي يجعلـه يصرح بسؤال: لماذا كان القـول بنهاية التاريخ خطأ إلى حد كبـير؟ إنه يصرح بأنه اكتشف أن احتمـال كون الإنسانية في هذه المرحلة الديمقراطية الليبـرالية القائمة على العولمة الحتميـة قد اقتربت من نهاية التاريخ، إنما ينشأ فقط في ظل شرطين:

*** أولهما : أن التقدم العلمي التكنولوجي له نهاية يتوقف عندها .**

*** والثاني: أن الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير تغيراً جذريًا .**

وبما أن هذين الشرطين غير متوفرين: كمـا تبين له أخيراً فإن احتمال تحقق ما سماه نهاية التاريخ أصبح أمرًا مشكوكًا فيه كذلك .

■ **أما الشرط الأول:** فقد أصـبح مشكوكًا فيه بسبـب التقدم العلمي الذي لم يعـد له نهاية ملحـوظة إلى الحد الذي ينبئ باحـتمـال أن يخلق نوعًا جـديداً من البشر، ومن ثم ينهار الشرط الثاني الذي افترض ثبات الطبيعة البشرية .

وفي المجال العلمي فهو يقرر أن الإنسانية على شفا انفجار جديد من الابتداع التكنولوجي، وأنه إذا كان القـرن العشرون هو قرن الفـيزياء التي كانت منتـجاتها النموذجيـة القنبلة الذرية والترانزستـور ، فإن القرن العشرين يبـشر بأن يكون هو قرن البيولوجيا أو علم الأحياء .

فإلى حد ما من الممكن اعتبـار ما حدث طوال القرن والنصف المنصرمين ثورة في التكنولوجيا الحـيوية إذ جاءت لنا بالتطعيمات ضـد الجدري وشلل الأطفال مما أدى إلى زيادة متوسطات الأعـمار المتوقعة، والثورة الخضـراء في الزراعة والفوائد

الأخرى التي لا حصر لها. غير أن اكتشاف تركيب ما يسمى الحمض النووي فتح مجالاً أرحب كثيراً في غزو الإنسان للطبيعة . وسوف تجعل أنواع التطورات التي يحتمل حدوثها في الجيلين القادمين: تجعل ما حدث في السابق من تقدم تافهًا إذا ما قورن بها .

وتوحي الأبحاث التي أجريت مؤخراً على الخلايا الموجودة في الأجنة التي لم تتخلق بعد لتصبح أعضاء الطفل المختلفة توحي بأن الشيخوخة وعدم تجديد الخلايا الميتة عمليتان يمكن التحكم فيهما وراثيًا ويمكن تشغيلهما أو وقفهما بطريقة متعمدة، ويعتقد بعض الباحثين في الوقت الراهن - كما يقول - أنه قد يكون من الممكن للعلم أن يمكن بعض البشر من أن يحيوا بشكل معتاد لمدة مائتي أو ثلاثمائة عام، وربما أطول من ذلك، وعلى مستوى عالٍ من الصحة .

إن النتيجة الأكثر جذرية للبحث الدائر في مجال التكنولوجيا الحيوية هو احتمال تغيير الطبيعة البشرية ذاتها ليس فقط بالتأثير على الفرد الذي تطبق عليه: وإنما على كل الذرية التالية لهذا الفرد، فلا تكتفي بنشاطها في الأغراض العلاجية وإنما - وفي ظل عدم وجود اتفاق فيما يتعلق بما يشكل أساس الصحة: سيصبح في الإمكان أولاً إعطاء هرمون النمو لطفل يعاني من القزامة لوجوده في شريحة الشذاذ الذين لا يتجاوزن نسبة خمسة في المائة، ثم يصبح بعد ذلك يعطي لطفل في شريحة العاديين «شريحة الخمسين في المائة» وهكذا .

يقول كثيرون - حسب «فوكوياما» - : إنه يمكننا أن نرسم خطًا بين العلاج المطلوب، والتحسين المحذور، وأنه يمكننا أن ندخر الهندسة الوراثية من أجل العلاج، كما هي الدعوة التي يتبناها في مصر الدكتور «حمدي السيد» نقيب الأطباء عن طريق إصدار القوانين والمواثيق، غير أن رسم الحدود في المناطق الرمادية - كما يقول «فوكوياما» - أمر قوله أسهل من فعله بكثير .

إن من يظنون - كما يقول «فوكوياما» - أن هذا الخوف مبالغ فيه وهو إنما

يأتي في سياق الخيال العلمي.. إن هؤلاء هم من أولئك الذين لم يكونوا مهتمين بما يجري في الحياة العلمية في الفترة الأخيرة .

فمما سيمكن تحققه في يوم من الأيام : العلاج بالعقاقير الذي يحدث نفس المستوى الأساسي من التأثير على السلوك البشري .

وهناك أعداد لا حصر لها من الحالات التي تمت فيها تهدئة أطفال على قدر كبير من الفوضى أو العنف أو العدوانية بعقار ريتالين .

وبالمثل فإن هناك عقار بروزواك الذي كان له أثر كبير في علاج المرضى الذين يعانون من الاكتئاب، وهو يؤثر تأثيرًا كبيرًا على مستوى السيروتونين في المخ الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمشاعر الخاصة بالثقة بالنفس والكرامة .

وبدلاً من السعي - كما كان الأمر يحدث سابقًا - إلى التغلب على النفس بكل قلقها ومحدوديتها . . يمكن لنا الآن أن نبتلع حبة دواء فحسب .

ويمكن للعقار الأول أن يقلل من ذكورة الأولاد، كما يمكنه أن يقلل من أنوثة المرأة، حسب الطلب أو التخطيط المركزي على السواء، ليصل بنا إلى صنف مخنث من البشر، وهو الهدف الذي تهدف إليه السياسة الجنسية المعاصرة، تحقيقًا لهدف المساواة، الذي قال «نيتشه» عنه في الإنسان السوبرمان «الكل يريدون أن يكونا سواء، فالكل سواء» .

وهذه التطورات التي يشهدها علم العقاقير العصبية تقدم لنا عينة لما سيأتي في القرن المقبل، وبالتالي سنكتسب القدرة على التحكم في المورثات نفسها، وبالتالي تغيير مجموعة السلوك التي كان يتم التحكم فيها وفقًا لنظام المورثات قبل هذا التعديل .

وأن الأمر يتطور إلى أن يصبح في إمكان هذه التقنيات أن تؤدي إلى: أن تخلق نوعًا جديدًا من البشر .

وبهذا يكشف «فوكوياما» عن أن الافتراضين الأساسيين اللذين بنى عليهما أطروحته وهما نهائية التقدم العلمي، وثبات الطبيعة البشرية غير صحيحين: وأنه إذا كان البشر - حسب زعمه قابلين للتشكل بصورة لا نهائية وأن الثقافة تحتوي على إمكانات أكبر في قابلية التشكيل فحينئذٍ «يكون جليًا أنه ليست هناك مجموعة معينة من المؤسسات السياسية والاقتصادية الليبرالية يمكن أن تصل إلى أن تكون مرضية كل الرضا» .

لكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد في مقالة «فوكويوما» الأخيرة .

فهو يلاحظ في صحوة ضمير :

أنه بينما أن للتكنولوجيا الحيوية آثارها المفيدة التي لا يمكن إنكارها فإن كثيرين ينظرون إليها بقدر أكبر كثيرًا من الشك، بل إن مصدر الخطر فيها هو ما لها من هذه الآثار المفيدة التي تجعل من غير الممكن الاستغناء عنها .

وفي أوربا وألمانيا على وجه الخصوص جعلهم التراث النازي حذرين بشأن الأبحاث الوراثية والتحكم في الجينات، وقد حظر الألمان أنشطة مثل أبحاث المورثات ، كما دخلوا في خلافات مع شركات التكنولوجيا الحيوية بشأن الأطعمة التي أدخلت عليها تغييرات وراثية .

وفي تكنولوجيا المعلومات: هناك بعض الاستخدامات التي لن يدافع عنها حتى أكثر المؤيدين لحريتها: مثل عري الأطفال على صفحات الإنترنيت، ناهيك عن عري النساء الذي لم يشر إليه «فوكوياما»، وتداول معلومات صنع القنابل، وحتى إذا أراد أحد السيطرة على استخدامات التكنولوجيا في مجال المعلومات فلن يكون بالإمكان القيام بذلك، وأية محاولة لفرض قيود على استخدام تكنولوجيا المعلومات في الوقت الراهن سوف يتطلب مستوى من الحكم الكوني الذي لا وجود له حاليًا، ومن غير المحتمل أن يكون موجودًا في أي وقت في المستقبل» .

«وسوف تواجه المشاكل ذاتها أية محاولة للسيطرة على التكنولوجيا الحيوية

فسوف تكون منافعها على قدر كبير بالنسبة لكثير من الناس بحيث سيتم تجاهل **الهموم الأخلاقية** بشأن مساوئها التي هي في رأيي - حسب تعبير «فوكوياما» - أشد خطورة بكثير من تكنولوجيا المعلومات .

ويقرر أننا قادمون على تطورات «أكثر جذرية وبالتالي أشد رعبًا تكمن في المستقبل» وأنه لن يكون بمقدورنا - في مجال الاستنساخ مثلاً - أن نفرض قيودًا سياسية على البحث العلمي «وحتى إذا أردنا أن تكون هناك قيود فلن يمكن فرضها» .

وتعني العولمة - عنده - أن أية دولة ذات سيادة تسعى لفرض قيودها على الاستنساخ مثلاً أو خلق الأطفال المصممين لن تفلح في ذلك، فالأزواج الذين يواجهون حظرًا يفرضه الكونجرس الأمريكي قد يمكن لبعضهم التسلل إلى جزر الكيمان أو المكسيك. . بل إن التنافس الدولي قد يدفع الدول إلى تجاهل وخز الضمير، فإذا بدا أن منطقة أو دولة تنتج أفرادًا أسمى وراثيًا من خلال قواعدها المتساهلة بشأن التكنولوجيا الحيوية فسوف يكون هناك ضغط على الدول الأخرى لتلحق بها» ويصبح النظام الدولي القائم على العولمة والذي سمح بانتقال تكنولوجيا المعلومات الخيرة، غير صالح لمواجهة التكنولوجيا الحيوية الأكثر شرًا «وعندئذٍ تكون جهود إغلاق الأبواب لا نفع فيها» .

ولا يصح لأحد - كما يقول «فوكوياما» - أن يقلل من شأن النتائج المحتملة لذلك على أي من السياسة والأخلاق، وإذا بلغ الأمر - كما يقول «فوكوياما» - حد أن الطبيعة ليست شيئًا وهبنا إياه الرب، أو ميراثنا الارتقائي، بل صنعة البشر فحينئذٍ ندخل مملكة الرب - على حد تعبيره بكل القوى المخيفة للخير والشر التي يوحي بها هذا الدخول .

والمشكلة إذن - كما وضع «فوكوياما» يده عليها أخيرًا في صحوة ضمير - مشكلة أخلاقية .

وسوف نتوقف نحن عند هذه النقطة لنعود إليها، لكن يبقى أن نسأل عن أطروحته في نهاية التاريخ ما الذي حدث لها بعد هذا التحليل؟ .

هنا نجد «فوكوياما» يحاول بلعبة لفظية إنقاذ أطروحته السابقة في نهاية التاريخ إذ يقول إنه سنكون قد أنهينا التاريخ البشري بكل تأكيد لأننا سنكون قد ألغينا البشر أنفسهم، وحينئذٍ سيبدأ تاريخ ما بعد البشري .

● **نهاية حضارة :**

إن ما يسميه «فوكوياما» نهاية التاريخ البشري والانتقال لما بعد البشري لا يعني غير انهيار البشرية لأسباب أخلاقية كما صرح بذلك، وليس الوصول بهذه البشرية كما زعم سابقًا إلى مرحلة الرضا المنبعث من «الثيموس» ، بل دون أمل فيما يسميه ما بعد البشرية .

إذ ماذا يتبقى بعد هذه النهاية المأساوية لتاريخ البشرية ليقوم عليه تاريخ ما بعد البشرية؟ . وماذا في يد العلم ليبدأ الخطوات الأولى في هذا التاريخ بعد - أن تم استبعاد الله - وحاشاه - من الطبيعة ، كما استبعد من البشرية؟ .

وقد كان على «فوكوياما» بدلاً من الدخول في ضباب وأسطورية ما بعد البشري - حسب زعمه - أن يتوقف طويلاً أمام حقيقة أن تاريخ البشرية يحتاج إلى ما ينقذه .

ونحن نوافق «فوكوياما» في نظرته اليائسة لمن ينقذ البشرية في مرحلتها الحضارية الأخيرة لكي يعيدها إلى الطريق في سيرها نحو حالة الرضا : نعم نوافقه على ذلك لكن لسبب لم يدركه «فوكوياما» منذ البداية وهو أن هذه الحضارة إذ ارتكزت على عنصري الاقتصاد ومطلب اعتراف الآخر، فقد أهملت منذ البداية عنصر الإيمان بالدين والاعتراف بها أمام الله، وقامت على العلمانية الأمر الذي جعلها في نهاية تطورها الخاص بها في موقف الإفلاس الأخلاقي إفلاسًا لم يعد يمكنها من الإمساك بقشة النجاة من الغرق بالرغم من تفوقها الاقتصادي والعلمي، بل بسبب تفوقها الاقتصادي والعلمي معًا .

حضارة متداعية

● تمهيد :

ليس من شك في أن المشروع الذي قامت عليه الحضارة الأوربية المعاصرة استبعد الدين تمامًا[1]، فما الذي قام بدور الدين في هذه الحضارة ؟

هل قامت الفلسفة الأوربية بهذا الدور ؟

يقرر «ألبرت شفيتزر» أن الفلسفة الأوربية المعاصرة انصرفت عن القيام بدور إيجابي في هذا المجال، سواء على المستوي العالي من الفلاسفة ، أو على المستوي الشعبي من أتباعهم ، وذلك لأنها ـ أي هذه الفلسفة المعاصرة ـ تقلصت وانحسرت إلى مجالات ثلاثة :

١- الفلسفة النقدية التي أسفرت عن الشك في كل القيم العقلية والأخلاقية الراسخة .

٢- اللهاث وراء العلم ، الذي أصبح في نظر الفلسفة المعاصرة (هو الذي من حقه أن يقدم الحقيقة الواقعية ، وهو بعد ذلك إنما يقدمها ـ لا كحقائق ثابتة ـ ولكن كفروض ونظريات)[2]

٣- الاستغراق في دراسة ماضي الفلسفة ، حيث أصبحت الفلسفة من هنا مجرد علم يستخلص النتائج التي وصلت إليها العلوم الطبيعية والتاريخية حتى أصبحت الفلسفة عمليًا هي تاريخ الفلسفة [3]

وبهذا أصبحت الفلسفة (خاوية من التفكير الحقيقي وراحت تتأمل في النتائج التي وصلت إليها العلوم الجزئية ، لكنها فقدت القدرة على التفكير الأصيل) [4]

(١) وإن كان يلجأ إليه في أغراض عارضة أحيانًا .
(٢) فلسفة الحضارة ص ١٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٦ .
(٤) المصدر السابق ص ١٧ .

يقول : ومنذ ذلك الوقت والأفكار الأخلاقية التي تقوم عليها الحضارة تجوس أنحاء العالم فقيرة لا مأوى لـها ، ولم تتقدم نظرية في الكون لتسندها إلى أساس متين)[1]

هذا لا يعني أنه ليست لهذه الحضارة إيجابيات شامخة :

في مجـال العلوم، والتخـصص، والتكنولوجـيا، وتوزيع العمـل، والإنتاج والتسـويق، والاستهلاك، واخـتزال المعرفة (الـكمبيوتر) واخـتزال الزمن والمكان، وهي اليوم تتربع على عرش العلم، وتملك قوة الذرة، وتمشي على القمر، وتجوب الفضاء وتزرع قلوب الموتي في الأحياء، وتصنع أجناسًا جديدة من النبات والحيوان بالهندسة الوراثية ، وتفـجر الطاقة الكهربائية من شعـاع الشمس، وتصنع السدود والأنفاق والكباري مئات الكيلومترات ، وتحفر تحت المحيط أنفاقًا مثل المدن [2]

وبشيء من التـحديد فـإن إجمـالي الناتج القومي في أمـريكا يبلـغ أكثـر من ٢٠٪ من إجمالي الناتج القومي العالمي ، وفيـها أكبر عدد من أصحاب الملايين ، وأصحاب البلايين ، ففيها ٦٤ ألف مليونير ، و ٥٠٪ من إجمالي عدد أصحاب البلايين في العالم ، ولديها قدرات نووية تدمر الكرة الأرضية ست مرات إذ تملك أكـثر من ٢٥ ألف رأس نووي ، ولا زالـت هي الدولة الوحيـدة في العـالم التي تنفق سنويًا ٢٨٠ مليار دولار ـ أي ملـيون دولار في كل دقيقـة على مدار السنة ـ على إنتاج الأسلحة وتطويرها بكل أشكالها وأنواعها[3]

* * *

لكن تعالوا بنا نتجاوز هذه القشرة الخارجية لنلقي نظرة على الخواء الذي ينخر كالسوس في عظام هذه الحضارة .

(١) المصدر السابق ص ١٤ .

(٢) انظر مقالاً للدكتور مصطفى محمود بالأهرام ٣١/ ١٠/١٩٩٢م

(٣) بحث للدكتور عبد الخالق عبد الله بجريدة الخليج في ٢١/٩/١٩٩٢م .

يقول «ألبـرت شفـيتزر» : (إن الاتـساع الرائع في المعارف المـادية والقوة لا يكون جوهر الحضارة)[1]

(وإن الأعمال المبتكرة : عقلية ومادية لا تعطي آثارها الحقيقية إلا إذا استندت الحضارة في بقائها ونمائها إلى استعداد نفسي يكون أخلاقيًا حقًا.) [1]

وإنه: (إذا فقد الأســاس الأخلاقي تداعت الحضارة حتـى لو كانت العوامل العقلية والفنية والمادية تعمل عملها في اتجاهات أخري)[1]

ثم يقول: (إن مستقبل الحضارة يتوقف على تغلبنا على فقدان المعني واليأس اللذين يميزان أفكار الناس ومعتقداتهم في هذه الأيام .

ولن يكون في وسعنا ذلك إلا إذا اكتشف غالبية الناس لأنفسهم معني أخلاقيًا عميقًا راسخًا عن طريق نظرية أو عقيدة في الكون .

وبغير مـثل هذه التجربة الروحية العـامة لا سبيل إلى المبـاعدة بين عالمنا وبين الانهيار الذي يعد في السير إليه)[2]

وها هو «تشارلز فرانكل» في كتابه « أزمة الإنسان الحديث» يشير إلى أن كثيراً من فلاسفة العلم المعاصر مثل «مرتيان» و«نيبور» و«مانهيم» يتحدثون عن (التقدم الفكري والعلمي – وهو أكبر مفخرة لما أتاه الإنسان الحديث ـ على أنه مجرد أحبولة وخداع، وأن هذا العالم الحديث قد أعطي مكانًا مركزيًا في الحـضارة لجزء من الحياة البشري، ليس في حقـيقتـه سوي جـزء صغيـر بالنسبة إلى الأجـزاء التي تعمل على التـقدم الإنساني، وإن حماسة «كوندورسيه» و«جـون ستيوارت مل» للعلم الحديث وإيمانهما بالعلم وأملهمـا في المستقبل تنبـذ ـ الآن ـ على أنها أوهام قوم، معـرفتهم بالطبـيعة البشرية مسطحة جدًا، مثل مفهومهم لإمكانات الحياة البشرية ومعضلاتها)[3]

---

(١) فلسفة الحضارة ص٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٧

(٣) أزمة الإنـسان الحديـث ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ، وهذا يذكرنا بمدبر الحـضارة الإسـلاميـة ﴿ الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾.

ويقول «البرت شفيتزر»: (لن نفلح في بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد إلا إذا تخلصنا نهائيًا من الفكرة السطحيــة عن الحضارة ـ هذه الفكرة التي نتشبث بها وتملك علينا أنفسنا ـ ثم نأخذ من جديد بالنظرة الأخلاقية . . .)

ويقول :(يـجب أولاً أن نكون متأهـبين للعمل الإيجـابي في العالم والحـياة ويجب ثانيًـا : أن نكون أخلاقـيين)[1] ثم يقـرر أنه لا سـبـيل إلى إقناع الناس (بالأخـلاق عن طريق الدعوة والوعـظ بل لا بد من أن تنشأ العـقليـة الإيجابيـة الأخلاقية التي تنبع من نظرة عقدية تشمل الكون والحياة . . .)[2]

ثم يقول: (هذا هو المصير الذي انتهينا إليه :

لقد فقدنا كل نظرية الكون) [3]

ثم يقرر حقيقتين هامـتين : (أن طابع الحضارة أخلاقي في أساسه وأنه لا بد من ارتباط وثيق بين الحضارة وبين نظرتنا إلى الكون) [3]

ثم يقول: (لم يكن ذنب الفلسفة أن الفكر المجرد لم يفلح أبدًا في بناء نظرية في الكون ذات طابع مـتفائل أخـلاقي ، إنما أذنبت الفلسـفة في حق هذا العـصر بعدم اعترافها بهذه الواقعـة وإصرارها على أوهامها ، وكأن في ذلك فعلاً ما يعين على تقدم الحضارة)[3]

حتى في مجال تحرير الرقيق نجد الخواء .

يقرر «أرنولد توينبي» أن المحرر قانونًا لم يكن أحسن حالاً من مملوك مسلم إذ يقول:(بالنسبة لهذا المملوك فإن استرقاقه الشرعي قد يفتح له الطريق أمامه ليصبح سيد عدد من المحررين قانونًا ، أي المعتقين شرعًا ، إذ العتق يشمله هو أيضًا) .

(١) فلسفة الحضارة ص ٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٦ ـ ٧ .
(٣) المصدر السابق ص ١٨ .

ثم يقـول : (والسـود في الولايات المتـحـدة الذين حـرروا قـانونًا في سنة ١٨٦٢م لا يزالون يشعرون إلى الآن ، وقد مر علـى تحريرهم أكثر من قرن ، بأن الغالبية البـيضاء من مواطنيهم لا تزال تنكر عليهم حقـوقهم المدنية الكاملة ، وهم في شعورهم هذا على شيء كثير من الحق[1]

ويقرر «رشـدي فكار» أن الحضـارة المعاصرة تفـخر بإنجازاتهـا على مسـتوي السلبيات:

١ - الحروب المدمرة الأولي والثانية [2] .

٢ - تعـدد وسائل الفناء للبـشرية كـأنما لا تكفي المتـفجـرات الذرية ، وإنما أضيفت إليها الهيدروجينية والكيماوية والبيولوجية .

٣ - عصر «تشـرنوبيل» وما أحدثته من رعب بالتلوث الذري ومـا حملته من سموم رياح الشمال القاتلة ووصلت أصداؤها إلى الجنوب ، وأتلفت آلاف الأطنان من المحاصيل والمنتجات .

٤ - عصـر المضاربات التجارية، ليس فـقط في البنيات الاقتـصادية وإنما في المستخرجات الطبية والصيدلية سعيًا وراء الربح .

٥ - وتعدد أنواع الأدوية والسموم بحثًا عن الـكسب ولو لحساب إفشال الكبد والكلي .

٦ - التلوث القـيمي حيث يفـاخر البعـض بخروجهم على القـيم والتقـاليد والتنكر لكل رباط مـقدس حـتى المحرمـات أبيحت باعـتبـار أنها مـجرد (تابو)[3] .

٧ - وأسست جمعيات [4] لإباحة العلاقة مع المحارم .

---

(١) تاريخ البشرية ص ٢٤ الجزء الأول نشر الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٨١م ترجمة د. نقولا زيادة .

(٢) وأضيف : والثالثة المستـمرة من انتهاء الحرب العالمية الثانية ، في البلاد الإسـلامية ابتداء من مسلسل فلسطين إلى البوسنة إلى الشيشان . . إلخ .

(٣) نهاية عمالقة ص ١٣٢ .

(٤) وأضيف : وأقيمت مؤتمرات ، وصيغت قوانين .

٨ - كما أبيح الشذوذ الجنسي وشرع للعلاقة المثلية في مجال الجنس .

٩ - وأصبح موكب الفضائح الأخلاقية بما فيه من رشوة وجنس وعلاقات جنسية ، علنيًا ، على كل المستويات ، وأصبح قاسمًا مشتركًا لا ينفصل عن العظمة!![1]

١٠- وأصبح المنتحرون على مستوي كبار الأدباء، والقادة والمتخصصين في الدراسات النفسية والاجتماعية والإنثروبولوجية من أمثال: «جاكوب مورينو»، و«جان لوفيقر » و«همنجواي»، و«ماريا كالاس» ، و«داليدا» . . . إلخ .

وقامت المراهنة الصناعية على دعائم فاسدة من :

تلوث البيئة بافتقاد سلامة الجو . وتلوث الجسد بالكيمائيات .

وتلوث العلاقات الاجتماعية ، بأمراض الجنس والإيدز .

وتلوث العلاقات القومية بالفتن والقلاقل وبرك الدماء .

وتلوث العلاقات السياسية والاقتصادية بالزيف والغش والمضاربة : حيث أعطيت لها أسماء التكتيك والاستراتيجية ومناطق النفوذ .

وصارت حضارة العقل التي قدمت اللامعقول على حد تعبير «برتراندرسل»[2] .

* * *

وإذا كان الردع النووي الذي يحتكره كبار السدنة في هذه الحضارة هو الذي يؤجل انهيار المعبد على رءوس الجميع فهل بقي في المعبد رادع أخلاقي أو عقلاني يمنع انفلات الكارثة النووية الشاملة ؟

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٧ .

وماذا تكون هـذه الكارثة المحتملـة والتي إن لم تقع فإنهـا تؤثر سلبيًا بمجرد احتمال وقوعها ؟ .

ماذا تكون هذه الكارثة؟ .

سؤال طرحته منظمة الأمم المتحدة على عشرة من كبار العلماء في العالم ـ من بينهم الأستاذ الدكتور «محمد عبد الـفتاح القصاص» ـ واستغرقت الدراسة حوالي عام ، وتم تسليمها إلى «بيريز دي كويلار» السكرتير العام للأمم المتحدة آنذاك .

وكانت نتائج الدراسة على النحو التالى :

١ - سوف يموت في الساعات الأولي ما بين ٢ إلى ٣ بليون شخص .

٢ -٢ بليون آخرون ينتظرهم شتاء نووي مظلم تنخفض فيه درجة الحرارة إلى ما بين ٢٠ ـ ٢٥ درجة تحت الصفر .

وفي نهاية الشتـاء النووي المظلم وبعد أن تنقشع غمامـة الدخان الأسود هناك مرحلة تساقط الغبار الذري .

٣ - تنشأ ـ عن قنبلة ذرية عادية ـ عـاصفة سرعتها ٧٥٠ كـيلومترًا ، وتدمر أي مبان ـ مهما كانت قوتها ـ في بؤرة التدمير .

٤ - الموجة الحرارية الناشئة عن طاقة القنبلة تكفي لإشعال حرائق تصل درجة حرارتها إلى مئات الدرجات المئوية .

٥ - تحدث نبـضة إلكترومـغناطيسيـة تكفي لتعطيل كل الاتصـالات السلكية واللاسلكية ، وتدمير كل الأجهزة الإلكترونية في قارة أوربا (١) .

وبغير الردع النووي ماذا صنعت ـ بالفعل ـ هذه الحضارة ؟

يعلق الفيلسـوف الفرنسي «روجيه جـارودي» على ضحايا الحضـارة المعاصرة فيقول:

---

(١) الأهرام ص ٣ ، ٩/ ١٠/ ١٩٨٨م .

(لقد أطلق مؤرخونا بحق اسم الغـزوات البربرية على الأهرامات التي بناها «تيمورلنك» بسبعمائة ألف جمجمة بعد احتلاله أصفهان .

فماذا نقول عن إبادة ملايين الهنود الحمر في أمريكا على يد الفاتحين الأوربيين أصحاب المدافع ؟

وماذا نقول عن تخريب أفريقيا بانتزاع حوالي عشرين مليونًا من سكانها السود مما يعني أن عدد الضحايا بلغ مائتي مليون إذ كـان أسر كل أسير يكلف قتل عشرة أفراد .

بل ماذا نـقول عن مذابح آسـيا وحـرب الأفيـون ؟ والمجاعات التي فـتكت بملايين الهنود بفضل الاستعمار وفرض الضرائب ؟

وماذا نري في ضحايا الحرب العالمية الأولي والثانية ؟

وماذا نري في قنبلة هيروشيما ؟

وماذا نري في حرب فيتنام ؟

وماذا نري في ضحايا فلسطين ؟

وماذا نسمي في عالمنا اليوم النظام العـالمي للسيطرة الغربية ، هذا النظام الذي أنفق أربعمائة وخمسين مليارًا من الدولارات على التسلح عام ١٩٨٠م وتسبب في العام نفـسه في موت خـمسين مليونًا من الـبشر في العـالم بسبب لعبـة المبادلات التجارية ؟

وهكذا - يقول «جارودي» - : يعتبر الغـرب إلى أبد الآبدين أكبر مجرم في التاريخ)[١]

* * *

(١) ما يعد به الإسلام ص ٣٧ ـ ٣٩ .

وماذا عن العنف العالمي الذي تصنعه هذه الحضارة ؟

يلاحظ المراقبون السياسيون أن العالم الغربي يشهد تياراً من العنف لم يسبق له مثيل منذ نهاية الحرب الباردة ؟

الحروب الأهلية في الاتحاد السوفيتي السابق .

وحرب الإبادة في البوسنة والهرسك والشيشان .

والحروب التي تجري في المدن بين عصابات الشوارع : في الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وإيطاليا وألمانيا وفرنسا واليابان ، والتي تنظمها منظمات على أعلى مستوى من السيطرة والتحكم والإدارة والمال [١] .

وهل أغنت المظلة النووية عنهم من الله شيئًا ؟!

إن الاتحاد السوفيتي تبدد وهو مسلح نوويًا ، وكما يقول الدكتور «مصطفى محمود»: (ماتت روسيا وهي واقفة بدون حرب، وعلى ظهرها حمولة من القنابل الذرية تكفي لنسف الكرة الأرضية وفي الفضاء تدور سفينتها العجيبة «مير») .

ثم يقول: (وسوف يسقط العملاق الغربي بنفس الداء ، ودون أن يطلق عليه المسلمون (!!) رصاصة واحدة .

سوف يموت من الداخل ، هذه المرة بمرض مختلف : اسمه الترف ، والوفرة والشبع ، والتخمة ، وعبادة الشهوات ، والغرق في الملذات .

هذه المرة الميكروب : اسمه البطالة ، والمخدرات ، والجريمة المنظمة والمافيا ، وعجز الميزان التجاري ، وصراع العملات ، وكساد السوق . . .

وكعادة كل حضارة مترفة ازدهرت فنون الانحلال ، وسينما العنف ، ومسرح العبث ، وغناء العهر ، وروايات الجنس التي تخلف البلادة والاكتئاب.

(١) الأهرام ٣٠/٩/١٩٩٢م ص ١ .

ثم سر الميكروبات، غرور القوة الذي يورث التمرد على كل شيء ، حتى على الخالق وقوانينه وسننه، فنراهم يقننون الشذوذ ، ويحتفلون بزواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وينظر قضاؤهم في مشاكل هذا الزواج من النفقة والحضانة والميراث وكأنهم يخرجون لسانهم لحكمة الخالق التي أعمرت لهم الأرض فراحوا يخربونها بهذا الزواج العقيم، ويحتلفون بهذا العقم ، ويتبادلون التهاني) .

كل ذلك يهون ، أو يقاس ـ مع الفارق ـ على آثام حضارات تداعت من قبل.

لكن: هل من قياس لما تصنعه هذه الحضارة من كارثة للأرض: كوكبًا ضمن المنظومة الفلكية ؟! .

* * *

كارثة الأرض

● كارثة الأرض:

تمر الحضارة المعاصرة اليـوم بمنحني خطير فيما يتعلق بشئـون البيئة يهدد بما يطلق عليه : « مأساة الأرض» ـ ككوكب صالح للسكني .

إن مشكلـة البيئـة اليوم وصلت إلى مـستـوي الوصف القرآني لهـا في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] .

إن الأخطار التي تهدد البيئة اليوم لم تعد أخطارًا محلية يمكن أن يقتصر ضررها على وطن، أو إقليم، أو قارة بعينها؛ ولكنها أخطار تهدد بيئة الأرض كلها.

إنها أخطار تأتي على مستويات متدرجة :

فهناك أخطار تبـدو ذات طبيعـة محلية كـالتي تتسبب فـيها الفـضلات ودفن المخلفات بطريقة غير مشروعة ، ولكنها تعم فيما بعد .

وهناك أخطار تبدو ذات طبيعة إقليمية كالتي تحدث بسبب الأمطار الحمضية ، وتلوث مستـودعات المياه الجوفيـة ، وانسكاب كميات كبـيرة من النفط ، ثم تعم كذلك .

وهناك فئة جديدة من المشاكل البيئية ، تؤثر فعلاً ـ من بداية الأمر ـ في النظام البيئي العـالمي ، مثل زيادة كمية الكلـوروفلور في الغلاف الجوي ، الذي زاد في الأربعين عامًا الماضـية بنسبة ٦٠٠٪ ، ومشكلة الاحتـرار العالمي الذي يعد خطرًا استراتيجيًا والذي تسببه زيادة غـاز ثاني أكسيد الكربون ـ وغيره من الجزئيات التي تمتص الحرارة ـ بنسبة ٢٥٪ منذ الحرب العالمية الثـانية ، حيث تشكل هذه الزيادة خطرًا حقيقيًا على التوازن المناخي لكوكب الأرض .

وهناك العمليات التي يتم بـها قطع الغابات ، وتجفيف البحـيرات ، وتحويل الأنهار ، والنفايات ، والتلوث النووي ، وتهديد التنوع الحيوي. . إلخ.

ومن الملاحظ أن كبـار الخبراء والباحـثين قد أدركوا عمق المأسـاة التي تنحدر إليها الأرض في هاوية البيئة .

يقـول باري كومـوز ـ كـما ينـقل عنه الأستـاذ «راشـد الحمـد» و«مـحمـد صباريني»[1] ـ في كتابه الشهير الدوامة :

(أنقذوا الإنسان من الموت المؤكد ، ساهمـوا في مكافحة التلوث ، إن مدينة قبائـل البوشمن في وسط إفريقـيا هي أرقى من مدنية الإنسـان المعاصر في البـيئة المرفهة الأمريكية)[1].

وتقول الدكـتورة «هند صـادق» أستاذة علم طبـقات الجو العلـيا والتلوث في واشنطن: (إن الإنسان القديم كان متفاعـلاً مع الطبيعة ومع كل مظاهر الحياة من حوله. أما ما يفعله أحفاده اليوم ، فهو تدمير كل ما هو جميل ، وخير وطيب ، في هذه الأرض التي نحيا عليها)[2]

ويقول الأسـتاذ الدكتـور «طلبة عـويس» في دراسة له نشرت بـكتاب بعنوان ترجمـته (من أجل الحفـاظ على الأرض) مع الدكتـورة «هند» وآخرين : (إن الإنسان ابن الطبيعة قد طعنها في مقتل) .

وفي الكتاب نفـسه يقول البروفـيسور «أرفنج سبنتـزر» الأستاذ بمعهـد أبحاث المناخ الأمريكي: (إنه في انتظار الإنسان كوارث عـديدة نتيجة ثقب الأوزون، في مقدمتها تحرك حزم الأمطار من مكان لآخر، إلى جانب ارتفاع درجة حرارة الجو، ما بين درجتين وخمس درجـات، وهذا يعني جفافًا وتصحرًا في موجات مـتتالية تقـضي على كل مظاهر الحيـاة في إفـريقيـا، بل إن موجـة الجفـاف وصلت إلى الولايات المتحـدة الأمريكية نفسهـا فانخفض إنتاج القـمح والذرة في وسط غرب أمريكا .

---

(١) انظر كتاب « البيئة ومشكلاتها» للمؤلفين ص ١٩٩ نشر عالم المعرفة بالكويت .
(٢) انظر جريدة الأهرام ٢٣/ ١٢/ ١٩٨٩م .

وانخفض منسوب مياه نهر المسيسبي - أطول نهر في العالم - بمقدار ستة أمتار)[1] .

وتُظهر صور الأقمار الصناعية للمناخ في أوربا الشرقية كتلاً كثيفة سوداء من الغازات والأتربة الصناعية تنتشر فوق مصانع ألمانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا وتغطي بولندا بأكملها .

وفي بولندا بالذات أصاب التسمم كل شيء : الجو والتربة والماء والناس .

وتتعرض أوربا الغربية أيضًا وبخاصة في المناطق السياحية بجبال الألب لأزمة بيئية نتيجة الأمطار الحمضية والتلوث النووي .

وقارة إفريقيا توشك ألا تصلح للحياة بسبب التلوث والجفاف ، وهناك خمسون مليونًا من البشر يعيشون في أراض متصحرة تهددهم المجاعات كل عام وينتشر القحط في إفريقيا بمعدل ٢,٣ مليون متر مربع سنويًا .

وفي الصين كلما هبت الرياح فوق المدن الصناعية انتشر دخان أحمر وأسود ليغطي الأراضي .

وفي البرازيل احترقت ملايين الأفدنة من غابات الأمازون الشهيرة التي تعتبر رئة للكرة الأرضية .

ويقول بعض الباحثين : إنه في العاصمة المصرية - القاهرة - أصبح تنفس الهواء لا يقل خطورة عن تدخين علبتي سجاير يوميًا .[2]

* * *

إن الأرض كلها هي التي تمر اليوم بالمأساة .

---

(١) الأهرام ٢٣/١٢/١٩٨٩م .
(٢) الأهرام ٢٧/٤/١٩٩٠م .

وإن من التعتيم على حجم هذه المأساة أن يتحدث عنها البعض في مستوياتها الأدني ، ويحملوا المسئولية لأقل العوامل أثرًا في تدمير البيئة .

وإن من التعتيم أن يساير الخبراء خضوع الأفراد والجماهير للخدر النفسي الذي أصابهم تجاه هذه القضية ، وبالتالي تجاه أسبابها الرئيسية .

إن حجم المشكلة وصل إلى حد الوصف القرآني لها في قوله تعالى : **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [يونس:٢٤] .

إن التعتيم على مشكلة البيئة يجري على قدم وساق حتى في أكثر البلاد ديموقراطية وانفتاحًا في وسائل الإعلام .

لحساب من يجري هذا التعتيم ؟

لحساب إشاعة جو من التفاؤل بدلاً من اليأس ؟

نتفاءل ؟ نعم . ويجب أن نتفاءل ؟ نعم .

ولكن يجب أن يكون تفاؤلنا صحيًا وغير ملوث أيضًا .

أي يجب أن يكون مبنيًا على الحقائق ، أما إذا بني على الأكاذيب ، أو حجب الحقائق فإنه سرعان ما ينهار ويأتي بأوخم العواقب .

إننا نتفاءل ولكن من خلال الحقائق ، ولو ذهبنا إلى التفاؤل بعد خوض أقصي حالات اليأس ، فاليأس حر في بعض الأحيان ، وحافة اليأس يمكن أن تلامس عند النهاية حافة التفاؤل ، إذا ما ارتبط التفاؤل بالرجوع إليه سبحانه **﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾**[يوسف: ٨٧] .

● تفصيل الحقائق عن مأساة البيئة :

فيما يلي صورة مفصلة عن الأخطار التي تهدد البيئة ، تساعد على تصور

حجم المشكلة ، نعتمد في إبرازها على دراسة عالمية حديثة لهذه القضية ، جاءت في كتاب (الأرض في الميزان ، الأيكولوجيا وروح الإنسان) لآل جور ، نائب رئيس الولايات المتحدة ، قام بها فريق كبير من الخبراء والباحثين بقيادته ، وترجمت إلى اللغة العربية ، وأصدرها مركز النشر والترجمة في الأهرام بالقاهرة عام ١٩٩٤م .

(١) **مشكلة القمامة** : وهي تتمثل في تيار عارم من القمامة يتدفق بكميات هائلة لم تعد الأرض قادرة على استيعابه كما يؤكد خبراء البيئة .

ويكفي أن نتأمل مثالاً لذلك فيما يسببه نمط الاستهلاك في العالم المتحضر ، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية .

فمن الفضلات الصلبة التي تفرزها المدن الحديثة هناك يتم توليد ما يزيد على طن واحد لكل شخص في الولايات المتحدة الأمريكية كل عام .

ثم هناك الفضلات الصلبة التي تنتجها المصانع ، وهي تتم بمعدل طن أسبوعيًا لكل فرد في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك الفضلات الغازية المستمرة في الانبعاث إلى الغلاف الجوي، والذي يتم بمعدل عشرين طنًا سنويًا من ثاني أكسيد الكربون لكل شخص في أمريكا .

والمحصلة النهائية لحجم الفضلات في هذه الأنواع الثلاثة تشير إلى أن كل شخص في الولايات المتحدة الأمريكية ينتج من الفضلات يوميًا ما يزيد على ضعف وزنه .

ويواجه الإنسان المعاصر هذه المشكلة بقدر كبير من خداع النفس ، حيث يفترض خطأ أن المواد التي تستهلك تختفي آثارها بمجرد استخدامها ، بينما الحقيقة أنها تتحول إلى فضلات في نهاية الأمر .

وتتضاعف المشكلة في ظل القيم الحضارية التي تفترض أن معدلات الاستهلاك العالية هي العلامة المميزة للمجتمع المتقدم .

ومن هنا فإن شهية الحضارة المعاصرة تنفتح لالتهام كميات هائلة من الأشجار والفحم والبترول والمعادن وآلاف المواد التي تنتزع من أماكنها ، ثم تقوم بتحويلها إلى منتجات من كل شكل ولون ، وإلى سلاسل جبال هائلة من الفضلات .

وبالمعدل الحالي فإن الإنتاج العالمي من المواد الكيمائية التي يستهلكها العالم المتحضر يتضاعف الآن في الحجم كل سبع سنوات .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية وحدها يوجد ما يقدر بنحو ٦٥٠ ألف مصدر تجاري وصناعي للفضلات «الخيرة» كما يتم إنتاج كميات هائلة من ملوثات المعادن مثل : الرصاص والزئبق والنفايات النووية .

ويعتبر الخبراء أن حجم القمامة في الولايات المتحدة أصبح كبيرًا لدرجة أنهم لا يجدون مكانًا يضعونها فيه ، وأن تراكم القمامة أصبح خارجًا عن السيطرة تمامًا لدرجة أن الولايات المتحدة بدأت فعلاً في شحنها إلى البلاد الأكثر فقرًا ، خارج الحدود القومية ، الأمر الذي دعا أحد زعماء إفريقيا إلى إعلان استنكاره لما سماه إمبريالية القمامة ، وهو استنكار يشاركه فيه زعماء آخرون من أعضاء منظمة الوحدة الإفريقية [١] . وحيث أصبح ينظر الآن إلى إفريقيا باعتبارها المضيفة الرئيسية للمواد السامة [٢].

وإذا كان البعض يحاول التخلص من القمامة بحرقها ـ حيث توجهت استثمارات ضخمة إلى هذا السبيل بلغت حوالي عشرين مليار دولار في وقت من الأوقات ـ فإن بعض الخبراء ينظر إلى هذه الوسيلة على أنها غير مجدية وتزيد الطين بلة ، فطبقًا لفريق البحث التابع للكونجرس فإن تلوث الهواء الناتج عن أفران حرق القمامة ، يحتوي على غازات وملوثات أكثر خطرًا ، مثل الزرنيخ والكوبالت ، والرصاص ، والزئبق ، وأنه إذا ما استمرت عمليات حرق الفضلات فإن كمية الزئبق المتصاعد عن هذا الطريق تضيف ملايين الأرطال من

(١) انظر جريدة الأهرام ٢/١١/١٩٨٨م .
(٢) جريدة الاتحاد ٣/ ١٠/ ١٩٨٨م .

الزئبق إلى النظام البيئي ، وكما هو معروف فإن الزئبق لا يتحلل في البيئة، ولكنه يتراكم ويتركز بكميات متزايدة في الحيوانات ، ومنها الأسماك التي يتم صيدها في البحيرات والأنهار ، والنتيجة النهائية المترتبة على حرق الفضلات هي تحويلها إلى صورة غازية تنتقل عبر الهواء إلى المجتمعات المجاورة حيث تسافر عبر حدود الدول ، ثم تصل بالضرورة إلى الغلاف الجوي لكوكب الأرض بأسره .

هذا وبينما عمليات الحرق تصدر إلى الجو ٩٠٪ من حجم الفضلات فإن الحجم الباقي وقدره ١٠٪ يكون في صورة رماد عالي السمية ، أكثر خطورة من كمية الفضلات الأكبر حجمًا قبل الحرق .

أما أسلوب « إعادة التدوير» أي إدخال الفضلات في عجلة الإنتاج مرة أخري فإن كثيرًا من الخبراء وجدوا أن المنتجات التي تصنع عن هذا الطريق ، لا تجد الإقبال من المشترين ، فضلاً عن أن بعضها لا يقبل هذه المعالجة ، وإذًا فإن إعادة التدوير تظل أقل كثيرًا من عمليات الحرق في الأفران (١) .

(٢) **تلوث الهواء** : يقول بعض خبراء البيئة : إن أوصال العالم ترتعد فزعًا من مستويات التلوث التي لا يصدقها عقل ، وبالذات تلوث الهواء على مستوي العالم كله .

وعلى سبيل المثال فإنه في بعض المناطق في بولندا يؤخذ الأطفال بصفة منتظمة إلى مناجم عميقة تحت الأرض لمدة من الوقت يريحون فيها صدورهم من الغازات المتراكمة ، والتلوث الذي يملأ الهواء بكل أنواعه .

ولقد لاحظ زائر لأحد المدن الرومانية تسمي (كوسباميكا) أو (المدينة السوداء): أن الأشجار والحشائش ملطخة بالدخان إلى حد أنها بدت كأنها مشربة بالمداد .

وذكر أحد الأطباء المحليين هناك أنه حتى الخيول لا تستطيع البقاء في تلك المدينة لأكثر من عامين ، وبعد ذلك لا بد من أخذها بعيدًا وإلا لقيت حتفها .

---

(١) انظر كتاب (الأرض في الميزان) لنائب الرئيس الأمريكى « آل جور» ترجمة د . عواطف عبد الجليل من ص ١٤٩ إلى ص ١٧١ .

وبين الأطراف الشمالية من تشيكوسلوفاكيا فإن الهواء ملوث بدرجة خطيرة حتى إن الحكومة تدفع فعلاً حوافز مادية لمن يواصل العيش هناك لأكثر من عشر سنوات. ويقول عن تلك الأموال إنها « تكاليف الدفن» وفي أوكرانيا فإن القدر الذي تضيفه الصناعة من الجسيمات الدقيقة العالقة في الهواء يعادل ثمانية أمثال ما تضيفه الولايات المتحدة الأمريكية بكاملها .

وتعاني مدينة مكسيكوسيتي يوميًا من أقسي درجات التلوث الهوائي على مستوي مدن العالم بأسره، وعندما تستعمل المداخن العالية في تلك البلاد لتقليل تلوث الهواء على المستوي المحلي فإنها تساعد على تفاقم المشكلة على المستوي الإقليمي، حيث يتمثل ذلك فيما يسمي الأمطار الحمضية عالميًا الأمر الذي يؤكد أن تلوث الهواء يصل من شمال أوروبا إلى المنطقة القطبية وينتقل إلى كل بقعة في الأرض[1] .

(٣) ثقب الأوزون: إن غار الأوزون وهو يدخل كطبقة هامة في تركيب الغلاف الجوي للأرض يعمل على حماية سطح الأرض من سقوط الكميات الضارة للأشعة ذات الموجة القصيرة (فوق البنفسجية) .

ومن الملاحظ أن هذه الطبقة من الأوزون أخذت تتآكل بسبب تصاعد غاز الكولوروفلور وكربون الذي يتزايد إنتاجه بكميات هائلة في الصناعات الحديثة .

ومن هنا فإن هذا التآكل أخذ يسمح لمزيد من الأشعة فوق البنفسجية بأن ترتطم بسطح الأرض ، وتصطدم بكل الأحياء، ومن بينها أنواع كبيرة من النباتات التي تستهلك كميات هائلة من غاز ثاني أكسيد الكربون، الذي أخذ يتزايد هو أيضًا ، مما يهدد بمشكلة كبري نتحدث عنها فيما بعد هي مشكلة الاحترار ، وقد أخذ الإنسان يتأثر هو أيضًا بالزيادة في الأشعة فوق البنفسجية .

ومن أسوأ العواقب المترتبة على تلك الزيادة : سرطان الجلد ، ومرض اعتمام عدسة العين (الكاتاراكت) وكلا المرضين يزدادان انتشارًا ، وبالذات في مناطق

---

(١) الأرض في الميزان لآل جور ص ٨٥ ـ ٨٧ .

بنصف الكرة الجنوبي مثل أستراليا ونيـوزيلندا ، وجنوب أفريقيا ، وفي كوينزلاند بشمال شرق أسـتراليا ـ على سبيل المثـال ـ فإن أكثر من ٧٥٪ من السكان الذين بلغوا الخامسة والستين من العمر مصابون الآن بنوع من سرطان الجلد .

والأطفال مطالبون هناك بحكم القانون بأن يرتدوا قبعـات كبيرة ووشاحًا حول العنق خـلال ذهابهم للمـدرسـة والعودة منهـا ، لتـحـميـهم من الأشـعة فـوق البنفسـجية، وفي إقليم بتاجـونيا يقول الصـيادون إنهم يعثرون على أرانب فـاقدة البصر ، وأسماك عمياء .

وبالنسبـة للإنسان فإن زيادة مـعدلات الأشعـة فوق البنفسـجية ـ وبالإضـافة لأمراض الجلد والـعيون ـ تشبط جهـاز المناعة وتعـجل بظهور الأمـراض الجديدة المتعلقة بهذا الجهاز (١) ، ومنذ اكتشاف ثقب الأوزون وهو يزداد عـمقًا واتساعًا ، وهـــو يغطي حاليًا في الغـلاف الجوي مساحة تعادل ثلاثة أمثـال مساحة الولايات المتحدة الأمريكية .

(٤) **نقص التأكسد** : وذلك أنه في الظروف العادية ينظف الـغلاف الجوي نفســه ـ بسنة الله في الطبيعـة ـ من الملوثات من خلال عمليـة تعرف بالتأكـسد ، حيث تتفـاعل المواد والغازات الضارة مثل الميثان وأول أكـسيد الكربون مع منظف طبيعي إلهي يـعرف باسم الهيدروكسـيل ، واليوم في ظل الحضارة الصناعـية فإن الإنسان يدفع بكمـيات هائلة من غاز أول أكسـيد الكربون في الطبقـات العليا من الجو ـ من خلال عمليـات حرق الوقود وحرق الغابات ـ لدرجة أن حـجمه أصبح طاغيًا بالقـياس إلى الكمية المتـاحة في الطبيعـة من الهيدروكسيـل ، وبهذا تتزايد كميات أول أكسيد الكربون وغاز الميثـان في الغلاف الجوي بسرعة كبيرة ، وأصبح له دوره الفعـال بين الغازات الأخري المسـببة لظاهرة الاحـترار ، وهنا يأتي الخطر الإستراتيجي العالمي ، ألا وهو ظاهرة الاحترار وهو الأشد خطورة على الإطلاق، على مستوي الكرة الأرضية كلها .

---

(١) الأرض في الميزان ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٥) ولب المشكلة في ظاهرة الاحترار هو أن الحضارة الحديثة - طبقًا لخطوات التقدم الصناعي - تضيف إلى الغـلاف الجـوي العـديد من الغازات التي تجعل الغلاف الجوي أكثر سُمكًا بدرجة كبيرة ونتيجة لذلك فإنه يحتجز المزيد من الحرارة التي كـان من المفـروض - في ظل موازين اللـه - أن تخرج من جـو الأرض في الأحوال العادية السابقة .

في السـابق كـانت تحـدث تغـيرات فـي حرارة الأرض علـى مدى عـصـور جيولوجيـة طويلة ، فعلى سبيل المثال كان مـا يعرف الآن بمدينة نيويورك يقع في العصور الجليدية تحت ارتفـاع كيلو متر كامل من الجليد ، كانت هذه الـتـغييرات تحدث بحكمة الله وعنايته وقدرته ورعايته على مدى آلاف السنين .

أما التغيرات التي يتوقعها الخبراء بفعل الإنسان المعاصر فإنها من المنتظر أن تحدث خلال عمر فرد واحد، ومعني هذا أنه عندما كانت التغيرات تحدث بسنة الله، ودون تدخل الإنسان، كانت الفرصة متـاحة للإنسان للتكيف، ولكنه لم يحدث في تاريخ الإنسان أن اضطر للتكيف مع تغيرات هائلة في عمر جيل واحد .

إن الإنسان منذ بداية الثورة الصناعـية ينتج كميات متـزايدة من ثاني أُكـسيد الكربون ويدفعه إلى الغـلاف الجوي ، حيث ارتفعت نسبـته في الجو من : ٣٠٠ جزء من المليون فـي تاريخ الأرض سابقًا إلى ٦٠٠ في المليون منذ الحـرب العالمية الثانية إلى اليوم ، وسوف تتضاعف هذه النسـبة كما يتوقع الخبراء . . . إذا سارت الأمور على مـا هي عليه خـلال أقل من الخمـسين عامًـا القادمة . وذلـك بسبب عمليات الاحـتراق في الفحم والبترول والغـاز الطبيعي والبنزين والتدمـير السريع للغابات[١] ، ومن المؤكد أن هذه الزيادة في مستويات ثاني أكسيد الكربون ــ الذي سيظل محبوسًا في الغلاف الجوي للأرض ــ تؤدي إلى زيادة ملحوظة في مستوي الحرارة للكرة الأرضية .

(١) الأرض في الميزان لآل جور صــ ٩٥ ــ ٩٧ .

والخطر هنا لا يكمن في ارتفـاع درجة الحـرارة بضع درجـات قليلة ، ولكنه يكمن في أن هذا الارتفـاع سوف يؤدي إلى الإطاحـة بالنظام المناخي للعـالم كله دفعة واحدة .

لقد تعودنا أن نتقبل الطقس كحقيـقة قدرية ، ولكن من هذه الحقيقة أيضًا أن المناخ يؤدي وظيـفتـه في إطار حالة مـن التوازن الإلهي على مـسـتـوي الفصـول والأقاليم .

وهنا يأتي الاحـترار العالمي الذي يتـسبب فـيه الإنسان المعـاصر ليـحمل من المخاطر مـا يفوق كثيـرًا إضافة درجات قـلية لمتوسط درجات الحـرارة ، إنه يهدد بتدمير التوازن المناخي الذي عرفته الإنسانية من قبل .

وعندما يتغير النمط المناخي للعالم فإنه ستتغير أيضًا تحركات الرياح والأمطار، ونوبات الفيضان، والجفاف والمراعي والصحـاري والحشرات والحشائش ، وفصول الرخاء والمجاعة ، ومواسم الحرب والسلام .

والخطر الذي يتـرتب على اختـلال النظام المائي على ظهر الأرض لا يـتوقف على الاضطراب الشـديد في إعادة توزيع الموارد المائيـة العذبة ، وإنما يتـعداه إلى خطر استراتيجي ثان : هو ذوبان الجليد ، ومن ثم ارتفـاع مستوي سطح البحر ، وغـرق المناطق السـاحليـة الـواطئـة حول الـعـالم كله ، وهذا يهـدد دولاً مـثل بنجلاديش، والهند ، ومصر ، وجامبيا ، وإندونيـسيا ، وموزمبيق ، وباكستان ، والسنغال ، وتايلاند ، والصين ، وجزر المالديف ، وهولندا ، وبلجيكا ، وسوف تكون الدول الفقيـرة بالطبع هي الأكثر تضررًا ، لأنها الأضـعف من حيث القدرة على مواجهة هذه الأخطار[1] .

(٦) **اقتـلاع الغابات** : وهناك خطر اسـتراتيجي يمارسـه الإنسان المعـاصر ، ويهدد النظام المائي لكوكب الأرض .

---

(١) الأرض في الميزان لآل جور صـ ١٠٢ وما بعدها .

وهو يختص باقتلاع الغابات على نطاق واسع ، حيث إن تدمير غابة يمكنه أن يؤثر في النظام الطبيعي لتوزيع المياه بما يمثل اختفاء بحر كبير مغلق .

ونجد مثالاً مأساويًا بذلك في أثيوبيا ـ لفقدان الغابات ثم فقدان المياه ، فقد تقلصت مساحة الأراضي التي كانت تغطيها الغابات في أثيوبيا من ٤٠٪ إلى ١٪ خلال الأربعين سنة الماضية ، وبالتوازي مع ذلك تراجعت كميات الأمطار المتساقطة ، إلى درجة جعلت الأراضي ، تتحول بسرعة إلى أرض بور ، ثم دخلت البلاد بعد ذلك - مع تضافر أسباب أخرى - في مأساة المجاعة والحرب الأهلية ، وفي جنوب أمريكا هناك خطر مماثل ، بسبب تدمير الغابات[١] .

(٧) ويتعرض النظام المائي العالمي لخطر آخر بسبب تلوث مصادر المياه على مستوي العالم بالملوثات الكيماوية التي تنتجها الحضارة المعاصرة، ويأتي انسكاب البترول كواحد من أكثر الملوثات وضوحًا في المحيطات ، وفي بعض الأنهار الداخلية .

وهل سمعتم من قبل عن أنهار تشتعل فيها النيران ؟ لقد حدث ذلك في نهر كياهوجا في ولاية كليفلاند ، وفي الاتحاد السوفيتي فإن الأنهار - كما يقول آل جور - ما زالت يمكن أن تشتعل فيها النيران .

وقد حدث في شهر يوليو عام ١٩٨٩ عندما كان أحد عمال الزراعة في أوكرانيا يسير بجوار نهر فورين ، وهو يجمع نبات عيش الغراب أن ألقي بعقب سيجارة في مياه النهر ، فما لبث النهر أن أحدث فرقعة شديدة ، واشتعلت فيه النار لمدة خمس ساعات بسبب البترول الذي كان قد سكب عليه مؤخراً .

وبصفة عامة ، فإن تلوث مصادر مياه كوكب الأرض آخذ في الزيادة بصفة مستمرة ، ويزداد سوءًا بصورة مفزعة ، وطبقًا لعملية مسح قامت بها وكالة متخصصة في حماية البيئة فإن حوالي نصف أنهار وبحيرات وجداول أمريكا إما أنه يعاني بالفعل من تلوث مياهه أو في طريقه إلى ذلك .

---

(١) الأرض في الميزان صـ ١١٠ .

ومع ذلك فإن تلوث المياه وتأثيراته الرهيبة المؤلمة يمكن الإحساس بها بوجه خاص في العالم الثالث ، حيث زاد معدل الوفيات الناتج عن الإصابة بالكوليرا والتيفود والدوسنتاريا والإسهال .

وإن ما يزيد عن ١,٧ مليار نسمة ليس لديهم مورد كاف من مياه الشرب الآمنة النظيفة ، وأكثر من ثلاثة مليارات نسمة لا تتوافر لهم وسائل الصرف الصحي المناسب ، وإن الأمراض التي تحملها المياه تتسبب في المتوسط في وفاة ٢٥ ألف شخص يوميًا في العالم الثالث(١) .

(٨) **سوق النفايات** : تتمركز سياسة الدول الغربية والأوربية - كما يقول مسئول بمنظمة الصحة العالمية - حول إدراك سياسي واقتصادي بأن العالم الثالث هو سوق كبير للنفايات الأوربية التكنولوجية ، الملوثة والمدمرة للبيئة ولبيع المبيدات والبذور الفاسدة المؤثرة على صلاحية التربة الزراعية ، وإجراء التجارب على البشر والزراعة ، فضلاً عن الأغذية الفاسدة والأدوية التي تجعل من البشر في العالم الثالث حقلاً لتجاربها ، وقد أعلن في تقارير رسمية نشرتها الصحف في أمريكا أن لديها ٢٦٥ مليون طن من هذه النفايات سنويًا تحتاج إلى التخلص منها ، وأن مجموعة دول السوق الأوربية لديها سنويًا ٣٥ مليون طن سنويًا .

ويقول بعض المعلقين: إن تجارة النفايات الكيمائية أصبحت كبيرة جدًا، وتعمل فيها شبكة من المافيا والسماسرة والمهربين .

حتى فيما يتعلق بالسجاير ، فإن دول المجموعة الأوربية تقوم بالتخلص من التبغ الثقيل الذي يحتوي على نسبة عالية من النيكوتين عن طريق تصديره إلى العالم الثالث بأسعار رخيصة .

وابتداء من عام ١٩٩٣م تتضاعف صادرات المجموعة ثلاث مرات بعد تطبيق القوانين الجديدة التي تحد من كمية النيكوتين في السجاير المباعة في أوربا ، وذلك

(١) الأرض في الميزان ١١٣ ـ ١١٤ .

بعد ارتفاع معـدل وفيات المدخنين للتبغ بدرجة تهدد الصحـة العامة للمواطنين في هذه الدول[1] .

(٩) **احـتمـالات الكوارث النووية**: مـا الذي يمكن أن تحدثه حـرب ذرية في البيـئة؟ سـؤال طرحتـه منظمة الأمم المتـحدة على عـشرة من كـبار علماء الـعالم واسـتغـرقت الدراسة حـوالي عام كـامل، وتم تسليـمهـا إلى «بيريزدي كـويلار» السكرتير العام للأمم المتـحدة آنذاك: وقد قدمنا نتائج هذه الدراسة فـي الصفحات السابقة [2].

● **منشأ الكارثة :**

ذلكم تلخيص موجز عن حجم المشكلة التي تهـدد البيئة على مستوي الأرض كلها . . والحق أننا ونحن نتحدث عن مشكلة الأرض والإنسان في العصر الحديث على هذا النحـو ، يجب أن نعلم أننا نتحدث عن نـوع «جديد» من الإنسان غـير الذي يعـرف على وجه التـاريخ الإنسانـي من قبل ، كـذلك ونحن نتحـدث عن وضعية الأرض فإننا نتحدث عن وضعية غير التي عرفها الإنسان على وجه التاريخ الطبيعي من قبل ، فالإنسان الجـديد هو نوع جديد لم يعد يشرك بالله آلهة أخري تنتسب إلى كائنات علوية ، أو سـفلية مجردة أو غير مجـردة ، يحصل عليها من مصدر الحكايات والأسـاطير والأصنام ، أو التراث الشعـبي ، ولكنه أصبح يضع نفسه ــ حسب زعمه ــ في مـوضع الألـوهية مـنذ أمـكنـه ــ حسب وهمه ــ أن يسيطر على الطبيعة بأداة العلم ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد:١٦] .

كـذلك فالأرض ليـست هي الأرض الموكـول أمرها إلى قـدرة الله وعـنايتـه ورحمته ومـوازنته ، ولكنها الأرض المتروكة بسـخط الله ــ وإلى أمد ــ إلى قدرة

---

(١) انظر جريدة الأهرام صـ ٧ في ١٧/٩/١٩٨٨م ، ونفس الجريدة في ٢٦/٥/ ١٩٩٠ م .
(٢) انظر هذا الموضوع في هذا الكتاب .

الإنسان في السيطرة على الطبيعة حسب زعم هذه الحضارة منذ وضع الإنسان أركانها في عصر النهضة .

إن الصانع لمأساة البيئة - مأساة الأرض- هو وجهة النظر الفلسفية التي قامت عليها الحضارة المعاصرة .

يقرر «أرنولد توينبى»: (أن وجود الإنسان يهدد الآن صلاحية المحيط الحيوي للعيش فيه لكل أشكال الحياة بما في ذلك الحياة البشرية نفسها)(١).

ويقول: (في حداثتي ـ أنا مولود سنة ١٨٨٩م) كان يعتبر من الوهم أن يتخيل المرء أن الإنسان قد يملك من القدرة ما يمكنه من تلويث كل الجو المغلف للمحيط الحيوي. . . وفي حقيقة الأمر فإن البشرية كانت إلى الربع الثالث من القرن العشرين الميلادي تقلل من أهمية التزايد الحديث في قدرتها على التأثير على المحيط الحيوي ، وقد نتج هذا التزايد من تحولين جديدين :

أولهما: متابعة البحث العلمي المنظم الهادف وتطبيق هذا على تقدم التكنولوجيا.

وثانيهما : تسخير الطاقة الطبيعية الموجودة في المحيط الحيوي لخدمة الأغراض البشرية) .

ثم يتحدث عن خطر هذا التحول في المحيط البشري فيقول : (هذا النجاح المنذر بالشر للتكنولوجيا العلمية البشرية ، إضافة إلى النتائج الأصغر للإنجازات السابقة التي قامت بها الثورة الصناعية هي التي تهدد بجعل المحيط الحيوي مكانًا غير صالح للعيش)(٢) .

وهو يقول: (في عصرنا نجد أن سيادة الإنسان التامة على المحيط الحيوي

---

(١) تاريخ البشرية صـ ٢٦ جـ ١ ، ترجمة « نيقولا زيادة» .
(٢) المصدر السابق صـ ٢٨ ، ٢٩ .

بأكمله تهدد بإحباط نوايا الإنسان ، وذلك بتحطيم المحيط الحيوي والقضاء على الحياة بما في ذلك الحياة البشرية كلها) (١) .

يذكرنا «أرنولد توينبي» بوجود هذا التوجه ـ السيطرة على الطبيعة ـ في الثقافة اليهودية القديمة ، في العدد الثامن والعشرين من الإصحاح الأول من سفر التكوين القائل : « وباركهم الله ، وقال لهم أثمروا وأكثروا واملئوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى كل حيوان يدب على الأرض»(٢).

ثم يشير إلى مخالفة هذا التوجه لما جاء في ثقافات أخري إذ يحكي على لسان تاوتي تشينج قوله : (كلما ازدادت الأسلحة الحادة تزداد الأرض كلها انغماسًا في الظلام ، وكلما ازداد عدد الصناع الحاذقين تزداد الآلات المتلفة التي تخترع ، وكلما ازدادت القوانين التي تشرع يزداد عدد اللصوص وقطاع الطرق .

شد القوس إلى النهاية وستتمني لو أنك توقفت في الوقت المناسب .

وإنه مع وجود آلات مع الناس تقتضي عملاً عشر مرات أو مائة مرة فإنهم لن يستعملوها (٣) .

وقد يكون هناك بعد قوارب وعربات ، ولكن أحدًا لن يدخلها ، وقد يكون هناك أسلحة للقتال ، ولكن لن يتدرب عليها أحد)(٤) .

ويتفق «آل جور »- وهو أحد كبار القيادات المسئولة في هذه الحضارة- مع التحليل الذي وصل إليه «أرنولد تويني» للمشكلة يقول «آل جور» :

(إن الثقافة الغربية المعاصرة تقوم على افتراضات متعلقة بالحياة ، يتم تلقينها للأطفال، ألا وهي : إن الطبيعة يتعين إخضاعها) .

---

(١) المصدر السابق صـ ٣١ .
(٢) تاريخ البشرية صـ ٣٠ ، جـ ١ .
(٣) من الذي سيستعمل الف قناة تليفزيونية يتيحها له جهاز واحد ؟ !
(٤) المصدر السابق صـ ٣٠ ، جـ ١ .

(وهي افتراضات انتقلت من جيل إلى جيل ، منذ زمن «ديكارت» و«بيكون» وروّاد الثورة العلميــة الآخرين ، أي منذ ٣٧٥ عامًا مضت ، وقد اسـتوعبت هذه الحضارة تلك القواعـد ، وتعايشت معها قرونًا دون أن يراجعـها أحد بجدية) ، وهو يربط بين هذه العقيدة الحضارية وبين أزمة البيئة المعاصرة ، ثم يقول :

(إن الأزمة البيـئية بلغت اليوم حـدًا من الخطورة يجعلنا نعتقـد أن حضارتنا يجب أن تعتـبر بطريقة أسـاسية مخـتلة الوظائف، وأن إحدي القواعـد التي تقوم عليـها الحـضارة مـختلة الوظائف هي أنك لا يمكنك مـراجعـة هذه القـواعد أو مناقشتها) .

كـأنه يتطابق في ذلك مع قـوله تبارك وتعـالى: **﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾** [البقرة: ٧].

ثم يقول شرحًـا لهذا الختم : (إن رجال البوليس والأطـباء ، وعلماء النفس يعجبون كثـيرًا كيف يستطيع أي شخص أن يصم أذنيه فلا يسـمع صرخات القتيل الذي يذبحه ، ولا يرى أحزان الطـفل الذي يعتدي عليه ، وكيف يخـدر حواسه فلا يشعر بالآلام الشنعاء . . . ؟

إننا نعـرف الآن الإجابة عـلى هذه الأسئلة : ذلك أن هـناك نوعًا من الخـدر النفسي الناتج عن تكيف الأشخاص البالغين مع النمط مختل الوظائف الذي شبوا عليـه ، إن حضارتـنا مختـلة الوظائف قد طورت نوعًـا من الخدر ، ليـمنعنا من الشعـور بالألم نتيجـة أفعالنا ، إن حـضارتنا تستطيع أن تتـغير ، وينبـغي لها أن تفعل، بأن تواجه القواعد المسلمة غير المدونة ، التي تدفعنا لتدمير الأرض) .

ثم يقول في تشخيص أمراض الحضـارة التي أدت إلى أمراض هذه الـبيئة - يقول فيما يعتبر مصداقًا لقوله ﷺ عن الكافر أنه يأكل في سبعة أمعاء: **«المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء »**[1] .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

يقول : (كل جيل جديد في حضارتنا المعاصرة يشعر الآن بالاعتماد الكامل على تلك الحضارة نفسها . ذلك أن حضارتنا هي التي تزودنا بأنواع الطعام فوق أرفف السوبر ماركت، والماء المتدفق من الصنابير داخل بيوتنا والمأوى، والمأكل، والملبس، والعمل، ووسائل التسلية . . . إن أحدًا لا يجرؤ على مجرد التفكير في حرمان أنفسنا من هذه العطايا الكثيرة (١)) وهي وإن كانت أمعاءً سبعة ، إلا أنها أمعاء زائفة، يقول: (إننا شيدنا في حضارتنا عالمًا زائفًا من الزهور البلاستيكية وحلبات السباق الفلكية، وأجهزة التكييف، وأنوار الفلورسنت ، والنوافذ الشكلية التي لا تفتح ، والموسيقي الخلفية التي لا تتوقف ، والليالي الوهاجة بالبريق ، ومواخير التسلية وأوكارها، والطعام المجمد لأفران المكروييف ، والقدرات الذهنية التي تعتمد على الكافيين ، والكحول ، والمخدرات ، والأوهام والخيالات. . .

إن العديد من القواعد غير المدونة لحضارتنا مختلة الوظائف يشجع على الإذعان الصامت فيما يختص بأنماط السلوك المدمر التي نتعامل بها مع عالم الطبيعة(٢) ، ثم يقول : (إن المرء يكاد يصيبه الهلع من جراء اندفاعنا المسعور والقسري الواضح ، لكي نفرض سيطرتنا على كل بقعة فوق ظهر الأرض) ودائمًا فإن حاجات الحضارة التي لا يتم إشباعها تزيد نيران العدوان اشتعالاً ، والوصول إلى إشباع حقيقي لهذه الحاجات هو أمر بعيد المنال تمامًا) . ثم يقول فيما يعتبر مصداقًا لحديث الرسول ﷺ عن جماعة ركبوا سفينة ،أراد من في أسفلها أن يخرقوا خرقا ليأخذوا منه الماء « **فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على يدهم نجوا جميعًا** »(٣).

يقول «آل جور»: (إن الأراضي التي يتم غزوها - يقصد بالتكنولوجيا الحديثة- لا تلبث أن تصبح أرضًا جدباء خربة، وقد انتزعت منها خصوبتها،

(١) الأرض في الميزان صـ ٢٣٣ .
(٢) الأرض في الميزان صـ ٢٣٤ .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده

وسلبت مواردها الطبيعـية ، واستهلكت على وجه السرعـة ، وكل هذا التدمير لا يؤدي إلى شيء سوى إذكاء شهيتنا للمزيد ، إننا نقوم بشكل منتظم بالاعتداء على أكثر مناطق عالم الطبيعة تعرضًا للخطر وأقلها قدرة على الدفاع عن نفسها : تلك هي الأرض المطيـرة والمحيطات) ثم يقـول: (ونحن أيضًـا نعتـدي على أعضـاء آخرين من الأسـرة الإنسانية ، وبخـاصة أولئك الذين لا يستطيـعون التعبـير عن أنفسهم ، لقـد سمحنا بسرقة الأرض من السكان الأصليين ، وباسـتغلال المناطق التي يسكنها أشد الناس فقرًا .

والأسوأ من ذلك كله أننا قمنا بالعدوان على حـقوق الأجيال التي سوف تأتي بعدنا ، **فعندما نقوم بتجريف الأرض بمعدلات تفـوق قدرتها على الاحتمال تمامًا فإننا نجعل من المستحيل على أحفادنا أن ينعموا حتى بمستوى معيشة يقل كثيرًا عما ننعم به نحن . إننا الآن نفرض نموذجنا مختل الوظائف وإيقاعنا المتنافر على أجيال المستقبل ، وذلك بطريقة فاسدة** [1] .

الحل الغـربي للمأسـاة : من الغريـب أن بعض المفكرين والمخططين من أبناء الحضارة الغربية المعاصرة يدعون إلى علاج الكارثة عنصريًا فيقترح بعضهم :

١- تبني مسلسل « الكوارث المحسـوبة» بالنسبة للبيئـات الخاصة بالسكان بلا إنتاج (!!) ، يعنون بذلك « العالم الثالث» .

٢ - أو دفع هذا العالم - بالذات - إلى تحديد النسل بكل الوسائل والسبل.

٣ - أو تشجيع الحروب المحلية في العالم المذكور .

٤- أو بتعميم الجفاف على أرضه وفق تخطيط معين .

٥- أو بنشر التلوث المقنن فيه[2] .

---

(١) الأرض في الميزان لآل جور صـ ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر « نهاية عمالقة » للأستاذ الدكتور / رشدي فكار صـ ١٣١ .

وهناك فـئة من العلمـاء تكتسب أهمـية يـومًا بعـد يوم يطلق عليهم علـماء «الأيكولوجيا العميقة» يبنون تصـورهم للحل على أساس نظرتهم للإنسان باعتباره نوعًا من أنواع الفيروس ، أصاب الأرض بالطفـح الجلدي والحمى ، وينسبون إليه القيام بدور سـرطان يهدد الكرة الأرضية وينتـشر فيها على نحـو لا يمكن التحكم فيـه، واستـمرارًا لهـذه الرؤية فإن العلاج المـمكن الوحيد لأمـراض الأرض التي أصابتها هي (استئصال الناس من على وجه الأرض)

باستثناء فـئة محدودة ينتسبـون هم إليها ، باعتبـار أنهم يقومون عندئذ بدور الأجسام المضادة للحد من انتشار المرض[١] .

وهناك فئة أخري تشير إلى أن البداية الصحيحة تأتي من خلال تغيير النفس ، ومن ثم تغيير القواعد التي بُنيت عليها هذه الحضارة المعاصرة .

يقول «أرنولد توينبي»: (يظهـر أن الإنسان لن يستطيع إنقاذ نفـسه من الدمار الذي تسببه قوته المادية وطمعه الشيطانيان ما لم يسمح لنفسه بأن تتغير نفسه كليًا، بحيث يحفزه ذلك إلى أن يتخلي عن غايته الحالية ، ويعتنق المثل الأعلى المخالف لذلك تمامًا . . . . فهل باستطاعته أن يقبل . . ؟؟

إن المناظرة حول هذه القضـية التي طال عليها الزمن والتي يبـدو وكأنها تكاد تبلغ نهاية تصـعيدها في يومنا هذا هي الموضوع الذي يتناوله التـأريخ للصدام بين البشرية والأرض الأم . . .) [٢] .

إنه في نظر كثير من الخبراء والباحثين لا أمل في مواجـهة كارثة البيئة المتفاقمة ما لم يُعدل الإنسانُ من سلوكه بالنسبة للأرض، وجهاز الضبط الحراري[٣] الوحيد القـادر على منع هذه الكارثة ، كـما يقـول ــ آل جـور نائب رئيس جـمهـورية

(١) الأرض في الميزان صـ ٢١٩ ــ ٢٢٠ ، وهم بذلك يدفعون منطق التطور إلى نتائجه الحقيقية .
(٢) تاريخ البشرية صـ ٣٢ جـ ١ .
(٣) « الترموستات» .

الولايات المتحدة الأمريكية ـ هو ما يكون في داخل رءوسنا وقلوبنا وعقيدتنا [١] يقول «آل جور »: (إنه إذا كانت أزمة البيئة العالمية ضاربة الجذور في النمط مختل الوظائف ، المميز لعلاقة حضارتنا بعالم الطبيعة ، فإن الخطوة الأولى في الحل تتمثل في مواجهة هذا النمط . . وفهمه بالكامل وإدراك أثره المدمر على البيئة ، وعلينا أن ننتقل من مفهوم السيطرة على الأرض إلى مفهوم آخر)[٢] .

إننا نزكي هذه البادرة المضيئة والتي تشير إلى بداية الحل الصحيح للمشكلة في رحاب قوله تعالي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] .

إن العلاج لا مفر له من أن يعود إلى تفكير الإنسان في طريقة معيشته ، إن أزمة التخلص من الفضلات مثلاً وهي أزمة عالمية - وهي أهون مشاكل أزمة البيئة المعاصرة - هذه الأزمة تنبع من أسلوب هذا الإنسان في الإنتاج والاستهلاك ، إنها تنبع من فهمه للاقتصاد ، تنبع من فهمه لعلاقته بالحياة الدنيا . تنبع من تكوينه العقدي الذي يصوغ علاقته بالطبيعة ، وعلاقته بالله . إن كل الأنواع الحية تنتج فضلات وجميعها بغير استثناء يمر بعمليات « إعادة التدوير» ليس بواسطة تلك الأنواع الحية نفسها، ولكن بأشكال أخري من الحياة ترتبط معها بعلاقات التكامل والتوازن . وتقوم سُنن الله في الطبيعة بفصل العناصر ذات السمية لتدخلها في عمليات بطيئة لتحولها إلى مواد غير سامة ، وهذا بالطبع يفترض المحافظة على علاقات التوازن التي وضعها الله بين الأنواع الحية .

وإذا حدث أن تخطي أحد هذه الأنواع حدوده المرسومة له في هذا النظام - كشأن الإنسان المعاصر في طموحه للسيطرة على الطبيعة بواسطة العلم - فإن هذا النوع يتعرض لخطر أن يصبح عاجزاً عن الهرب من النتائج المترتبة على زيادة فضلاته ، فضلاً عن ذلك فإن احترام سُنن الله في الطبيعة من شأنه أن يساعد على

(١) الأرض في الميزان صـ ٩٥ .

(٢) انظر الأرض في الميزان من صـ ٢٣٢ إلى صـ ٢٣٩ .

عدم إنتاج مشكلة الفضلات أصلاً، ذلك لأن فضلات أحد الأنواع الحية تصبح مادة نافعة لنوع حي آخر، هذا ولأننا نحن البشر في ظل قيمة السيطرة على الطبيعة من قيم الحضارة المعاصرة ـ قد اكتسبنا ـ كما نتوهم ـ زيادة في قدرتنا على تشكيل العالم، فقد بدأنا في إنتاج فضلات خرجت من ناحية كميتها واحتمالاتها السمية، على الميزان الإلهي الموضوع لامتصاص هذه الفضلات، ونتيجة لذلك فإن هذا الإنسان الذي استبعد عقيدة الألوهية، وتعامل معها من موقف حيادي، أو على الأقل أنكر عقيدة العناية الإلهية. . هذا الإنسان أصبح ـ وفقًا للنواميس الإلهية نفسها «متروكًا لنفسه» وكان عليه أن يبحث عن طريق مستقل عن الله ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] .

ويقول تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧] .

إن المطلوب هو تغيير يتناول أعماق النفس .

إن المطلوب هو طريقة جديدة في إنتاج السلع الاستهلاكية والتعامل معها .

لقد يسر الإنتاج الضخم للناس أن يمتلكوا منتجات الحضارة الصناعية المرغوبة بدرجة أكبر ، وينظر إلى هذا التطور على مستوي العالم كله تقريبًا باعتباره خطوة كبرى إلى الأمام .

والحقيقة أنه حقق فعلاً تقدمًا هائلاً في مستوي المعيشة ونوعية الحياة، لمئات الملايين من البشر ، ومع ذلك فمن خلال تلك العملية لم تصبح المنتجات متاحة فقط ، ولكنها أصبحت رخيصة أيضًا، ولما كان في الإمكان استبدال منتجات أخري بها مماثلة لها وأرقي منها ، فلم يعد هناك لدي الإنسان المتحضر المعاصر ، ما يدعوه لحمايتها أو ادخارها ، أو العناية بها كما كان الحال في الماضي .

وإذا ما واظب هذا الإنسان على عاداته الاستهلاكية فسوف تنتصر القمامة في نهاية الأمر وفقًا لما يقوله المفوض العام السابق للشئون الصحية بولاية نيويورك (يستطيع الناس التذمر من أفران حرق القمامة كما يحلو لهم، بل إنهم يستطيعون

أن يثيروا الجـدل حولها ، أو يرسلوا شكواهم بشأنها للـصحف ، لكن في النهاية يكون النصر للقمامة) .

إن المشكلة ترجع إلى صميم التكوين النفـسي ، ومن ثم الفكري ، والعقدي لإنسان هذه الحضارة الذي تم صيـاغته في نسيج حضارة زعمت أنها مـحايدة فيما يتعـلق بالله ، فهي منفـصلة عنه ، واتجهت إلى تأليـه الإنسان ، وتأليـه العلم ، ورفعت شـعار السيطرة على الطبـيعة ، منذ بدء عـصر النهضة ، بدلاً من شـعار «الانسجام» مع هذه الطبيعة ، ضمن منظومة العناية الإلهية التي يقررها الدين .

إنه كمـا يقول « آل جـور» : (ما لم نعثـر على طريقة نغـير بهـا على نحو جذري حـضارتنا وطريقتنا في الـتفكير فـيما يتـصل بالعلاقة بين الجنس البـشري وكوكب الأرض فإن أولادنا سيرثون أرضًا خرابًا) .

إنه كما جاء في بعض المؤتمرات الإسلامية التي عقدت في أوربا: (إن السبب الحقيقـي لما آلت إليه البيئة من وضع متـدهور وخيم العاقبة تجاوز حـدود التحمل الطبيعي إنما هو اعتزاز الإنسان - غير المؤمن بوجود الله - اعتزازُه بجبروته، حيث سولت له نفسه بأنه السيد المسيطر على الطبيعة والبيئة ، فاعتقد ذلك يقينًا، وسعُبه الاستهلاكي النهم بلا حدود ، لكل ما يشبـع ملذاته على حساب الطبيعة ، سادرًا فيهـا ، لا يرعوي ولا يرعى لها حقًا ، كـأنما ليس لغيره حق مسـتقل في الوجود السليم الذي لا يضار فيه)[1] .

إننا نصل من ذلك إلى أن الصانع الرئيسي لكارثة البيئة المعاصرة ، هو مشروع الحضارة الغربية الذي قام بتصميمه المهندسون « المحايدون في العقيدة الإلهية « ولا يزالون يشرفون على مـساره ويدفعون خطواته حتى الخطوة الأخيـرة ، في أعماق الهاوية ، ولن يتراجعوا لأنهم اجتازوا نفسـيًا وتاريخيًا نقطة الرجوع ، ما لم يبادر

(١) مؤتمر مرور ربع قرن على إنشاء المركز الإسلامي في آخن بألمانيا في يوم ١٧مايو١٩٨٩م ، انظر كتاب (الإسلام كبديل لمراد هوفمان) .

صاحب المصلحة وهو الإنسان ـ إلى تغيير نقطة البدء في صناعة الحضارة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨].

إن نقطة البدء في الحل لن تكون بمزيد من الارتباط بمنطلقات هذه الحضارة (السيطرة ـ الاستهلاك ـ العلم وحده) .

ذلك لأن الكارثة إنما تقبل علينا من واقع تقدم هذه الحضارة ، فهل يمكن لهذه الحضارة أن تقدم الحل ؟ إذن لا تكون هذه الحضارة هي نفسها ، إن الحل لا يتصور مجيئه من هذه الحضارة بتركيبتها التي بدأت وآلتها التي انطلقت منذ عصر النهضة لأنها إنما قامت على استبعاد الدين .

يقول «هارولد لاسكي» المفكر السياسي الشهير:

(إن منهج الغرب في الحياة قد وضع في بوتقة الانصهار وصارت العلوم - سواء علوم الطبيعة أو علوم الحياة - جزءا من رد الفعل شبه التلقائي، وتفتقر إلى الهدف، فهي لا تقدم لنا شيئًا غير تلك القيم التي تشيع الفوضى ، وفي مقدور هذه العلوم أن تتيح شيئًا من الرفاهية المادية، ولكن يبدو أنها عاجزة عن اكتشاف مبادئ الرضا الروحي)[1] .

ونضيف : إنه حتى في مجال الحياة المادية فقد وصلت هذه الحضارة إلى نقطة الانحدار الرهيب بيئيًا ، إن كثيرًا من فلاسفة العلم المعاصر يتحدثون عن (التقدم الفكري والعلمي - وهو أكبر مفخرة لما أتاه الإنسان الحديث - على أنه مجرد أحبولة وخداع ، وأن هذا العالم الحديث قد أعطي مكانًا مركزيًا في الحضارة لجزء من الحياة البشرية ، ليس سوى جزء صغير بالنسبة إلى تلك الأجزاء التي تعمل على التقدم الإنساني) .

إن حماسة «كوندرسيه» ، و«جون ستيورات مل» للعلم الحديث وإيمانهما

(١) انظر كتابه (محنة الديمقراطية ، جـ ١ ، صـ ١٢ ـ ١٣ مترجم) .

بالعلم ، وأملهما في المستقبل تنبذ جانبًا الآن على أنها أوهام قوم معرفتهم بالطبيعة البشرية سطحية جدًا مثل مفهومهم لإمكانات الحياة البشرية ومعضلاتها)[١] .

ونحن نقول : العيب ليس في العلم ولكن في وضعه بعيدًا عن الله .

يقول تشارلز فرانكل:

(لن نفلح في بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد إلا إذا تخلصنا نهائيًا من الفكرة السطحية عن الحضارة ، هذه الفكرة التي نتشبث بها ، وتملك علينا أنفسنا ، ثم نأخذ من جديد بالنظرة الأخلاقية .

ويقول: (يجب أولاً أن نكون متأهبين للعمل الإيجابي في العالم وفي الحياة ، ويجب ثانيًا أن نكون أخلاقيين)[٢] .

فهل هناك أمل في أن تقوم حضارة بُنيت على مبادئ ثابتة ظلت تعمل وفقًا لآليتها مدة قرون أن تقوم بدور في تغيير جلدها ؟ مرة أخرى إنه لا بد لهذه الحضارة كما يقول «تشارلز فرانكل» أيضًا من أن تقوم بالتغيير لا عن طريق الوعظ .. ولكن لا بد من أن تنشأ العقلية الإيجابية الأخلاقية التي تنبع من نظرة عقدية تشمل الكون والحياة ، ثم يقول بما يشبه اليأس: (هذا هو المصير الذي انتهينا إليه، لقد فقدنا كل نظرية في الكون)[٣] .

إن حل المشكلة يتطلب إعادة نظر الإنسان المعاصر في موقفه من كيانه الروحي .. يحلل «أرنولد توينبي» المشكلة فيرجعها إلى غفلة الإنسان عن تكوينه المزدوج بين المادة والروح، فيقول: (إذا فقد الكائن البشري روحه فإنه يفقد إنسانيته، وذلك بأن جوهر الكيان البشري هو إدراك لوجود روحي خلف المظاهر الطبيعية) .

وبسبب أنه يعيش في وقت واحد في المحيط الحيوي وفي العالم الروحي فهو

---

(١) انظر كتاب أزمة الإنسان الحديث لتشارلز فرانكل مترجم صـ ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٢) المصدر السابق صـ ٤ .

(٣) المصدر السابق صـ ٦ .

كما وصفــه السير «توماس براون» بدقة : حيــوان برمائي ! وفي كل من الوضعين حيث يشعــر أنه منسجم مع الوضع يكون له غاية خاصــة ، ولكنه لن يتمكن من متابعــة كل من الغايتين ، أو أن يخدم كلا من السيــدين بإخلاص تام . . . . فأي البديلين يختار . . . . ؟) .

ثم يقول :

(وفي عصرنا فقط أصبح الاختيار أمرًا لا مفر منه للبشرية ككل) [١] .

وهذا بالضــرورة يشيــر إلى ضرورة تحــديد مــوقف الإنسان من الحــياة الدنيــا والآخرة .

فلن يكون الحل في (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا) .

ولكنه في الحديث الصحيح لرسول الله ﷺ :

«من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع الله له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة »[٢] .

وهذا الحل هو ما تقدمه الحضارة الإسلامية .

* * *

(١) تاريخ البشرية صـ ٣١ ، جـ ١ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه .

بين الصراع والتعدد

يخطئ الفكر الإسلامي المعاصر خطأ جوهريًا عندما يناقش موضوعاته ومشاكله [1] بعيدًا عن الإطار العام لها ألا وهو الذاتية الإسلامية وصراع الحضارات .

إن ما يحكي عنه بعض الكتاب عن اعتراف الإسلام بتعددية الأديان أو تعددية الحضارات، إنما هو نوع من الخلط أو الإبهام .

فالتعددية التي جاء الاعتراف بها في الإسلام إنما هي تعددية الأمر الواقع، وليست تعددية الأمر التكليفي، أو ما ينبغي أن يكون .

تعددية الأمر الواقع في الأديان كما في قوله تعالى: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [سورة الكافرون:٦] . تعددية الأمر الواقع في الشرائع كما في قوله تعالى ـ وهو بصدد توجيه الرسول ﷺ في التعامل مع أهل الكتاب :- ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [المائدة:٤٨].

وهي تعددية الأمر الواقع في الحضارات في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠].

تعددية الأمر الواقع بين إيمان وإسلام وإحسان في جهة، وكفر ونفاق وفساد ومعصية في جهة أخري، وليست تعددية الأمر التكليفي المطلوب ولا تعددية الأمر الذي ينبغي أن يكون .

ففي الإسلام ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾[آل عمران: ١٩]، ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

---

(١) كمشكلة الاقتصاد والتربية والإعلام والجهاد ... إلخ .

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨].

وفي الأمر الذي ينبغي أن يكون ليس إلا شريعة واحدة بين الأنبياء جميعًا.

ولا تختلف بين نبي ونبي، ورسالة هنا ورسالة هناك إلا اختلافًا عارضًا - بحسب الاختلاف فيها بين عالمية ومحلية، وخالدة ومؤقتة - اختلافًا لا يستحق الخلاف، كما يفيد ذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وفي الأمر الذي ينبغي أن يكون ليس إلا حكم الله وحده ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧].. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

وفي الأمر الذي ينبغي أن يكون ليس إلا حضارة واحدة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

● **الاختلاف الموضوعي بين الحضارتين:**

وعلى هذا الأساس ـ من الاعتراف بذاتية الإسلام ـ علينا أن نعترف بأن هناك تناقضًا بين النسق الإسلامي ـ أو بتعبير آخر بين الحضارة الإسلامية ـ والحضارة التي تسمى «غربية تارة، وأوربية تارة، وعالمية تارة أخرى».

وهو إذن تناقض موضوعي : تمامًا كما يكون التناقض بين المحافظة على «ذات» في مقابل المحافظة على « ذات» أخري .

ويخطئ من يظن أن هذا التناقض ـ أو الصراع ـ يرجع ـ فحسب ـ إلى ثأر تاريخي، أو كراهية انفعالية متبادلة، أو إلى سوء الفهم [1] بين الجانبين .

كلا ليس الأمر كذلك .

ليست القضية أننا طردناهم من الشرق الأوسط قديمًا، حيث هو في نظرهم قد كان مستعمرة أوربي: يونانية، ثم رومانية، لقرون طويلة، ثم قضي عليها الإسلام .

وليست القضية أننا طردناهم ـ كما يعتقدون ـ من الجزيرة العربية، تلك التي يقول عنها القس الشهير « زويمر» : إن للمسيح الحق في استرجاع الجزيرة العربية ـ نعم هكذا ـ أو طبقًا لقول القس «جيمس كانتين» مؤسس الإرسالية الأمريكية عام ١٨٨٩م (إن من واجبنا أن نعيد !! هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية) .

ليست القضية أننا أنزلنا المسيح إلى منصب النبوة، وحرمناه مجد الألوهية .

وليست القضية أنهم ضربونا بقبضات شديدة استمرت قرنين فيما يسمي الحروب الصليبية .

وليست القضية أنهم افتروا على الله الكذب وشتموا رسول الله، وهتكوا مقدساتنا، وقذفوا أمهاتنا وكتبوا في أعراضنا ما لم يكتبه « اليهود» عن « مريم» .

وليست القضية أنهم طردونا من الأندلس، أو أزاحونا من على حدود فرنسا، أو أزهقوا وجودنا في مناطق من أوربا الشرقية وشمال البحر الأبيض المتوسط . .

وليست القضية أنهم يسفحون دماءنا في إفريقيا، وأوربا، ويقطعون شرايينا في آسيا، ويتركونها تسفح أنهارًا وجداول .

---

(١) بل الأمر على العكس . . وسنبين في هذا الفصل والذي يليه أن القضية ليست قضية سوء فهم منهم أو سوء عرض منا . . .

وليست القضية أنهم أخرجوا فلذات أكـبادنا من فلسطين ويستوردون إليها من لا يكادون يعرفون أكثر من أسماء قبائلهم ممن يسمون « الفلاشا» . .

ليست القضية ذلك فحسب .

لو أن القضية كانت ذلك ـ فحسب ـ لجاز لبعض أبواقهم أن يخدروا وعينا بكلام عن نسيان الماضي، وتصفية الأحقـاد، واستقبال النظام العالمي الجديد « بأيد متشابكة وقلوب مفتوحة» .

كـــــلا . . .

إن التناقض بين ذاتية الحـضارة الإسلاميـة، وذاتية تلكم الحضارة الغـربية، أو «الأوربية»، أو « العالمـية» تناقض موضوعي تحركـه النظرة إلى المستقـبل، أكثر مما تحركه مواريث التاريخ، أو عقم الحاضر . . .

تناقض يتحرك بطبيعته من كونهما حضارتين متنافستين على «المستقبل» .

حضارتين تتصف كل منهما « بالعالمية» . . .

فالإسلام دين « عالمي» وحضارة عالمية .

وهذه الحضارة ـ الغربية ـ تعلن على الأشهاد أنها حضارة « إنسانية»

وتصدر إلى أنحاء العالم قيمها ومفاهيمها فيما تسميه « الديمقراطية» و«حقوق الإنسان» و« قرارات مجلس الأمن» .

حضـــارة أخـذت تـدس أنفـها في كل دولـــة، ومدينـــة، وشـــارع، وزقاق، وبيت . . .»

أخذت تقول : نعم، وتقول : لا، في شئون السيـاسة والاقتصاد، والتربية، والإعلام، والحرب، والثقافة والرياضة، وأوقات العمل، وأوقات الفراغ . .

وهي تتســرب بكلمتـها تلك تحت شـعار « العـالم الذي أصبح كـقرية» عن

طريق: الخـبر، والجنـدي، والكمبـيـوتر، والمعلومات والـقروض، والمنتـديات، والمؤتمرات [1]، ومراكز البحوث، والسلام الزائف . . .».

وهي مستعدة لإدخال كلمتها عن طريق النظريات المزيفة عن « نهاية التاريخ»، لفوكوياما، أو عن طريق كلمة وقحة لمأجور مؤتمرات يقول لك: أنت تأكل خبزهم فكيف ترفضهم ؟!.

نعم ،نعم، حضارة تزعم أنها إنسانية، عالمية، والإسلام رسالة عالمية أيضًا .

ومن هنا كان التناقض شيئًا غير قابل للنسيان .

كـان التناقض بين حضـارتهم وبين الإسـلام ـ كدين وحـضـارة ـ تناقضًـا موضوعيًا، ومعركة على « المستقبل» .

وللأسف فإنهم يدركون هذه الحقيقة أكثر مما ندركها نحن . . .

فهم أساتذة « تاريخنا » الذي نتعلمه منهم . . .

وهم أساتذة الاجتماع والنفس . .

وهم أساتذة الاقتصاد . . .

وأساتذة الفلك والفضاء . . .

وهم أساتذة الاستراتيجية، والسياسة، والحضارة . . .

هم يدركـون بمقتـضى أسـتاذيتـهم لعلم الحـضارة : أنه لا مكان في العـالم لحضارتين « عالميتين» . . . إلا أن يقع بينهما تنافس، وتزاحم، وتدافع، وتآكل في الحدود، وصراع على محل « القلب» . .

وإذن فسيلعنهم تاريخهم إن تركوا فريستهم ـ نحن ـ بعد أن اصطكت الركب، وناخت الأقدام . . .

---

(١) انظر مقال محمـد حسنين هيكل الذي تضمن بيانًا عن معركة تطويع العقل المصـري لقبول الصلح مع إسرائيل، وكيف أنـفق الغرب على هذه المؤتمرات في مـدى عامين أو ثلاثة مـا يساوى « تكاليف حـرب كبـرى : جريدة الخليج ٢١/٥/١٩٩٦ م .

إنهم يدركون هذه الحقيقة ويحسبون أنهم يلعبون « الآن» الدور الأخير في معركتهم مع هذه الحضارة «الإسلامية» ليقذفوا بها إلى مكان سبق أن قذفوا إليه «الهنود الحمر»!!

هم يدركون هذه الحقيقة ويعلمون ـ أكثر مما علموا عن الهنود الحمر ـ أنهم يتعاملون مع حضارة «عاتية» دوختهم واستعصت عليهم ـ في وقت أصبح فيه وُرّاث هذه الحضارة في أضعف حالاتهم وأحط أحوالهم . .

ولذا فإن ضعفنا لا ينسيهم خطورة حضارتنا، ولا ينسيهم خطورة انبعاث هذه الحضارة مرة أخري .

إن ضعفنا ـ الذي يعيرنا به أفراد منا يسيلون بكلماتهم كما يسيل الحوض بالماء النازل فيه ـ هذا الضعف لا ينسيهم قصوائية المعركة التي تدور، ولكنه يُسيِّل لعابهم لضربتنا الضربة الأخيرة، وللقضاء علينا القضاء النهائي .

إنهم يعتقدون أنهم أمام الفرصة التاريخية التي إن أضاعوها فسوف تدور الدائرة عليهم من جديد .

لـذا . . . فإنهم يصفّوننا جغرافيًا، ويصفّوننا جسديًا، ويصفّوننا تاريخيًا، ويصفّوننا حضاريًا . .

يزهقون قطرات الدم الأخيرة من عروق حضارتنا من حقيقة ذاتنا .

من جوهر وجودنا .

إنهم يدركون أن المعركة معركة حضارية موضوعية بين حضارتين عالميتين تتقاتلان على « المستقبل» .

ومن هنا فإنهم يلعبون معنا اللعبة بوجه جامد، وعصب بارد، وبسمة «المشفق» على « الذبيح» .

كأنه يقول : لماذا تتعب نفسك، وتتعبنا معك، فأنت قدرنا، ونحن لا نتركك فتعال ساعدنا على أن ندخلك أحضان الفناء .

إنهم يقتلوننا، نعم . وهم يقتلوننا بإشفاق ؟

نعم !! ، لأن نظرتهم إلى القضاء علينا نظرة موضوعية !!

تمامًا كالذي يذبح شاة . . ويربت على وجهها، وربما . . يقبلها، ثم يذبح !!

هكذا حالهم معنا، وهكذا حالنا معهم !!

يقتلوننا بالمذاهب الفلسفية، وبالروح العلمية، ومناهج البحث .

يقتلوننا ويستغربون : لماذا لا نُقتّل ؟!

وللأسف ـ الذي يصل إلى حد الكارثة ـ ينخدع البعض منا ببسمة القاتل، فينهضون إلى مساعدته بهدهدة الذبيح .

نعم ؛ ولقد ساعدناهم، وساعدناهم من قبل كثيرًا .

ساعدناهم بالاعتداء على ذاتية الإسلام .

ساعدناهم بتفكيك النسق الإسلامي .

وساعدناهم بتزييف « الكلمات» و « المصطلحات» الإسلامية .

أفهمونا أن الغرب قد جاء إلينا من أجل « الاستعمار » .

وابتلعنا الكلمة، وقد كان الصحيح أن يقولوا إنه جاء إلينا من أجل «الاستخراب» . وأفهمونا أن استعمارهم - أو استخرابهم - هو من أجل «القطن»، لتشغيل مصانع النسيج في يوركشاير ، والآن ماذا بعد « القطن» ؟ .

وأفهمونا أن استعمارهم ــ أو استخرابهم ــ هو من أجل قناة السويس .

والآن ماذا بعد قناة السويس ؟ .

وأفهمونا أن استعمارهم ـ أو استخرابهم ـ قد جاء من أجل البترول

والآن ـ أو بعد الآن ـ ماذا يكون بعد البترول ؟! .

« تعمية » على الهدف في عملية الصراع الحضاري ! .

ذلك أنه قد كان لنا ـ وما يزال ـ زعماء فكرهم خريجو كلية فكتوريا،

والميردي دييه، وقهاوي باريس، وشارع الشانزلزييه، وقبعات التخرج في عقر جامعاتنا !! . فلم يكن لفمهم - وهو ممتلئ بشرابهم - أن ينطق بأن القضية صراع حضارات.

وعندما ظهرت الكلمة بعد أن انكشف الغطاء ـ في صراعنا معهم ـ عن التأخر الحضاري الذي « نتمتع» به، . . . بعد أن ظهرت الكلمة وأنها « صراع الحضارات »، جرى تزييفها مرة أخرى فقالوا : هو صراع حضاري ؛ ولكنه يعني أن « نتحضر » مثلهم .

أن نعيش كما يعيشون . ونلبس البدلة كما يلبسون . ونحلق الذقن كما يحلقون . ونأكل بالشوكة كما يأكلون . أن نتحضر بمثل ما يتحضرون .

وليتهم أرادوا من ذلك أن نأخذ من حضارتهم « الوسائل» التي تعيد الحياة إلى حضارتنا، والقوة إلى «وجودنا » ؛ والسلامة إلى «نسقنا » !!

لا ، ولكنهم يهدفون إلى أن نخسر حضارتنا، ونعيش بحضارتهم .

أزاحوا الفهم الصحيح لحقيقة صراع الحضارات وأنه صراع يدور بين حضارتين تتمتع إحداهما ـ اليوم ـ بالسيادة على العالم، وتنزوي أخراهما في جمود .

صراع بين حضارتين، إحداهما يمكن أن نسميها « إنسانية» بحق !! أي يستقل بها الإنسان فلسفة وتوجهًا، وتطبيقًا، وأخري «إسلامية» إلهية !!

نعم : فالإسلام دين حضارة ؛ وقد وضع حجر الحضارة الإسلامية على الأرض في تلك الزاوية التي كتب عليها قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فالحضارة وفقًا للمفهوم الإسلامي مراد إلهي، يصنع وفق التكليف الإلهي، وقيام حضارة مقابلة تتصف بالإنسانية دون «الإلهية»، هو إعلان لمعركة حضارية موضوعية بالمفهوم الصحيح لهذه الكلمة .

لن تنتهي هذه المعركة في تصورهم إلا بإبادة الإسلام وحضارة الإسلام .

ولن تنتهي في تصورنا إلا بصنع الحضارة وفقًا للتكليف الشرعي .

● **رؤية تاريخية للصراع :**

في ظل هذا التصور عن الصـراع الموضوعي المستقبلي بين الحضـارة الإسلامية والحضارة الغربية يصبح من الطبيـعي أن تستحضر النظرة الماضوية عن هذا الصراع من أجل تجنيدها في معركة لا مفر منها .

* الحروب الصليبية.

* سقوط الأندلس .

* سقوط الدولة العثمانية .

* هجوم الاستعمار .

* زرع العلمانية في قلب الأمة وأحشائها .

* الهجوم الصريح على الإسلام .

* تزييف الإسـلام ، ومـحـاولة صنع « الإسـلام الجـديد» الذي أوصت به مؤتمرات التبشير .

* تزييف في الاقـتصـاد، في التربـية، في اللغـة، في الأدب، في الفن في الأخلاق.

وصولاً إلى تشويه الذاتية الإسلامية ثم القضاء عليها في معركتها الأخيرة :

زحفًا من الشمال بكتيبة إسرائيلية . . . أو صربية . .

وزحفًا من الجنوب بكتيبة تنصيرية . . . أو وثنية . . .

وإطباقًا في النهاية على مصر .

ثم الجزيرة !!

وهنا تنتهي ــ في حسبانهم ــ الحروب الصليبية !

لكن هل ينتهي التاريخ ؟!

قائمة سـوداء غليظة السواد، منقوعة في السم، ملطخـة بالدم، مصنوعة من الأشلاء .

والحق أن عداءهم لنا لم ينشأ مع ظهور الإسلام - وإن كـان قد تضاعف معه - ولكنه كان قبل الإسلام، ومع قوة الإسلام والآن . .

أتعرفون ماذا قـال «هيرودت» عن طريقة جمع أحجار الأهـرامات ؟ أتعرفون كيف اغتصب اسم « مصر» على أيديهم فصار إيجبت بينما اسم مصر هو هو منذ وجود الهيروغليفية والعبرية والفينيقية والآرامية والأشوريـة ؟

أتعرفـون كيف أطلقت أكذوبة «مـصر هبة الـنيل» لتحرم المصـريين من شرف العمل والكفـاح والجهد الذي كـان وسيلة ترويض هذا النيل وتهـذيبه والاستـفادة منه؟

كم من شعوب مر عليها النيل فلم يجعل منها هبته ؟

إنهم هم المصـريون الذين اضطهـدوا على يد الفـتح الإسكندري (اليـونان - البطالمة) ثم عـلى يد الرومـان حـتى تخلصت مـصـر من اضـطهـادهم على يد الإسلام؟

وصل اضطهاد الرومان للمصريين والتنكيل بهم الذروة في عصر الإمبراطور ـ «دقلديانوس» (٢٨٤ م) فكانت أول سنة من حكمه مبدأ اتخـذه المصريون لتقويمهم المعروف بتاريخ الشهداء أو التقويم القبطي ؟

ثم استمر الاضطهاد بعد ذلك أربعة قرون تقريبًا كانت حصيلتها نشأة الرهبانية وفرارها إلى جبل المقطم وغيره من الصحاري وإنشاء الأديرة ؟

وجاء الإسلام فأرجع إلى مصر اسمها وأمنها وسلامها وحرمتها ؟

ولم يكن العرب غرباء على مصر قبل الإسـلام: اسألوا الجيولوجيا يقول لكم إن صحراء مصر الشرقية جزء من التكويـن الخاص بالبلاد العربية، والبحر الأحمر ليس إلا أخدودًا أو شقا بين الجانبين .

واقرءوا سورة الفجر لتروا كيف جـمع القرآن الكريم بين العرب البائدة ومصر (عاد وثمود . . . ومصر) :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر :٦-١٢] .

● **عداؤهم لنا بين سوء العرض وسوء الفهم :**

ليست القضية أن المسلمين هم المسئـولون عن عداء الغرب لهم، حيث يسيئون عرضهم للإسلام . . .

ولكنها على العكس من ذلـك، أنهم في الغرب يتجاوزون سـوء العرض هذا ويذهبون إلى عمق علاقتهم بالحضارة الإسلامـية ؛ باعتبارها خطرًا موضوعيًا على حـضارتهم . إنه من السطحـية والسـذاجـة ـ إن لم يكن من التآمـر ـ أن يظن البعض منا أن المسألة ترجع إلى طريقة عرض الإسلام. . . وتنتهي المشكلة .

وإلا فإنه في كل دين، وفي كل مذهب، وفي كل نظرية، وفي كل أيديولوجية هناك من يسيء العرض، ولا أحد من الجادين يتوقف عند أولئك الذين ينبتون على هامش هذه الأديان والمذاهب ممن يسيئون العرض؛ جهلاً أو قصدًا . .

* في المسيحية هناك من يسيء العرض .
* وفي الديمقراطية هناك من يسيء العرض .
* وفي الليبرالية هناك من يسيء العرض .
* وفي الاشتراكية هناك من يسيء العرض .

ولا تكون هناك نهاية المطاف .

ويبتلى الإسلام بمن يسيء العرض من المبشرين والمستشرقين والجهلاء . .

تمامًا كمـا هو الحال مع غيره، لكنه هو وحده الـذي يقولون عنه : لولا سوء العرض .

يا سادة : لا تضيفوا إلى سوء العرض سوء الظن . . .

يا سادة : إن في الغـرب رجالاً يحـققون، ويدقـقون ويذهبـون إلى المصادر الأصلية، كعلماء وخبراء وفلاسفة، وإعلاميين . . . .

فما هي القضية إذن؟

ليست القضية إذن قضية سوء فهم، أو سوء عرض . .

فما هي القضية إذن؟

القضية أنهم هناك يدركون الخطر الموضـوعي الذي يأتيهم من انبعاث الحضارة الإسلامية مرة أخري، ثم يذهبون يشوشون على منطلقاتهم وأهدافهم ويستأجرون العملاء من سمـاسرة الثقافة والإعلام ليـشيعوا مقولات ساذجـة تبعدنا عن أصل المشكلة وتضللنا عن جوهر القضية .

وإلا فـقولوا لنا هل كـان «أرنست رينان» مـتأثرًا بـسوء عـرض الجهـلاء منا للإسلام وهو يقدم كراهيته للإسلام في ذورته الأكاديمية :

إذ يقول في خـطاب افتتـاحي في الكوليج دوفرانـس حول تصنيف الشـعوب السامـية في تاريخ الحـضارة . . الشـرط الأساسي لتـمكين الحضـارة الأوربية من الانتـشار هو تدمـيـر كل ما له صـلة بالسامـيـة الحقـة : تدمـير سلطة الإسـلام الثيوقراطيـة، لأن الإسلام لا يستطيع البقاء إلا كدين رسـمي، وعندما يختزل إلى وضع دين حـر وفردي فـإنه سينقـرض . هذه الحـرب الدائمة، الحـرب التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسمـاعيل بؤسًا، أو يرغمه الإرهاب (!!) على أن ينتبذ في الصحراء مكانًا قصياً .

الإسلام هو النفي الكامل لأوربا، الإسلام هو التعـصب، الإسلام هو احتقار

العلم، القضـاء على المجتـمع المدني، إنه سذاجة الفكر الـسامي المرعبـة، يضيّق الفكر الإنساني، يغلقه دون كل فكرة دقيقة دون كل عاطفة لطيفة، دون كل بحث عقلاني، ليضعه أمام حشو سرمدي : « الله هو الله »

المستـقبل هو إذن لأوربا ولأوربا وحدهـا، ستفتـح أوربا العالم، وتنشر فـيه الدين الذي هو الحق، الحرية، احترام البشر، هذا الاعتـقاد القائل بأن ثمة شيئًا ما إلهيًا في صلب الإنسانية)[1] .

أو فقـولوا لنا لماذا يكتب « باول شمتـز » مثلاً في كـتابه « الإسلام قـوة الغد العالمية» ــ قبيـل الحرب العالمية الثانية ــ ليُحذر من تواكب الحـركة الإسلامية مع الحركة القومية الإسلامية « وما يمثله ذلك من خطر محدق بالغرب» !!

يقول المـؤلف: (إن انتفاضـة العالم الإسـلامي صوت نذير لأوربـا، وهتاف يجوب آفاقهـا يدعو إلى التجمع والتساند الأوربي لمواجـهة هذا العملاق الذي بدأ يصحو ويزيل النوم عن عينيه). هل يسمع الهتاف أحد ؟ ألا من يجيب[2] .

حتى أنه يقلل من أهميـة افتقاد العالم الإسلامي لـلتقدم التكنولوجي في هذه المعركة التي ينذر قومه بها، إذ يقول: (من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأي . . فإن الإسلام فقـد سيطرته على بعض الأشياء المادية، وخاصة مـا يتصل بالحرب، فهو لم يلحق بالتقدم التكنـولوجي الحديث . ولا أستيطع أن أدرك لماذا لم يعوض الشرق الإسلامي مـا فاته في هذا الميدان، إذ لا تحتـاج العلوم الحديثة إلى طبـيعة عقليـة خاصة، بل يتطلب الإلمام بها والتـفوق فيهـا الخبرة وتوجيـه الخبراء، ومن المؤكـد أنه غـالبًـا مـا يحدث أن تـكون حضـارة ذات منزلة عـاليـة في التـقـدم التكنولوجي. . هي أقل درجـة من حـضارة أخـري لم تبلغ تطورها بعـد في هذا

(١) كتاب « الإسلام اليوم لمارسيل بوازار» بحث الحبـيب الشطي الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي ووزير خارجية تونس الأسبق صـ ٣٤ ــ ٣٥ طبعة ١٩٨٦م ــ اليونسكو .

(٢) « الإسلام قوة الغد » ترجمة د. محمد عبد الغني شامة صـ ٣٥٦ .

المجال ما بلغته الأولى، إذن فهناك احتمال كبير في أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه في الناحية التكنولوجية ضعيفة سيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره، فلم ينقذه أحد .. لماذا لا يتعلم العالم الإسلامي ما تعلمناه في مجال التكنولوجيا، وفي مقابل هذا : سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية التي فقدتها المسيحية، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها)[1] .

ويبني المؤلف تحذيره على ما يلمسه من مصادر القوة التي يملكها العالم الإسلامي ؛ وهي : الموقع الجغرافي، والخصوبة البشرية، والثروات والمواد الخام والدين الإسلامي (الذي له قوة سحرية على تجميع الأجناس البشرية تحت راية واحدة بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به على الدفاع عن أرضه وثرواته، بكل ما يملك مسترخصاً في سبيل ذلك كل شيء حتى روحه .. يحرص على التضحية بها فداء لأوطان الإسلام) .

ثم يتساءل : (أي قوة وجدانية بعثت هذه الإرادة اليوم في الشرق ؟) ثم يجيب (قوة الوحدة الفكرية للإسلام، ووجود الإحساس الحي للدين الإسلامي، فهو ينتصر في كل مكان ينزل فيه الميدان مع الأيديولوجيات الأخرى) .

بل إنه ليستشعر الخطر من مجرد أداء المسلمين لفريضة الحج واتجاههم إلى القبلة في صلواتهم .. إذ يقول: (إن اتجاه المسلمين نحو مكة ـ وطن الإسلام ـ عامل من أهم العوامل في تقوية وحدة الاتجاه الداخلي بين المسلمين، وأسلوب يضفي على جميع نظم الحياة في المجتمع الإسلامي طابع الوحدة، وصفة التمسك)[2] .

بل إن ناشر الكتاب الألماني يقدم له بهذه العبارة: (باول شمتز عاش في

(١) المصدر السابق صـ ٣٥٦ .
(٢) المصدر السابق صـ ٩٢ .

القاهرة عدة سنوات ويعرف جيدًا الأسس التي ينبثق عنها تطلع الشعوب الإسلامية إلى الاستقلال، الذي يعد أهم مشكلة سياسية في الوقت الحاضر، وهذا الكتاب يوضح الخطر المتوهج الذي يمر عليه الإنسان في أوربا بكل بساطة، وفي غير اكتراث، فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم (قبيل الحرب العالمية الثانية) في جبهة موحدة معادية للغرب . . . وهذا الكتاب هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجدي من أجل مصالح الغرب وحدها)[1] .

هكـــذا ... فهل كتب «باول شمتز» ما كتب لما وجده من سوء عرض للإسلام يرتكبه بعض الجهلاء من هنا أو من هناك ؟ !!!

أو فقولوا لماذا نشر المفكر الأمريكي « صامويل هانتنجتون » الأستاذ بجامعة هارفارد كتابة المعروف باسم (صدام الحضارات) وفيه يبشر لصدام مستقبلي هائل بين الديانات والثقافات الحديثة ممثلة في الثقافة الأوربية الأمريكية الغربية من ناحية، وبين الديانات والثقافات القديمة . . لكنه خص الحضارة العربية الإسلامية بأكثر قدر من التركيز لأنها ـ كما يعتقد ـ ستكون أولي تلك الحضارات القديمة وأقدرها على الازدهار وتحدي الغرب قريبًا، ولذلك يقول الرجل : يجب على الغرب الاستعداد من الآن لصدام المستقبل هذا، بل العمل على إجهاض قوة الحضارات الأخري، خاصة الإسلامية قبل أن تكتمل) .

وهناك دراسة أخرى نشرتها مجلة الإيكونومست البريطانية في ٨ يناير عام ١٩٩٤م، ركزت على أن مستقبل العالم مهدد بقوتين كامنتين أمامهما فرصة البزوغ، بل الصدام مع الآخرين: هما اليابان والقوة الإسلامية المنتظرة[2] !

وها هو الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية ــ «ريتشارد نيكسون» : يدرك السمة الحضارية للإسلام، حيث يقول (إن الإسلام ليس دينًا فقط، وإنما

---

(١) المصدر السابق صـ ١١ .

(٢) مقال صلاح حافظ ــ الخليج ٢٥/٢/١٩٩٤م .

هو أساس حضارة رئيسية، إننا نتحدث عن العالم الإسلامي بصفته كيانًا واحدًا ـ ليس لأن هناك مكتبًا إسلاميًا يوجه سياساته، ولكن لأن الدول منفردة تشترك في اتجاهات سياسية وثقافية مشتركة مع الحضارة الإسلامية ككل)[١].

فهل فهم «نيكسون» ذلك من سوء العرض للإسلام ؟

ثم يقول «ريتشارد نيكسون» : (للعمل في العالم الإسلامي فإن على صناع السياسة الأمريكية المناورة داخل وكر أفعي من سم النزاعات الأيديولوجية والصراعات الوطنية)[٢] .

والمدهش أنه يعترف بعد ذلك بأن بعض الأمريكيين (يتغاضون عن حقيقة أن الإسلام لا يشمل مبدأ إرهاب وأن ثلاثة قرون قد مرت منذ أن انشغل المسيحيون في حروب دينية في أوربا)[٣] .

ثم يعترف بفضل الحضارة الإسلامية فيقول : (بينما ذبلت أوربا في العصور الوسطي تمتعت الحضارة الإسلامية بعصرها الذهبي، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة في مجال العلوم والطب، والفلسفة، وفي كتابه «عصر الإيمان» لاحظ «ول ديورانت» أن الإنجازات الهامة في كل الميادين قد تحققت على يد مسلمين في هذه الفترة، وكان ابن سينا أعظم الكتاب في الطب، والرازي أعظم طبيب، والبيروني أعظم جغرافي، وابن الهيثم أعظم صانع للآلات البصرية، وجابر أعظم كيميائي .. وكان العلماء العرب فاعلين في تطوير الفكرة العلمية .. وعندما دفع الرجال العظام من عصر النهضة الأوربية إلى الأمام حدود المعرفة .. فقد رأوا أكثر لأنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامي)[٤] .

ثم يقول «ريتشارد نيكسون»: (إن حضارتنا ليست متفوقة على حضارتهم

(١) انتهزوا الفرصة ـ ترجمة حاتم غانم، طبعة فبراير ١٩٩٢ صـ ٤٠ .
(٢) انتهزوا الفرصة صـ ٤٥ .
(٣) انتهزوا الفرصة صـ ٤٣ .
(٤) السابق صـ ٤٣ .

الموروثة، إن شعـوب العالم الإسلامي كـانوا أكثر مـقاومة لجاذبيـة الشيوعـية من مقاومـة أولئك في الغرب، وإن رفضهم الواسع للمـادية وثقافة الغرب الأخـلاقية المسموح بها ـ أي في الغرب ـ رجعت عليهم بالفضل) .

وطيلة خمسة قرون من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠م ــ كما يقول نيكسون ــ فإن العالم الإسلامي تقـدم وتفوق على العالم المسـيحي فيمـا يتعلق بالقوة الجـيوبوليتـيكية، ومستـوي المعيشة، والمسئولية الدينية، وتقـدم القوانين، ومستوي تعلـم الفلسفة، والعلوم والثقافة .

ثم يرجع انحسار الحضارة الإسلامية إلى انتصارها في الحروب الصليبية، كما يرجع تفوق الغرب إلى انهزامه إذ يقول: (إن عقودًا من الحرب قلبت الطاولات، وكما كتب «ديورانت»: إن الغرب خسر الحرب الصليبية، لكنه ربح العقائد (!!)، وتم طرد كل محارب مسيحي من أرض اليهـودية والمسيحية المقدسة (كذا !!) . لكن الإسـلام استنزف نتـيجـة انتصاره المـتأخر، ودمـر وخرب على يد المـغول- بالمقابل- في عصر من ظلام الغموض والفقر، بينما المهزوم مدفوعًا بالجهد ونسيان الهزيمة تعلم كثيرًا من عدوه، ورفع الكاتدرائيـات في السماء، وعبر بحور العقل، وحول لغـاته الجديدة إلى لغة «دانتي» و«فـيلون»، وتحرك بروح معنوية عـالية إلى النهضة)[1] .

فهل كتب «نيكسون» ما كتب تحت سوء عرض منا للإسلام .

وحين أصدر «جان بيرك» ترجمته لمعاني القرآن عام ١٩٩٠م نجده يبرر اهتمامه بتقديم معاني القرآن للغـرب بقوله: (لأن الكثير من المفكرين والناس الآن ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة، ويرفضون مـجتمع الاستهلاك، هذا المجتمع المادي المحض . . ويفضلون على المدنية المعاصرة مدنية الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها)، ولما كان قد قدم في ترجمته للقرآن الكريم معاني القرآن مشوهة فكأنه أراد

---

(١) انتهزوا الفرصة صـ ٧٦ .

أن يقول للمفكرين الغربيين الذين أصبحوا يرفضون حضارة الغرب الآن ويرون أنها على وشك الانهيار، لأنها فقدت الأساس الروحي والأخلاقي . . يريد أن يقول لهم : وهذا هو الإسلام أيضًا مليء بالخرافات والتناقضات . .) إلخ [١] .

أما «جان بيرك» نفسه فيكاد يلتمس لنفسه العذر فيما يكون قد حدث من مخالفة في ترجمته للقرآن الكريم بالرجوع إلى وجوب الأخذ بالمنهج التاريخي إذ يقول : (يبقي صحيحًا القول بأن الديناميكية الدينية ذاتها تتطور عبر التاريخ ـ ليس في مبادئها وأصولها بالطبع، ولكن في صياغتها وأشكالها وتطبيقاتها، فتلك أشياء خاضعة للتأقلم والتطور وتختلف باختلاف العصور والأزمات)[٢] .

ومن الواضح لدينا أن استثناءه (المبادئ والأصول) من عملية التأقلم. . إلخ، ليس إلا تغطية لفظية للهدف، الذي هو إيصال الديناميكية الدينية التاريخية إلى (صياغة) المبادئ والأصول، وما ذلك إلا صياغة كلمات الله تعالى ما دمنا بصدد ترجمة القرآن الكريم !

وهذا المنهج التاريخي هو المدخل «الحديث» لنسف أصالة المسلمات الإسلامية .

فهل ذهب «جان بيرك» إلى ذلك نتيجة سوء فهم أو سوء عرض .

أهو سوء عرض منا ذلك الذي جعل منصرًا مثل : «بروس ج. نيكولز» يدرك حقيقة الإسلام بدقة يغبط عليها حين يقول :

إن الإسلام هو أكثر من عقيدة دينية، إنه نظام متكامل للحياة والدين. فالإسلام يدمج كل المؤسسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على أسس الإيمان والاقتناع والالتزام بقبول الله ربًا، والاستسلام كلية لإرادته، ثم يستمر قائلاً : (إن مركز الإبداع في الإسلام هو التوحيد، أي الشهادة بأن لا إله إلا الله، والتوحيد يعني أن الله هو الخالق أو السبب الجوهري لكل الوجود والنشاط، ويؤكد أن الإنسان هو المسئول عن تحقيق إرادة الله) .

---

(١) مقال رجب البنا صـ ٩، الأهرام ٦/ ٣/ ١٩٩٤ .

(٢) الأهرام ٢٩/ ٧/ ١٩٩٥م .

ثم يستمر قائلاً: (ففي المؤتمر الإسلامي الدولي الذي عقد في لندن في نيسان (أبريل) ١٩٧٦م حول « الإسلام وتحديات العصر»، تم تقديم الإسلام كنظام متكامل من القيم ومصدر إلهام لكل منجزات العلم والدراسات الإنسانية والمصدر الوحيد الراسخ للإيمان والسلوك)[1] .

كيف يمكن القول إذن بأنهم يحاربون الإسلام لأنهم لم يفهموه؟! .

انظروا مثلاً إلى الفهم الصحيح للإسلام الذي يقدمه المنصر «كينيث أ . كراج» عن الإسلام، حيث يقول : (دعونا نواصل الحديث عن الجسور، إن للقرآن والإنجيل أرضية مشتركة من الإيمان بالخلق : «هو (الله) الذي يقول: ﴿كن فيكون﴾، إن الخلق المبدع هو لله والأرض الطيبة كذلك، والتي ينظر إليها على أنها مسكن الإنسان ومجال نشاطه و«الأمانة» التي حملها، والإنسان هو « خليفة» الرب في «حكم» النظام الطبيعي، وهو في ذلك مسير بإرادة إلهية، وتفهم الغاية الإلهية بالنسبة للعالم من خلال تسخيره للإنسان الفلاح والزارع والتقني والفنان والعالم الذي يمتلك ويستكشف، ويستغل العالم بتفويض إلهي، كما أنه يكون مسئولاً عن أعماله هذه أمام الرب، فالإنسان مخلوق أدني من الرب، وهو عبد للسلطة الإلهية، وخليفة ومندوب في مواجهة الطبيعة .

من هذا المنطلق توجد جوانب عديدة من الفهم المشترك تساعدنا على القيام باتخاذ الموقف الصحيح في وجه كل ما من شأنه أن يتعدي على الكرامة الإنسانية والمجال الإلهي، وليس فقط فيما يتعلق بالقضايا المعاصرة كالسلطة والبيئة، والمسئولية عن الموارد والعدل الاجتماعي والتراحم، بل بأكثر من هذا، والقرآن (سورة ٢ : ٣٣ وما بعدها) يري أن الشيطان هو رأس الاتهام، فبعد أن اعترض على خلافة الإنسان، ثم تمرد على الرب لنفس السبب، فإن هدفه التاريخي هو إغواء

---

(١) انظر كتاب « التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي » وهي تضم مجموعة أعمال المؤتمر الذي عقد عام ١٩٧٨م بكولورادوا بالولايات المتحدة الأمريكية، ونشرته دار MARK، ونشر بالعربية ..... صـ ٢١٤

البشر وتشتيت وإفساد العمل البشري والثقافة حتى يستطيع أن يثبت للرب خطأ ما قام به بتكريمه للدور الإنساني، وهذه الموضوعات مثيرة جدًا، وإذا كان من الواجب « أن ندع الرب يكون ربًا » يجب علينا كذلك « أن نجعل الإنسان يكون إنسانًا » .

ومن هنا بالطبع كانت ضرورة الهدي كما يطلق عليه الإسلام، والذي يسترشد به الإنسان في أزمة مصيره عبر التاريخ، ومن هنا أيضًا جاء تعاقب الأنبياء المرسلين لتحذير وتوجيه الاستجابة البشرية، إذن فالنظرة القرآنية إلى الأنبياء في التاريخ لا تختلف كثيرًا عن مرامي أمثلة المسيح عن الكرم والكرامين والرسل، فخصوصية مهمة اليهود غير واردة، ولكن مسئولية الإنسان أمام الرب في تسخير الطبيعة عبر التاريخ حقيقة هامة في المفهوم الإسلامي للخلق، وفي مكانة النبوءة المتميزة في التاريخ .

هنا تبرز بالطبع بعض العقبات، ولكن قبل أن نتطرق إليها هنالك بعض السمات القرآنية الأخري لمخلوقية الإنسان الأساسية، والتي تساعدنا في مهمتنا، فالطبيعة تحت وصاية الإنسان هي بالنسبة للقرآن دنيا من الآيات، وهذا اللفظ موجود في كل صفحة من صفحات القرآن تقريبًا، إن الآيات تشد الانتباه، وهذا هو أساس العلم كله فالإنسان يلاحظ ويراقب ويصنف، ثم يسخر الظواهر الطبيعية، والإسلام هنا يشعر بالفخر والاعتزاز في تشجيعه السيادة الإنسانية من خلال اليقظة الماهرة والقيام بالجهد اللازم وبكل دقة، ونحن ننحني لننتصر، فالطبيعة لم تعط العلوم من خلال طرح بيانات معينة، بل حقق ذلك الإنسان من خلال التساؤلات التي طرحها على الطبيعة «والتي» قامت بالرد عليها .

غير أن اليقظة التي تتطلبها هذه الآيات هي أكثر بكثير من كونها عقلانية) .

ثم يقول : (إن النفور الموروث لا يزول بسهولة، وكثيرًا ما يؤكد القرآن على أنه قدم بطريقة تسهل على الناس فهمه، فالقرآن ليس طلسمًا قصد به إخفاء الحقيقة من خلال التعبير والأخبار، كما تدعي ذلك فئة من الأحبار، ونحن لن

نندم إذا درسنا وتتبعنا جدية القرآن، ومن ثم اكتشفنا الوجهة التي يقودنا إليها، وبتسخير كل ما لدينا من صدق ودهاء من أجل المسيح علينا أن نتنبه إلى جدية القرآن، وهذا شيء كان من المفروض أن نقوم به منذ زمن طويل جداً) .

ثم يقول : (وهذه أمور بالطبع تتعلق بفهم الإنسان وفهم المسيح، وهما مفهومان يكملان بعضهما بعضاً، لقد رأينا كيف يشرع الإسلام فيما يخص الله، والإنسان، وإضافة إلى ذلك يرى القرآن أن هذا التشريع يلائم الطاعة في وجود شروط معينة تمثلها بصورة عامة الدولة الإسلامية التي أُنيط بها النظام السياسي منذ الهجرة، ويأتي بعد ذلك نمط الحياة اليومي (الصلوات اليومية الخمس والصوم والحج والزكاة) ونظام التكافل الاجتماعي في الأمة الإسلامية، وعلى ضوء هذا وبالإضافة إلى فحوي التقاليد التي تدعمها وتعززها فقد نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه يمكن أن يتحسن حتى يبلغ درجة الكمال، فالإسلام واثق بأن التشريع في القرآن والرحمة في المجتمع والسنة التي يمكن أن تحتذي والانضباط في الأنماط الاجتماعية والرعاية التي يمكن أن يوفرها نظام الحكم الإسلامي ستكون كافية لتحقيق واجب الإنسان والدعوة الموجهة إليه لعبودية الله .

إن الكتاب المقدس يركز بشكل كبير على مسألة الرحمة والغفران الكافية لأن نولد من جديد المسيح المصلوب، وهنا فإن الكتاب المقدس الذي يدعو إلى أن عيسي هو المخلص يلزمه أن يواجه الحيرة الأساسية والكراهية الراسخة في الإسلام لهذا المفهوم، ولكن حتى هنا وبسبب صعوبة المهام التي نواجهها هنالك بعض الأمور اللاهوتية العقيدية التي ينبغي توضيحها .

انطلاقًا من مقطع هام في القرآن (٤ : ١٥٧ وما يليها) ونتيجة لاعتبارات أخرى في اللاهوت الإسلامي، فإن الإسلام يري :

أ - أن المسيح لم يصلب .

ب- أن الصلب ما كان من الواجب أن يحدث .

جـ- أن الصلب لا حاجة له أن يحدث .

فالإسلام ينكر حدوث الواقعة تاريخيًا ويرفض احتمال حدوثها على أساس أخلاقي كما يرفض الضرورة لها على أساس عقائدي) .

ثم يقول : (فالمسلمون يعتقدون أن يسوع ما كان ينبغي أن يتعذب بهذا المعني الذي يتضمن عجز الرب في الدفاع عن خادمه (بل وأكثر من هذا إن قلنا ابنه!) . ومن هذا المنطلق فإن الرب « يودع قدرته» في حقيقة أن المسيح لم يمت علاوة على ذلك فإن تحمل عقاب الإثم نيابة عن الآخرين ليس من الأخلاق في شيء . فالقرآن يقول: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام:١٦٤] إذ ليس من العدل معاقبة (أ) لذنب ارتكبه، (ب)، ولهذا فالمسلمون يشعرون بأن فكرة البديل النصرانية هي فكرة غير أخلاقية إلى حد بعيد) .

ثم يقول : (ولكن هل هذه المعاناة التي تفتدي الإنسان ضرورية للقدرة الكلية الإلهية، فالإسلام يقول: إن رحمة الله تسع جميع مخلوقاته والقرآن يؤكد : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]. وهذا يعني أن المغفرة الإلهية عمل مهيب يحدث دون جهد، ولهذا فإن فكرة « المخلص» الذي «مكن» الرب من أن يغفر لنا توحي بالعجز الرباني، فهل يحتاج الرب أبدًا «للمساعدة» من أجل تحقيق إرادته؟ وهذا يوضح أننا نحتاج لأن نكون فطنين وحذرين جدًا فيما نقوله أثناء الدعوة خشية الوقوع في مفاهيم خاطئة، ما هي الطريقة التي يمكن أن نوضح بها «ضرروة» الصليب باعتباره شكل ومضمون القدرة الربانية في المغفرة؟ هل يمكن لمغفرتنا ـ إذا جاز التعبير ـ أن تكون مشكلة الرب ؟)(١) .

إذن فالأمر في دائرة التنصير لا يرجع إلى سوء الفهم، أو سوء العرض، ولكنه يرجع إلى ما يقول «جورج بيترز» في بحثه بعنوان « نظرة شاملة عن إرساليات التنصير العاملة وسط المسلمين» .

(إنني أميل إلى الاتفاق مع «فاندر» و«زويمر» و«فريتك» وآخرين فيما ذهبوا

(١) انظر المصدر السابق . من ص (٢٧٤) ، إلى ص (٢٨١) .

إليه من أن الإسلام حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطًا يفوق البشر لمقاومة إنجيل ربنا يسوع المسيح، إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية، وترفض بكل وضوح موثوقية وصحة الإنجيل وأبوة الرب، وأن المسيح ابنه، وضرورة موته وكفايته لمفهوم الخلاص، وتبرير بعثه إنه الخلاف الأكبر في النصرانية وفي الكتاب المقدس أملنا في الخلاص .

ولكن محرك هذا الخلاف هو الإسلام وليس النصرانية وفي ذات الوقت فالنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا، ويفوق في ذلك النظام الشيوعي (!!)، ولكن هذه الحقيقة يجب ألا تحبط عزم المنصرين . . . (ثم يقول : « إن الإله الموجود فينا !! أعظم من الإله الموجود في العالم، وأعظم حتى من الإله الذي يتحدث عنه الدين الإسلامي»[1] .

* * *

فأين القضية إذن ؟ هل ترجع كما يشيع البعض إلى سوء الفهم أو سوء العرض ؟

وانظروا ما جاء عن العداوة المغرضة التي تصل إلى جذور البرامج الدراسية في الغرب : وقولوا لنا : هل تقررت بدافع سوء عرض منا للإسلام. يقول «مارسل بوازار» : (في الولايات المتحدة الأمريكية تتهم لجنة من جميعة دراسات الشرق الأوسط الكتب المدرسية برداءة الإعلام عن الإسلام، وبالأخطاء فيما يتعلق بالوقائع التي تتضمنها عن المسلمين، نتائج التحقيق الذي قامت به اللجنة مفزعة . . كتب التاريخ العام المدرسية تخصص عمومًا ٨٪ على أبعد تقدير من محتواها للشرق الأدنى والأوسط، معظم هذه المادة غير كافية، فضلاً عن أنها تعالج أساسًا الحضارات القديمة، حضارات بلاد الرافدين ووادي النيل ولا تتحدث عمليًا عن تاريخ الثقافة الإسلامية، ومن جهة أخرى : محررو هذه الكتب

(١) المصدر السابق : التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي من صـ ٥٤٩ إلى صـ ٥٦٨ .

المدرسية يُظهـرون مثل المدرسين مسبقـات كامنة، معززة بتـحرير ناقص، وببحث قليل الدقة وبتـقديم غير سديد، وهكذا فـإن التلاميذ الأمريكيين عـندما سئلوا لم يجيبوا عن الإسلام إلا كدين، وكثير منهم زعموا أنهم لا يعرفون المسلمين إلا في منظور حركة المسلمين السود « بلاك مسلم » .

وأجريت مؤخراً دراســة أخري محددة جغرافيًا بمنطقـة «واشنطن» استنتج منها أن ١٥ ٪ فقط من الكتب المدرسية المتوافرة يمكن أن ينصح بها كأدوات تربوية، أما الانتقادات الرئيسية فهي الآتية : ــ

ــ قلما قدم الإسلام كإحدي ديانات التوحيد الكبري في العالم .

ــ حوكــم التاريخ والحضارة العربية بميزان المعايير العرقية الخالصة .

ــ اسـتخدمت قـوالب فظة، مـقدمة فـي أسلوب تحقـيري لوصف حـضارة العرب[1] .

وفي الكتب المدرسية الفرنسية :

يخص الرسول ﷺ الذي ما زال يكتب بطريقة مغلوطة :

بنعوت قيمية محددة .

محمد الفقير يشعر بالأمن بفضل زواجه .

وخلال سفره التقى بيهود ونصارى .

وبتكريسه أوقـات فراغه للتأمل حـصلت له رؤي «على طريقة الأنبيـاء» وقرر التبشير : بــ « الرب ــ الله» .

أخرج من مكة فظل مشغولاً باسترجاعها .

منذ البداية التجأ للعنف .

مكنه فنه في قـيادة الجـموع (!!) من توحـيد أنصـاره الذين زرع فيـهم روح التعصب ووعدهم بالجنة إذا ماتوا في سبيل « الحرب المقدسة» .

---

(١) انظر كتاب « الإسلام اليوم » لمارسيل بوازار، ترجمة ونشر اليونسكو، صــ ٢٢ إلى صــ ٣٠ .

أما تقـديم الإسلام ـ في تلك الكتب المدرسيـة فإنه يجمع جمـيع القوالب: التعـصب، الخضـوع، الإهمال، الاسـتسلام . . إلخ . . الإيمان الإسـلامي ليس جديدًا ـ قلد واستـعار كثيرًا، خاصة من اليـهودية، عقيدته هي من أكثـر العقائد بساطة، وممارساته الثقافية محدودة جدًا .

الفتح العربي يوصـف دائمًا بـ « الصاعق» كتاب مـدرسي واحد أشار إلى أن دوافع التوسع لم تكن دينية حـصرًا، أما بالنسبة للكتب الأخرى فتـفسير ذلك هو في الجبلة الحربية للعرب الذين أعمتهم رغبتهم في فرض الإيمان على الكفار .

تضيف إلى ذلك بعض الكتب : الضعف الداخلي للدول التي ستفتح، ورغبة البدو في الخروج من الصحراء الحارقة للاستيلاء على المدن .

أدت الحرب المقدسة إلى صراع رهـيب بين الصليب والهلال، سبب المسلمون (الذين يسمون سراسنة) خرابًا مخيفًا في حوض البحر الأبيض المتوسط .

وأخيرًا عندما يعالج مؤلفو هذه الكتب الثقافة الإسلامية لا يخشون الوقوع في التناقض : بينما الحرب المقدسة قضت بالاختـفاء على كل فرد غير مسلم . . نجد أن اليهود والمسـيحيين في الأراضي المفتوحة هم الذين كـان لهم نصيب الأسد في ميلاد الحضارة الإسلامية، هذه الأخيرة التي ليست سوى اقتباس : خليط وانتحال . . طابعها الجـوهري هو افتقاد الأصالة . . لدرجـة أن بعض الكتب المدرسية في تمارينهـا ـ التي من المفروض أن تشـغل فكر التلميـذ النقدي ـ تطلـب في سؤال إيحائي أن يشرح : (في أي مجال تفتقد الحضارة الإسلامية الأصالة ؟) .

كل شيء فيـها تقليد : العـلوم الطبيعـية والإنسانيـة، الفن، الأدب، وحتى المعمار، ـ وهو مجـال يعترف فيه للمسلمين ـ عادة ـ بالتـفوق ـ ليست حسب الكتب المدرسية سوي تقليد .

وفي التعـديلات التربوية الأخيرة الـتي أعدت في فرنسا يبـدو الإسلام كثقـافة ماض «مشرّحة» وكدين للفقراء، تمت مماثلة مع العمال المهاجرين غير المتخصصين:

لم تعد صورة المجتمع صورة قوة تناحرية خطيـرة، كما تستخلصها الكتب المدرسية القديمة، بل هي بالأحرى شبيهة بصورة حضارة ميتة تصدِّر يدها العاملة .

هل يعود السبب لتـبرير إيديولوجي ؟ أم لتأثيرات عرقيـة ؟ أم لقصور مؤلفي الكتب المدرسـية ؟ يظل السـؤال مطروحًـا، لكن مما لا شك فيـه أن ظلمًا دائمًـا انصب على الإسلام والمسلمين)[1] .

إننا نؤكـد أن هؤلاء عندمـا يختـارون مـوقع العداء لـلإسلام وحـضـارته، ويصفونه بوكر الأفعى، كـما فعل نيكسون، فإن ذلك لا يرجع في الأعم الأغلب ـ كما يشيع البعض ـ إلى سوء عرض منا، أو سوء فهم منهم، ولا يرجع إلى ما عليه حال المسلمين اليوم من تخلف، أو مـا عليه حال بعضهم من تطرف، ولكنه يرجع إلى اخـتـلاف جذري في أصـول كل من الحـضـارتين، وفي الوقت الذي يدركون فيـه ذلك يدركون تحرك كل منهما نحـو العالمية، فيجـعلهم ذلك يفزعون إلى خططهم المدروسة في الإساءة إلى الإسلام، وتشـويه صورته عمدًا، وبكل ما يملكون من وسائل الدفاع عن الذاتية الخاصة .

وشهد شاهد في جريدة عصرية، يقول :

(لا أعتـقد أن الأحداث سـبق أن تدافعت وتراكـمت على الأمة العـربية في شكل سلسلة من التحديات المعقدة والمرهقة بمثل ما جري في الآونة الأخيرة .

حتى يبدو الأمر وكأننا قوم مستهدفون من الشرق والغرب على حد سواء .

وأنه بينما يعم المجتمع الدولي بأسره موجة من التفاؤل . . . .

في ظل الوفاق العالمي بين القوتين . . . فإن الأمـر يبدو مغايرًا تمامًا في عالمنا العربي[2] الذي هبت عليه رياح التشاؤم وتولـدت في ربوعه أحاسيس القلق، من

(١) مارسيل بوازار : « الإسلام اليوم » صـ ٢٦ ـ ٢٩ .

(٢) ولو أدرك جوهر القـضية لقـال الإسلامي : انظر أفغانسـتان، وباكسـتان والفلبين، وقبـرص وأريتريا، وجنوب السودان . . إلخ .

مجرد رصد مـا هو قادم إلينا وما يجري تصديره لأوطاننا، بدءاً من هجـرة اليهود السوفيت، ومروراً بمحاولات تغيـير الأوضاع القانونية لمدينة القدس [1]، ووصولاً إلى النوايا الرامية لإبقاء بؤر التوتر على حالها كـأنها أشبه بسرطان ينخر في جسد الأمة، سواء في لبنان أو في الخليج، إضافة إلـى ما يجري في الضفة والقطاع من ممارسات بربرية يشيب لها الولدان[2] .

ويشهد رئيس تحرير الجريدة فيقول: (كان انزعاجنا شديداً ونحن نتحدث عن هجرة اليهـود السوفيت إلى الأرض العربية المحتلة في إسـرائيل . وكنا محقين في انزعاجنا وتحسبنا للأخطار، رغم أننا كنا نتخوف من هجرة عشرات أو بضع مئات الألوف، وبحد أقصي نصف مليون مهاجر إلى إسرائيل خلال خمس سنوات .

الآن مـاذا نقـول وماذا نفـعل وقـد تكشـفت الخـيـوط، واتضحت مـعـالم الصورة؟![3] فإذا بما كنا نتخوف منه من قـبل لا يمثل إلا أقل القليل مما تتوعدنا به من مخاطر هذه المؤامرة الكبرى[4].

إذن فهـو خروج يهودي كـبير آخـر، يذكرنا بالخروج اليـهودي من أوربا في أعقاب الحرب العـالمية الثانية الذي اتجه إلى فلسطين الجـريحة عام ١٩٤٧م وساهم في صنع نكبتها) .

(إن القضية ليست قضية مخـاطر تهدد شعب الضفة وغزة فقط، ولا الشعب الفلسطيني ككل، وإنما قضـية مخاطر تهدد الدول العـربية كلها . . بعضهـا مهدد بالخطر عاجلاً والآخر لن يتأخر طويلاً .)[5]

ويقول الصـحفي الكبيـر «صلاح الدين حافظ» بعـد رحلة إلى أمريكا : (إن

---

(١) يشير إلى قرار الكونجرس الأخير باعتبار القدس عاصمة موحدة لإسرائيل .
(٢) مقال بالأهرام ٥/ ٤/ ١٩٩٠م صـ ٨ .
(٣) معالم الصورة كانت واضحة منذ قيام إسرائيل في خريطتها من النيل إلى الفرات !!
(٤) إنها كبرى منذ الأندلس إلى تركيا إلى إسرائيل . .
(٥) الأهرام ٦/ ٤/ ١٩٩٠ م .

الانحياز الأوربي الأمريكي للمسيحيين في « الشرق» عامة، وفي « مصر» خاصة، ليس حبًا لذواتهم، ولكن تحت تصور أنهم سلاح تفكيك لوحدة الأمة وعنصر طعن ضد الأغلبية .

وبقدر ما هناك في الغرب الأوربي الأمريكي من نقد أحيانًا للإسلام والمسلمين، فإن هناك أيضًا نقدًا واضحًا لأقباط مصر على وجه الخصوص، وحين تساءلنا بعجب جاءت الإجابة أكثر عجبًا . . ذلك أن أقباط مصر ما زالوا يرفضون الانحياز « الأعمي » للمسيحيين الأوربيين والأمريكيين، ويفضلون بقاءهم كجزء من قوميتهم المصرية، ومن حضارتهم العربية . .) .

ثم يقول «صلاح الدين حافظ» : (علينا أن نستشرف المستقبل ونستعد له . والمستقبل الذي أراه ـ بتواضع شديد ـ هو الذي سوف تعود فيه حركة التاريخ إلى الصدام التاريخي القديم . . صدام الغرب الأبيض مع الشرق الملون[1] .

خاصة إذا نجحت خطة تفكيك الاتحاد السوفيتي الجارية الآن، لأنها تمثل التجربة الأولي وبعدها تتوالي المحاولات .

صراع المستقبل لن يتركز حول صراع الأيديولوجيات السياسية الذي ساد خلال نصف القرن الأخير بين الماركسية والرأسمالية .

ولكن صراع المستقبل سوف يكون صراع قوميات [2]، وديانات[3] حيث الاستقطاب سيكون حادًا بين حضارات الغرب البيضاء الحديثة، وبين حضارات الشرق ودياناته القديمة، بما فيها حضارات اليابان والصين والهند، والعرب والأفارقة، مرة أخري صراع ديانات وقوميات) .

ويقول الكاتب السياسي الأستاذ «محمد سيد أحمد» عما يدور حاليًا بيننا وبين

(١) عفواً ليست معركة الوان في جرعة تزييف أخرى .
(٢) محشورة حشراً .
(٣) صح النوم !

الغرب: (هل هي صيغة عصرية للحروب الصليبية ؟) معلقًا بذلك ـ فيما ينقله عنه الدكتور «محمد عصفور» على الأخطار الكامنة في المخططات الأوربية، لأنها تطرح صورة للمواجهات عن منطقة البحر المتوسط توحي بأنها بين أوربا المسيحية من جانب والصحوة الإسلامية من جانب آخر، وأن أوربا المسيحية أصبحت تستخدم الدولة اليهودية درعًا لها فيما سوف يبدو لعرب عديدين صيغة عصرية للحروب الصليبية على مشارف القرن الواحد العشرين، وأن هناك مشاعر مكبوتة عارمة وإحساسًا طاغيًا بالإحباط عم أمتنا العربية بأسرها وأن مخططات السلام لا بد وأن تبدو في مثل هذا السياق مؤامرة صليبية صهيونية تستهدف تجريد الأمة العربية من روحها ومن هويتها .

وقد نبه الأستاذ «محمد سيد أحمد» إلى أن المؤسسات الأوربية ليست فقط بصدد ضم إسرائيل إليها، بل إنها في الوقت نفسه تعمل من أجل حث الأقطار العربية على التسليم بدور متميز لإسرائيل في المنطقة (١) .

فليقولها صريحة : صراع ديانات أو حضارات !! دماء مسفوحة في قدس الذاتية ؟ صح !!

هكذا قلنا منذ مطلع هذا القرن !

وهكذا ندفع اليوم فاتورة الحساب !

آسف : لم نقلها نحن منذ مطلع هذا القرن، ولكن قالها قوادهم ومخططوهم، وسياسيوهم، ومؤتمراتهم . . . !!

قالها القس «زويمر»، والقس «جيمس كانتين»، والقس «ينغ»، والقس «إكسنفلد»، والقس «سيمون» (٢) .

---

(١) انظر جريدة الوفد ١٩٩١/٨/٥م، والأهالي ١٩٩١/٧/١٣م .

(٢) انظر سعيد حارب في كتابه (الخليج العربي أمام التحدي العقدي) والغارة على العالم الإسلامي، والصفحات السابقة من هذا الكتاب .

وقالها «ويليام جيفورد» و«يلجراف» في المؤتمر التبشيري بلكنو (متى توارى القرآن ومكة عن بلاد العرب، يمكننا أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة (!!!) التي لم يبعدها عنه إلا محمد وكتابه) .

وقالها اللورد «هانوتو »: (إن الدين الإسلامي يبعث في الإنسان الخمول والكسل ولا يوقظه منهما، وإن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد؛ لأن الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا علمًا ومدنية نجحت) .

قالوها ثم جاءت سلسلة الأحداث لتصدق ما قالوا :

في تركيا، ومصر، وفلسطين، ولبنان، وقبرص، وفي شرق أوربا في بلغاريا، ويوغوسلافيا .

وفي الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي، وفي الفلبين، وكشمير، وأندونيسيا، وفي نيجيريا وإريتريا وتنزانيا وجنوب السودان. . إلخ وفيما يحدث للمتحجبات في فرنسا، وبريطانيا (!!) .

لكن هل وصلنا بهذا إلى القاع الذي لا قاع بعده، وعندئذ لم يبق إلا الصعود كما يقول أصحاب التغيير المادي الميكانيكي للأحداث ؟! .

كلا، فهناك في اتجاه القاع ما هو أسفل منه، إلى باطن الأرض .

إلى عملية الاستئصال .

لا تستغربوا .

واقرءوا مراسيم الملكة جوانا « عودة إلى الأندلس » !! مرة أخرى .

* * *

شرقنة الإسلام

رفقًا بعقولنا أيها السادة ؟

كيف تريدون منا أن نرجع هذه العداوات جميعًا إلى سوء العرض منا ؟؟ أو سوء الفهم منهم ؟

أهو الإعلام الغربي ؟

فأنى لدعاة الإسلام أن يخترقوا سور الصين الإعلامي العظيم هذا ؟ بينما أن «الإعلام» في بلادنا قد تم اختراقه من هناك ؟ إن القوم في الغرب صنعوا لأنفسهم هذا السور ضد الإسلام بإرادة ووعي !!

فأين مسئولية البشر داخل هذا السور ؟؟

كيف يقال إنهم ضحايا هذا السور ؟؟

ألم يخترق جماهيرهم أسوارًا ضربت عليها من قبل ؟

وإلا فقولوا لنا :

لماذا كانت إذن ثورة البروتستانت على وصاية الكاثوليكية ؟

ولماذا كانت إذن الثورة الفرنسية على الكنيسة والإقطاع ؟

ولماذا كانت إذن الثورة الروسية على الإقطاع والرأسمالية ؟

ولماذا كانت إذن المقاومة الدامية في الحرب العالمية الثانية ضد النازية ؟

أليس من الظلم الخبيث أن يجري تبسيط القضية بإغفال مرتكبها العاتي هذا ليشار بعد ذلك إلى المتهم بغير دفاع : سوء العرض منا ؟

وإذا كان من الحق أن سور «الصين» الإعلامي الغربي الحديث- مع توابعه من أبواق الإعلام الشرقي ...

هو ما يقطع الطريق بين الحضارتين إلى حسن الفهم أو حسن العرض . . .

فإن جريمة «المؤسسة الاستشراقية» هي الرافد الأساسي لهذا السور، وهي العامل الأساسي في تشويه صورة الإسلام عمدًا في الغرب .

واسألوا «إدوارد سعيد» عن ذلك، عما أسماه « شرقنة الشرق» في معسكر الاستشراق، هذه الشرقنة التي وضعت الإسلام في سجن التصور الاستشراقي منذ صلة أوربا بالشرق حتى اليوم .

فأنى لنا أن نخرجه من هذا التصور السجين بينما لا يزال كبار المثقفين منا يُحرقون البخور تحت أقدام المستشرقين ؟

إنه بالرغم من ادعاء الغرب الموضوعية في المنهج العلمي فقد أصبح من الواضح - طبقًا لدراسة «إدوارد سعيد» أنه فقد هذه المنهجية تمامًا في دراسته للشرق في جميع أدواره، إذ أصبح الشرق عنده هو الشرق الذي يصنعه لأغراض في المعرفة والسلطة، أو هو الشرق الذي يشرقنه « على حد تعبير إدوارد سعيد».

وكما يقول «نورمان دارييل» - حسب الدراسة التي أشار إليها د. «إدوارد سعيد»[1]: لم يكن الغرب ليقبل أن ما يقول المسلمون إنهم يؤمنون به هو فعلاً ما يؤمنون به إلا بدرجة كبيرة من التقاعس .

فقد كان ثمة صورة مسيحية ـ أي عن الإسلام - لم يتخل الغرب عن تفاصيلها- حتى تحت ضغط الحقائق الواضحة ـ إلا إلى أدني درجة ممكنة، أما خطوطها العامة فإنه لم يتخل عنها أبدًا .

وكانت جميع التصويبات التي أدخلت . . . مجرد دفاع عما كان قد اتضح حديثًا أنه عرضة للنقد، أي تدعيمًا لبنية طرأ عليها الضعف، فالرؤية المسيحية كان نُصبًا عاليًا لم يكن يمكن أن يقوض حتى من أجل إعادة بنائه) .

وقد ازدادت ـ كما يقول د. «إدوارد سعيد» ـ هذه الصورة المسيحية الصارمة للإسلام حدة وتوترًا بطرق لا تحصي .

كان بينها ـ خلال العصور الوسطي وأوائل عصر النهضة تشكيلة واسعة . .

(١) الاستشراق : الإنشاء . المعرفة . السلطة . للدكتور : إدوارد سعيد

وبحلول هذا الوقت كان الشرق الأدنى قد أدغم تمامًا في التصور المسيحي اللاتيني للعالم، على نحو ما حدث في أغنيـة «رولان»، حيث تصور عبادات العرب على أنها تشمل ماهومت، وأبولو (١) .

وماهومت في اللفظ الأوربي هو محمد ﷺ !!

يقول د. «إدوارد سعيد»: (لم يصبح الإسلام رمزًا للرعب والدمار والشيطان وأفواج من البرابرة الممقـوتين بصورة اعتباطية ! فبالنسـبة لأوربا كان الإسلام رجة مأساوية دائمة)، والأهم من ذلك هو مـا يذكره «إدوارد سعيد» من أن أوربا لكي تمتص هذا الخطر الكئيب بالنسبة لأوربا حـولته (شيـئًا منسوجًـا في لحمة الحـياة الأوربية، وفي إنجلترا عصر النهضة وحدهـا كما يورد «صموئيل تشو» في دراسته الكلاسيكـية « الهلال والوردة» كـان أي رجل متـوسط التعليم والذكـاء «يجد في متناوله ويستطيع أن يرى على مسارح لندن عددًا كبـيرًا نسبيًا من الأحداث المفصلة في تاريخ الإسلام» ، والنقطة الهامة في ذلك - كمـا يذكر «إدوارد سعيد» - هي أن ما ظل متداولاً حول الإسلام كان صورة معدلة مصغرة عن تلك القوى العظيمة الخطرة التي صار الإسلام رمزًا لها في أوربا (٢) .

ومن تلك الصور المـعدلة وبتعـبير أدق المشـوهة ــ والتي أثرت على المفكرين المسيحين الذين حـاولوا فهم الإسلام : قياسهم شخـصية محمد (على شـخصية المسيح) فقـد افترض بطريقة خـاطئة تمامًا أن محـمدًا كان للإسلام ما كـانه المسيح للمسيحية، ومن ذلك : (إطلاق التسمية التماحكية «المحمدية» على الإسلام).

وأصبح التصـور المسيحي للإسلام ليـس هو الإسلام نفسه بقدر مـا هو تمثيل الإسلام للمسيحي في القرون الوسطى(٣) .

---

(١) المصدر السابق صـ ٩٠

(٢) الاستشراق : إدوارد سعيد صـ ٨٩

(٣) المصدر السابق صـ ٩٠ .

يقول د. «إدوارد سعيد» في عرضه لهذه القـضية : (إن الثقافات كانت دائمًا تميل إلى إخضاع الثقافات الأخري لتحـولات كاملة، متلقية إياها لا كما هي، بل من أجل مصلحة المتلقي كما ينبغي أن تكون) ثم يؤكد أن المستشرق يفعل ذلك : (من أجل نفسه، ومن أجل ثقافته، وفي بعض الحالات من أجل ما يظنه مصلحة الشرقي !!) (1) .

وإذ يذهب د. «إدوارد سعيد» إلى أن الإسلام ــ بفـعل الاستشراق ــ قد مثل تمثيلاً سيئًا في الغرب فإنه يرجع الأمر إلى طبيعة أي تمثيل .

فهو بحكم طبـيعتة متـورط متشابك منسـوج مع عدد كبير جـدًا من الأشياء الأخري إلى جانب الحقيقة» (2) .

وتمثيل المسـتشرق هنا هو تمثيـل لجوهر (لا يؤمن المستشـرق بوجوده ذرة من إيمان، بل إنه يفعل ما يفعل عادة لخدمة غـرض، وتبعًا لنزعة ما في وضعية إطارية تاريخية وفكرية، بل حتى اقتصادية معـينة) ثم يقول (والتمثيلات تشكيلات ــ أو كما قال «رولان بارت» . . التمثيلات إفـساد لتشكيلات) . (والمستشرق إلى حد بعيد جدًا، يزود مجـتمعه بتمثيلات للشرق: تحـمل طابعه المميز الخاص، وتوضح تصوره لما يمكن لـلشرق أو ينبغي له أن يكون، وتتـحدي تحـديًا واعيًا وجـهة نظر إنسان آخـر إلى الشرق، وتستجـيب لمتطلبات معـينة : ثقافيـة ومهنية، وقومـية، وسياسية، واقتصادية تفرضها الحقبة التاريخية)(3) .

وتستمر عملية التزييـف للإسلام ــ في الرؤية الغربية ــ منذ العصور الوسطي إلى اليوم .

يقول د.« إدوارد سعيـد» : (هكذا نجد في القرنين الثاني عشـر والثالث عشر

(1) المصدر السابق صـ ٩٤-٩٦

(2) الاستشراق صـ ٢٧٤

(3) المصدر السابق صـ ٢٧٥ .

تصديقًا عامًا لكون الجزيرة العربية على حواشي العالم المسيحي ملجأ طبيعيًا للهراطقة العصاة . بينما يأتي مستشرق باحث ومختص ألمعي زلق في القرن العشرين ليشير إلى أن الإسلام ليس في الحقيقة إلا هرطقة آرية من الدرجة الثانية) .

وفي كتاب هام « المكتبة الشرقية » «لبارتيلمي ديربيلو» ـ كتب في آخر القرن السابع عشر[1] وظل المرجع الرئيسي السائد في أوربا حتى أوائل القرن التاسع عشر، نجده يقول عن أشرف خلق الله : (هذا هو المنتحل المشهور ماهومت، المؤلف والمؤسس لهرطقة اتخذت لها اسم الدين نسميها نحن «الماهومتية» . . . وقد نسب مفسرو القرآن، وفقهاء الشريعة الإسلامية أو الماهومتية إلى هذا النبي المزيف كل المدائح التي نسبها الآريون والبولسيون والهراطقة الآخرون إلى يسوع المسيح مجردين إياه في الوقت نفسه من ألوهيته . . .)[2] .

وهل يعرف القارئ ماذا فعل « دانتي» في جحيمه الذي احتفل به نُخبة المثقفين في البلاد الإسلامية في العصر الحديث، ورأوا فيه هرمًا عاليًا من أهرامات الثقافة الأوربية، وقمة من قمم الأدب الأوربي، وأخذوا يقارنون بينه وبين رسالة الغفران، ويعقدون الصلة بينهما دون أن يشيروا ولو من طرف خفي إلى تشويهه للإسلام ؟

إنه وضع «موميتو» في الدائرة الأعمق من الجحيم . . فقبل أن يبلغ «دانتي» إلى «موميتو» في رحلته في الجحيم يمر عبر دوائر تحتوي على أناس آثامهم من مرتبة أدنى حتى إذا وصل إلى «موميتو» فإنه لا يبقي بعده في الدائرة الأعمق غير «يهوذا» و«بروتس»، ثم يصل إلى قعر الجحيم، حيث يوجد الشيطان ذاته[3] .

ولا نحدثك عن العقاب الذي فصله تفصيلاً في هذه الدائرة فهو مما لا يطاق ذكره في هذه الإشارات[4] .

---

(١) المصدر السابق صـ ٩٣ .
(٢) المصدر السابق صـ ٩٤ .
(٣) المصدر السابق صـ ٩٦ .
(٤) المصدر السابق صـ ١٠٣

وبالرغم من أن «سيمون أوكلي» في كتابه « تاريخ العرب» الصادر عام١٧٠٨م قد أوضح دائمًا (أن الإسلام كان هرطقة مستنكرة) فإن كشفه لحقيقة أن الأوربيين يدينون للمسلمين بأول ما عرفوه عن الفلسفة كان صدمة مؤلمة للجمهور الأوربي، أدت إلى طرده من كمبردج عام ١٧٠٩م.

والحقد الأكبر لأوربا ضد الإسلام فيما يقوله «هنري بيرس» . . يبدأ من ظهور الإسلام إلى اليوم إذ كانت نتيجة الغزو الإسلامي الذي بدأ في القرن السابع إزاحة مركز الثقافة الأوربية بعيدًا عن البحر الأبيض المتوسط الذي كان آنئذ منطقة غربية وباتجاه الشمال(١) .

وقد كان الشرق الإسلامي بخاصة هو الذي تحدى حركة الاستعمار الأوربي في العصر الحديث .

فـ (بالنسبة لأوربا كان الشرق ــ باستثناء الإسلام ــ حتى القرن التاسع عشر ميدانًا ذا تاريخ مستمر من السيطرة الغربية التي لم تتحد . . إلا أن الشرق العربي والإسلامي بشكل عام كانا الوحيدين اللذين واجها أوربا بتحد لم تجد له حلاً على الأصعدة السياسية والفكرية، ولزمن قصير : الاقتصادية أيضًا .

لقد كان الإسلام دون شك استفزازًا حقيقيًا بطرق عديدة . فقد كان قريبًا من المسيحية قربًا مقلقًا جغرافيًا وثقافيًا . . وكان بمقدوره أن يفاخر بنجاحات لا تنافس عسكريًا وسياسيًا، بل إن ذلك لم يكن كل شيء، فالأصقاع الإسلامية مجاورة للأصقاع التوراتية، بل حتى فوقها، وأكثر من ذلك فإن قلب المجال الإسلامي كان دائمًا ولا يزال الإقليم الأكثر قربًا إلى أوربا .

ومنذ نهاية القرن السابع حتى معركة ليبانتو عام ١٥٧١م كان الإسلام في شكله العربي والعثماني أو شمال الإفريقي والأسباني قد طغي على المسيحية الأوربية أو هددها تهديدًا فعالاً، ولم يكن ممكنًا أن يغيب عن ذهن أي أوربي ــ ماضيًا أو حاضرًا ــ كون الإسلام قد فاق روما إشعاعًا وسما عليها .

---

(١) المصدر السابق صـ ٩٨ .

ولم يكن «غيبـون» نفسه استثناء من هذه القـاعدة ـ في كتابه الشهـير انحدار الإمبراطورية الرومانـية وسقوطها - إذ يقول عن الفتح الـعربي الإسلامي: (غزا هؤلاء الخلفاء الإسـلاميـون - . . خلفاء «أغسطس» و«إرتاكـسيـركس»، وأصبح الملوك المتنافسون في الوقت نفسه فريسة لعدو كانوا لزمن طويل جدًا قد اعتادوا أن يحتـقروه، وخلال عـشر سنوات من حكم عُمـر أخضع العرب لطاعـته ٣٦ ألف مدينة وقلعة، ودمروا أربعـة آلاف كنيسة ومعبدًا للكافـرين وشيدوا ١٤٠٠ جامع لمارسـة ديانة محمد (!!) وعـبر مائة سنة من هربه من مكة (هكذا . .) امـتد نفوذ خلفـاء محمد (!!) وسلـطانهم من الهند إلى المحيط الأطلسي عبـر الأقاليم المختلفة والنائية) [١]

وفي العصر الحديث نجد «نابليون» يعتـمد في حملته على مصر على دراسات «كونت دوفولني» ـ وهو رحالة فرنسي نشـر كتابه « رحلة إلى مصر وسورية» في مـجلدين عام ١٧٨٧ م، وكـان «فولني» يـرى : أن ثمة ثلاثة حـواجز في وجـه السيطرة الفـرنسيـة في الشرق، وأن أية قوة فـرنسية لا بـد أن تحارب لذلك ثلاثة حروب : الأولى ضد إنجلترا، والثانية ضد الباب العالي العثماني، والثالثة : وهي أكثرها صعوبة : ضد المسلمين[٢] .

ولقد آمن فيكتور هوجـو بمجد نابليون التكتيكي في حملته الشرقـية، وجسده في قصيدة رآه فيها :

ابن المعجزة أذهل أرض المعجزات .
وملأ الناس خوفـًا بجيوشه التي لم يكن لها سابق .
ونبيلاً جليلاً ظهر للقبائل المذهولة .
مثل ماهومت غربي [٣] .

(١) نقلاً عن غيبون : الاستشراق لإدوارد سعيد صـ ١٠١ ـ ١٠٢ .
(٢) الاستشراق صـ ١٠٧، صـ ١١١ .
(٣) المصدر السابق صـ ١٠٩ .

ويري د. «إدوارد سعيد» في كتاب «وصف مصر» الذي كان الثمرة العلمية ـ التي يفخر بها المصريون اليوم ـ والذي طبع في ثلاثة وعشرين مجلدًا ضخمًا بين ١٨٠٩م و ١٨٢٨م، يري فيه (المصادرة التملكية العظيمة لبلد من بلد آخر)، حيث انطلق الباحثون من تصور عبر عنه «فوربييه» في مقدمته للكتاب من أن مصر بلد (غارق الآن في البربرية) تغزوه (حضارة بلغت حد الكمال)، الأمر الذي دفع الكاتبين إلى أن يكتبوا من منظور سابق: فأخذوا (يشكلون من كل جزئية تُلاحظ تعميمًا، ومن كل تعميم قانونًا لا يتغير للطبيعة الشرقية)، وبهذا (يزيح الوصف التاريخ المصري أو الشرقي عن موضعه من حيث هو تاريخ له تماسكه الداخلي والخاص، وهويته ومعناه) وصار « وصف مصر » كما يقول «إدوارد سعيد» (النمط الأعلي لجميع الجهود التالية التي بذلت لتقريب الشرق من أوربا ومن ثم لامتصاصه نهائيًا)(١) .

ويأتي الاستعمار الغربي بعد ذلك .

ليتعامل مع البلاد الإسلامية من منظور استعلائي يقول د. «إدوارد سعيد» (لا ينكر «بلفور» (٢) في أي سياق فوقية بريطانيًا ودونية مصر) وهو يقول في خطبة له بمجلس العموم مبررًا احتلال مصر (إن الأمم الغربية فور انبثاقها في التاريخ تظهر تباشير القدرة على حكم الذات لأنها تمتلك مزايا خاصة بها، ويمكنك أن تنظر إلى تاريخ الشرقيين بأكمله دون أن تجد أثرًا لحكم الذات على الإطلاق، كل القرون العظيمة التي مرت على الشرقيين، ولقد كانت عظيمة جدًا (!!) انقضت في ظل الطغيان) وماذا يعني هذا في منطق «بلفور ». إنه يعني أنه (خير لهذه الأمم العظيمة (!!) أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق عليها)(٣) .

---

(١) المصدر السابق صـ ١١٠، صـ ١١١ .

(٢) هو آرثر جيمس بلفور هو شخصية سياسية بريطانية مرموقة في أوائل القرن العشرين خدم بلده في المناصب العليا، وكان وزيرًا للخارجية ورئيسًا للوزراء ونائبًا بالبرلمان البريطاني لمدة طويلة .

(٣) الاستشراق د. إدوارد سعيد ـ ترجمة كمال أبوديب طبعة ١٩٨١م صـ ٦٤ ـ ٦٥

ويقرر اللورد «كرومر» رؤية الغرب للشرق في (أن الدقة كريهة بالنسبة للعقل الشرقي) بينما الأوربي (ذو محاكمة عقلية دقيقة، وتقريره للحقائق خال من أي التباس، وهو منطقي مطبوع)[١]، ويستمر قائلاً: (يظهر الشرقيون سذجًا غافلين، محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة مجبولين على الإطراء الباذخ والدسيسة والدهاء والقسوة على الحيوانات، والشرقيون عريقون في الكذب، وهم كسالي وسيئو الظن، وهم في كل شيء على طرف نقيض من العرق الأنجلو سكسوني في وضوحه ومباشرته ونبله)[٢] . والغرب عندما يتعامل مع الشرق من هذا المنظور الاستعلائي في بداية القرن فقد كان ذلك (لأن تراثًا من الاستشراق أقدم من تراث القرن التاسع عشر زودهم بمفردات وصور وبلاغة ومجازات ليقولوه بها) [٣] .

* * *

لقد كان لا بد ـ تحت رعاية الأدب ـ أن يتجذر العداء في قلب الأوربي المثقف ـ الذي يقرأ ـ على سبيل المثال من عيون الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر في رواية والترسكوت (الطلسمان) ما جاء على لسان المسيحي ـ في أيام صلاح الدين ـ وهو يكتشف عدوه المسلم، ما يأتي : ـ

(لقد اعتقدت أن عرقك الأعمي قد انحدر من سلالة الشرير الرجيم الذي ما كنتم لتستطيعوا دون عونه أن تحتفظوا بأرض فلسطين هذه في وجه هذا العدد من جنود الله الشجعان (يقصد الصليبيين !!) وأنا لا أتحدث بهذه الطريقة عنك أنت بالذات ـ أيها المسلم ـ بل بشكل عام (!!) عن قومك ودينك، ومع ذلك فالغريب في نظري ليس أنك تنحدر من سلالة هذا الشرير، بل إنك ـ أيضًا ـ تفاخر بذلك) .

(١) المصدر السابق صـ ٦٩ .
(٢) المصدر السابق صـ ٧٠ .
(٣) الاستشراق : إدوارد سعيد صـ ٧٢ .

وفي هذا النص ـ فضلاً عن أثره في وجدان الأوربي ـ يظهر التعالي المتمثل في لعنة شعب بأكمله « بشكل عام» مع شيء من الأدب النفاقي الذي يجيده هؤلاء في عبارة « أنا لا أقصدك أنت بالذات» .

وكما يقول د. «إدوارد سعيد» : (إن الأمر ليبدو كما لو أن ثمة برميلاً اسمه «الشرقي » تطرح فيه دون تفكير جميع آراء الغرب السلطوية، اللامنسوبة، التقليدية حول الشرق) [1] .

وماذا يمكن أن يترسخ في وجدان الأوربي - المثقف بخاصة - وهو يقرأ لعلم من أعلام الأدب الفرنسي «فلوبير» في قصته «معجبة الشرق»: (منذ زمن اعتاد صوفي أن يسير في شوارع القاهرة عاريًا تمامًا فيما عدا طاقية على رأسه وأخرى على عضوه، ومن أجل أن يبول كان يرفع طاقية العضو، فتركض النساء العاقرات اللواتي أردن الإنجاب إليه، ويضعن أنفسهن تحت قوس بوله، ويبللن أنفسهن به) .

وهكذا كما يقول د. «إدوارد سعيد» يصبح الشرق معرضًا حيًا للشذوذ، ويظهر هذا المنحى ـ حتى في أعمال المستشرقين الجادين، فقد قال كارل بكر: (إنه رغم أن الإسلام ـ لاحظ الصفة التعميمية الهائلة على حد تعبير «إدوارد سعيد» ـ ورث التراث الهيليني فإنه لم يكن قادرًا على أن يفهم أو يستخدم التراث اليوناني الإنساني !!

وعلاوة على ذلك فمن أجل أن يفهم المرء الإسلام عليه قبل كل شيء أن يعاينه لا بوصفه « دينًا » أصيلاً ؛ بل بوصفه شيئًا من محاولة شرقية فاشلة لاستخدام الفلسفة اليونانية في غيبة للإلهام الخلاق الذي نجده ـ كما يقول بكر ـ في أوربا عصر النهضة) هكذا !

كما يظهر في رؤية «لويس ماسينيون» - الذي قد يكون أعظم المستشرقين الفرنسيين شهرة وتأثيرًا - الذي كان يرى أن أعظم رجال الإسلام - لم يكن

(١) الاستشراق لإدوارد سعيد صـ ١٢٥ .

محمد ﷺ !! ، أو «ابن رشد»، بل «الحلاج» القديس المسلم الذي صلبه المسلمون السنيون لجرأته على شخصنة الإسلام [1] .

وهو يقصد بهذه الشخصنة ذلك النوع من التجسد المسيحي للإله، الذي يلاحظ «ماسينونه» أن الإسلام يرفضه (رفضًا منظمًا . .) كما يقول .

وفي عرف الاستشراق - كما يقول «إدوارد سعيد» - (كان للإسلام معني يمكن أن يوجد - في صياغة هي الأكثر دقة وجلاء - في رسالة «رينان» الأولى، فمن أجل أن يفهم الإسلام فهمًا أفضل ينبغي أن يقلص إلى «الخيمة والقبيلة»)[2] .

وتستمر هذه النظرة الاستعلائية العدائية عند المستشرقين المحدثين ــ في منتصف القرن العشرين ــ تظهر فيما ذكره «إتش . أي . آر . جب» في سلسلة محاضراته في جامعة شيكاغو عام ١٩٤٥م، إذ يقول : صحيح أنه وجد بين الشعوب الإسلامية فلاسفة عظماء، وأن بعضهم كانوا عربًا، غير أنهم كانوا استثناءات نادرة، فالعقل العربي سواء في علاقته بالعالم الخارجي أو في علاقته بالعمليات الفكرية يعجز عن أن يتخلص من شعوره الجارف الحاد بانفصالية الأحداث المحسوسة وفرديتها، وهذا بالذات ــ فيما أعتقد ــ أحد العوامل الرئيسية التي تكمن وراء ظاهرة «فقدان الحس بالقانون» التي اعتبرها الأستاذ «ماكدونالد» فرقًا مميزًا في الشرقي . وهذا هو أيضًا ما يوضح ما يجد الطالب الغربي صعوبة كبيرة في فهمه ــ نفور المسلمين من العمليات الفكرية العقلانية) .

وعن أثر «جب» في المناخ الثقافي الأوربي من جهة فهمه للإسلام يقول «إدوارد سعيد»: إن تحيز «جب» بالرغم من معرفته الفائقة التي تظهر في كتابه، أو بسببها على الأرجح (يظل عقبة كأداء في وجه كل من يحاول أن يفهم الإسلام الحديث) [3] .

---

(١) المصدر السابق صــ ١٢٧ .

(٢) الاستشراق صــ ١٢٨ .

(٣) الاستشراق لإدوارد سعيد صــ ١٢٩

وبالنسبة لموقف الغرب من الشرق عمومًا شاملاً ــ الإسلام بوجه خاص ــ لا يسعنا أن نتجاهل موقف «كارل ماركس» من الاستعمار الإنجليزي للهند في القرن التاسع عشر . فالبرغم من أنه كان ينعته بأنه (مدفوع بأكثر المصالح قذارة . .) إلا أنه كان يري فيه رسالة إحيائية تجديدية، يقول : (إن على إنكلترا أن تحقق في الهند رسالة مزدوجة : الأولي تدميرية، والثانية إحيائية تجديدية، إفناء المجتمع الأسيوي، وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا) .

ويري في هذا العمل بالرغم مما فيه من تعذيب، وافتراس لأرواح لا تحصي ــ يمكن أن يقاس على حكم «تيمورلنك» ــ فإنه (يهبنا متعة أعظم) على حد قول «جوته» وهو يستشهد به[1] .

وماذا عن «توماس كارليل» الذي يستشهد به في مجال الإنصاف للإسلام بناء على ما كتبه في (الأبطال) عن محمد ﷺ ؟

بالرغم من أن «كارليل» لا يتهم محمدًا بالكذب ــ شأن كثير غيره من المستشرقين ــ إلا أنه كان يري أن محمداً هو مؤلف القرآن، وأن القرآن ــ وناقل الكفر ليس بكافر ــ (هو خليط مهلهل مشوّش ممل خام مستغلق، تكرار لا نهاية له، وإسهاب وإطناب، ومعاظلة، خام إلى أقصي الدرجات، مستغلق وبإيجاز : غباء فارغ لا يطاق)[2] .

وفي كتاب : رحلة من باريس إلى القدس (١٨١٠م ــ ١٨١١م) يتحدث «شاتو بريان» عن القرآن بأنه لم يحتو على أي « مبدأ للحضارة، أو أي تعليم يسمو بالشخصية» ثم يتمادي المستشرق ليمجد الحرب الصليبية باعتبار أنها (لم تدُر حول إنقاذ كنيسة القيامة فحسب، بل دارت حول معرفة من سينتصر : مذهب تعبدي هو عدو للحضارة محبذ ــ باطراد ــ للجهل، وللطغيان، وللعبودية

(١) الاستشراق صـ ١٧١ .

(٢) انظر الاستشراق لإدوراد سعيد ص ١٦٩، ونحن لسنا بحاجة إلى الوقوف بجدية أمام هذا النقد الأبله، الموجه إلى لغة القرآن من جاهل بلغة القرآن العربية ولو كان مستشرقًا ! .

ـ أي الإسلام ـ أو مذهب تعبدي يوقظ في البشـر المعاصرين عبقرية الزمن الغابر الحكيم، ويلغي العبودية الدنيئة) هكذا !!

وكان هذا كما يقول «إدوارد سعيد»: أول ذكر مهم لفكرة قدر لها أن تكتسب سلطة خرقاء: أوربا التي تـلقن الشرق معني الحرية، وهي - أي الحرية - مـفهوم آمن «شاتو بريان»، وكل من جـاء بعده بأن الشرقيين - وخصـوصًا المسلمين - لا يعرفون شيئًا عنه، يقول: « عن الحرية لا يعرفون شيئًا، من الاحتشام ليس لديهم شيء (!!)

« القوة هي ربهم »[1].

لقـد هـاجـم مـؤرخـون ثـقـافـيـون محـترمـون (!!) مـثل «ليوبولدفـون رانكـه» و«جـاكـوب بيركـهـاردت» الإسـلام بعنف، فـفي كـتـابه تاريخ العـالم (١٨٨١م ـ ١٨٨٨م) تحدث ـ طبقًا لدراسة «إدوارد سعيد» ـ رانكه عن الإسلام ليصف هزيمته أمام الشعوب الجرمـانية الرومانية ، وفي «شذرات تاريخية» ١٨٩٣م تحدث «بـيركهـارد» عن الإسلام كـشيء بائس، عار، تافـه، وقد قـام بمثل هذه العمليات بمهارة وحماسة أبلغ بكثير «أوستفالد إسبنغلر» في كتابه « تدهور الغرب» ١٩١٨م ـ ١٩٢٢م ! [2]

وهكذا كان «نولدكة» وهو يعلن عـام ١٨٨٧م: أن خلاصة عمله كمسـتشرق كانت تأكيد رأيه في « المنزلة الوضيعة» للشعوب الشرقية .

ويقدم «جاك فاردنبرج» في دراسته (الإسـلام في مرآة الغرب) دراسة لخمسة خبراء مهمين كصانعين لصـورة معينة للإسلام، وفي عمل كل منهم تظهر (درجة عالية من الـتحيز، بل حتى من العـدائية لدى أربعة منهم، كمـا لو أن كل كاتب منهم رأى الإسلام انعكاسًا لضعفه الخاص) .

---

(١) الاستشراق صـ ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٢) الاستشراق صـ ٢١٩ .

وفي مجموعهم يمثل هؤلاء المستشرقون الخمسة [1]: الأفضل والأقوي في تراث الاستشراق خلال الفترة الواقعة بين عام ١٨٨٠م، وسنوات ما بين الحربين العالميتين، وهم بالرغم من الفروق الظاهرة في دراستهم فقد كانت تلك الفروق أقل أهمية من إجماعهم الاستشراقي على طبيعة الإسلام: دونية كامنة [2]، وقد صاغ هؤلاء الخمسة (رؤيا للإسلام كان لها تأثير واسع على الدوائر الحكومية عبر العالم الغربي بأكمله) حيث كانت لهم وظائفهم في الإدارات الاستعمارية في الغرب . [3]

ويبلور «ماكدونالد» ميزة الشرقي (المسلم) في (فقدان الحس بالقانون، فبالنسبة إليه ليس ثمة نظام مُرتّب للطبيعة راسخ لا يتزحزح) (وإذا بدت هذه النظرة - كما يقول د. «إدوارد سعيد» عاجزة عن أن تفسر الإنجازات الفائقة التي حققتها العلوم الإسلامية التي بني عليها قدر عظيم من العلوم الحديثة فإن «ماكدونالد» يظل صامتًا ويستمر في دعواه)[4].

ثم يقول «إدوارد سعيد» : لا شيء من هذا طبعًا جديد . . فمن «شليغل» إلى «رينان»، ومن «روبرتسن سميث» إلى «ت . أ . لورنس» تكرر هذه الأفكار، ويعاد تكرارها، فهي تمثل قرارًا يتعلق بالشرق لا حقيقة من حقائق الطبيعة بأي شكل، وكل إنسان مثل «ماكدونالد» و«جب» دخل واعيًا مهنة اسمها الاستشراق فعل ذلك بناء على قرار متخذ : إن الشرق هو الشرق) [5] وكفي !

وكيف ينظر مستشرق شهير معاصر ـ «فون جرونباوم» ـ إلى الإسلام؟ إنه كما يقول د. «إدوارد سعيد»: (لا يجد «فون غرونباوم» من صعوبة في الافتراض بداهة أن الإسلام ظاهرة أحادية وحدانية، بخلاف أي ديانة أو حضارة أخرى، ثم

(١) هؤلاء جولدزيهر، ودنكن بلاك ماكدونالد، وكارل بكر وسى سنوك هيرغرونج، وماسينون .
(٢) المصدر السابق صـ ٢٢٠ .
(٣) المصدر السابق صـ ٢٢١ .
(٤) الاستشراق صـ ٢٧٨ .
(٥) الاستشراق صـ ٢٧٩ .

يمضي بعـد ذلك ليظهر الإسـلام ضد ـــ إنساني، عـاجزًا عن التطور، ومـعرفـة الذات، والموضوعية، إضافة إلى كونه عقيمًا غير خلاق، لا عليمًا، وسلطويًا).

وقـد سقط «فـون غـرونبـاوم» فريسـة لشـيـئين في آن واحد : المـذهبيـات الاستشراقـية الذي ورثها، والملمح الخاص للإسلام الذي اختـار أن يؤوله باعتباره قصـورًا : وهو أن في الإسلام نظرية دينية مـفصحًا عنهـا بصورة دقيقـة، وعددًا ضئيلاً جدًا، مع ذلك، من المسارد للتجربة الدينية؛ ونظريـة سياسية مُفصَحًا عنها بصورة دقيقة، وعددًا ضئيلاً من الوثائق السيـاسية؛ ونظرية في البنية الاجتماعية، وعددًا ضئيلاً جدًا من الأفعال المفردنة، ونظرية في التاريخ، وعددًا ضئيلاً جدًا من الأحداث المؤرخـة؛ ونظرية مفصـحًا عنها في الاقـتصاد وعـددًا ضئيـلاً جدًا من السلاسل المقاسـة كميًا، وهكذا . . والحـصيلة النهائية هي رؤيا تاريخـية للإسلام مصـابًا بالعرج كليًا بنظرية لثـقافة عاجـزة عن أن توفى واقعه الوجودي حـقه، أو حتى أن تكتنهه في تجربة معتنقيه، وإسلام «فون غرونباوم»، بعد كل حساب، هو إسلام المستـشرقين الأوروبيين المبكرين ــ موحـد متناغم، مزدرٍ للتجربـة الإنسانية العادية، إجمالي، تقليصي، لا متغير [1].

إن وجهـة نظر كهذه في الإسـلام هي، في أعماقـها، وجهـة نظر سياسـية، وليست، حتى بطريقة استبدالية لبقة، نزيهة متجردة .

وفي الوقت الذي ينظر فيه «الكونت دوكريساتي» إلى سـوريا باعتبارها (شرق فرنسـا الخاص) وفـقًا لما أعلنه في مـحاضـرة ألقاها على مـا يسمى « التـحالف الفـرنسي » عام ١٩١٣م ،فـإنه كان يطرح ــ أيـضًا ــ منظومـته في أنه (إذا كـان لفرنسا أن تستمر في منع « عودة الإسلام» فقد كان من الخير لها أن تحتل الشرق) وقد كررت هذه الآراء في مناسبات كثيرة [2] .

---

(١) الاستشراق صـ ٢٩٧ ــ ٢٩٨ .

(٢) الاستشراق صـ ٢٣٣ .

وفي مكان آخر في جامعة شيكاغو عام ١٩٢٤م نجد «فالنتاين شيرول»، وهو رجل صحافة معروف وتجربة عظيمة في الشرق، يقرر في منظومته الفكرية بكراهية ظاهرة: أن « المحمدية» هي أحد القوي العالمية العظيمة المسئولة عن أعمق خطوط الانقسام في العالم [١] ويعلق د. «إدوارد سعيد» على هذا التناول الاستشراقي للشرق والإسلام بأنه مناقض لما يزعمه لنفسه من ثقافة تحررية، وهو على العكس من ذلك يمثل: تصلب المذهب والمعنى الذي حوله التظاهر بالعلم إلى حقيقة !!

ويعني هذا المنظور الفكري الذي تبنته المؤسسة الاستشراقية عن الإسلام، يعني على صعيد عملي ـ على حد قول «إدوارد سعيد»: (إنه حين يجاهد الشرقيون ضد الاحتلال الاستعماري فإن عليك أن تقول: إن الشرقيين لم يفهموا أبدًا معني حكم الذات بالطريقة التي نفهمه بها نحن (نحن أي الأوربيين) أو تقول مع «برنارد لويس»: إنه إذا قاوم العرب الفلسطينيون الاستيطان الإسرائيلي . . فإن ذلك لا يمثل إلا «عودة الإسلام»، أو كما حددها مستشرق معاصر ذائع الصيت مقاومة إسلامية لشعوب لا إسلامية، وهو مبدأ إسلامي أسس في القرن السابع.) هكذا .

وهكذا (إذ يجتاح الشعور ضد الاستعمار العالم الشرقي بأكمله . . . فإن المستشرق يلعن ذلك كله لا بوصفه إزعاجًا فارغًا فقط، بل بوصفه إهانة للديموقراطيات الغربية، وبينما تواجه العالم قضايا حاسمة ذات أهمية عامة بالغة فإن الصورة الكاريكاتورية للشرق تستغل من قبل سياسيين يستقون زادهم العقائدي (الأيدلويوجي) لا من الأخصائيين « التكنوقراطيين» نصف المتعلمين فحسب، بل من المستشرق الفائق العلم كذلك (!!) ويحذر خبراء العالم الخرافيون في وزارة الخارجية الأمريكية من مخططات العرب للاستيلاء على العالم، ويوصف الصينيون الغادرون (!!) والهنود نصف العراه (!!) والمسلحون السلبيون بأنهم حدءات ستنهش عطايانا) [٢] .

---

(١) المصدر السابق صـ ٢٥٨ .

(٢) الاستشراق صـ ١٣٠ ـ صـ ١٣١ .

ولم تكن آراء المستشرقين هذه مجرد سطور في بطون الكتب، ولكنها ذات أثر ملموس في وجدان الرجل العادي في الغرب .

يقول د. «إدوارد سعيد»: (تطغي هذه الآراء المعاصرة للمستشرقين على الصحافة والعقل الشعبي، فالعرب ـ مثلاً ـ يتصورون راكبي جمال، إرهابيين، معقوفي الأنوف، شهوانيين شرهين، تمثل ثروتهم غير المستحقة إهانة للحضارة الحقيقية، وثمة دائمًا افتراض متربص بأن المستهلك الغربي رغم كونه ينتمي إلى أقلية عددية ذو حق شرعي إما في امتلاك معظم الموارد الطبيعية في العالم، أو في استهلاكها أو في كليهما، لماذا ؟ لأنه بخلاف الشرقي إنسان حق . . . إن غربيًا أبيض ينتمي إلى الطبقة الوسطي يؤمن بأنه امتياز طبيعي له لا أن يدير شئون العالم غير الأبيض وحسب، بل أن يمتلكه كذلك لمجرد أن العالم الأخير تحديدًا ليس بالضبط إنسانيًا تمامًا بقدر ما «نحن» كذلك) !! [1]

وهكذا يستقطب القطيع المؤمن في أعماقه بما يقوله «أورنست رينان»: (إنه لمن الأفضل أن يكون المرء مخطئًا مع أمته المخطئة كلها من أن يكون علي درجة عالية من الصواب مع أولئك الذين يكشفون لها الحقائق القاسية!![2]

● **بين سوء القصد وسوء العرض :**

يقول د. «إدوارد سعيد» : (إن كل أوربي كان ـ فيما يمكن أن يقوله عن الشرق عنصريًا عرقيًا إمبرياليًا، وإلى درجة كلية تقريبًا : عرقي التمركز . .

إن المجتمعات البشرية ـ أو على الأقل الثقافات الأكثر تقدمًا، نادرًا ما منحت الفرد شيئًا عدا الإمبريالية والعنصرية، والتمركز العرقي للتعامل مع الثقافات الأخرى .

---

(١) الاستشراق لإدوارد سعيد صـ ١٣١ .

(٢) المصدر السابق صـ ١٦٦ .

إن الاستشراق كان جوهريًا مذهبًا سياسيًا مورس إراديًا على الشرق، لأن الشرق كان أضعف من الغرب)[1] .

إن كمية هائلة من الكتب دونها الغرب عن الشرق (حوالي ستين ألف كتاب تتعلق بالشرق الأدني قد كتبها الغربيون بين عام ١٨٠٠م ـ ١٩٥٠م) أفلم يكن منهم رجل رشيد ؟ اللهمَّ إلا أن نقر مع «إدوارد سعيد» أن (الاستشراق من حيث هو جهاز ثقافي هو عدوانية ونشاط ومحاكمة) .

وهل تغيرت هذه العدوانية على مر العصور ؟

يسجل «إدوارد سعيد» تطور حركة الاستشراق فيما بين القرن التاسع عشر والعشرين فيحصره فيما يسميه الاستشراق الظاهر، أما ما وراءه مما يسميه (الاستشراق الكامن) فهو إجماعي مستقر لا يكاد يتغير، وهو نادراً ما يشكل فرقًا في المضمون فقد ارتبطت الأطروحات حول التخلف والانحطاط الشرقيين (!!) بالأفكار السائدة - في القرن التاسع عشر - حول الأسس الحيوية (علم الحياة) للتفاوت العرقي[2]. وما دام الشرق ينتمي إلى عرق منحط محكوم فقد كان ينبغي له أن يحكم من قبل الاستعمار الغربي ويتوفر المثل التقليدي لهذه النظرة في كتاب «جوستاف لوبون» الصادر عام١٨٩٤م (القوانين النفسية لتطور الشعوب) [3] .

ولم تكن النظرة العرقية وما تستتبعه من دونية الشرق واحتقاره مذهبًا فكريًا معزولاً في ذهن زعمائه، ولكنها كانت في ثقافة أواخر القرن التاسع عشر في أوربا (تكاد تكون غير متنازع عليها)[4] .

وكانت قد تغلغلت إلى أعماق الأشياء، وأكدت أنه ليس ثمة مهرب من الأصول، ومن الأنماط التي أفرزتها هذه الأصول، وقد أثر أصحاب هذه النظرة

(١) الاستشراق صـ ٢١٥، صـ ٢١٦
(٢) الاستشراق صـ ٢١٧ .
(٣) المصدر السابق صـ ٢١٨ .
(٤) الاستشراق صـ ٢٤٠، ٢٤١ .

تأثيرًا كبيـرًا على المستوي العام، وأوصوا بسياسات عـامة في ضوء تقريراتهم [1]، وعلى سبيل المثال، وانطلاقًا من هذه النظرة نجد كاتبًا وسيـاسيًا شهيرًا قضي جانبًا كبيرًا من حياته بين العرب صديقًا حميمًا لهم ـ «لورنس»، نجده يقول في موضع من كـتابه « أعمـدة الحكمـة السبعـة»: (. . لم تكن جـميع الأقـاليم الخاضـعة للإمبراطورية البريطانية لتساوي لدي صبيا إنجليزيًا واحدًا ميتًا)[2] .

ونجد آخـر مثل «جوج أورول» يقـول عن زيارته لمراكش عام ١٩٣٩م: (من الصعب دائمًا أن تصدق أنك تسير بين كائنات بشرية .. إن للبشر وجوهًا سمراء، ولديهم عدد كبـير منها، هل هم حقًا اللحم نفـسه الذي هو أنت ؟ هل لهم حتى أسماء ؟ أم أنهم مجـرد مادة سمراء لا متمايزة، أفراد بقـدر ما للنحل أو حشرات المرجان أفراد ؟! إنهم ينبعون من الأرض، يعـرقون ويعانون الجوع لبضع سنوات، ثم يغوصون عـائدين إلى أكوام المقابر التي لا أسمـاء لها دون أن يلحظ أحد أنهم ذهبوا، حتى القبور نفسها سرعان ما تنحل رجوعًا إلى التراب)[3] .

● **ثمرات شرقنة الإسلام في العصر الحاضر :**

وكان من ثمرات هذه الشرقنة في العـصر الحاضر كما يدلنا على ذلك دكتور «إدوارد سعـيد» : إن العـربي ظهر بعـد حرب ١٩٧٣م في كل مكان شـيئًـا أبعد تهديدًا وأشـد خطرًا، وبرزت بانتظام رسوم ورقية تصـور شيخًا عـربيًا يقف وراء مضـخة للبنزيـن، لكن هؤلاء العرب كـانوا بجلاء «سـاميين» : وكانت أنـوفهم المعقوفـة بحدة، والنظرات الشذراء الخبيـثة المشربنة على وجوههم تذكيـرًا واضحًا (لجمهور غير سامي في معظمه) بأن « الساميين» كانوا يقبعون تحت كل مشكلات الغرب ومصاعبهم التي كانت في هذه الحالة بشكل رئيسي النقص في البنزين .

---

(١) المصدر السابق صـ ٢٤٥ .

(٢) المصدر السابق صـ ٢٤٨ .

(٣) المصدر السابق صـ ٢٥٧ .

وهكذا، فإذا كان العربي يحتل مكانًا يكفي لجذب الانتباه، فإنه يحتله كقيمة سلبية، فهو يعاين كمخرب لوجود إسرائيل والغرب، أو في نظرة أخري للشيء ذاته، كعقبة أمكن تجاوزها لخلق إسرائيل عام ١٩٤٨م . وإذا كان هذا العربي ذا تاريخ على الإطلاق، فإن تاريخه جزء من التاريخ الممنوح له (أو المستلب منه، فالفرق ضئيل) من قبل التراث الاستشراقي، وفي مرحلة تالية، التراث الصهيوني. لقد عوينت فلسطين ـ من قبل «لامارتين» والصهاينة الأوائل على حد سواء ـ صحراء خالية تنتظر التفجر بالازدهار، وكان يفترض أن القلة من السكان الذين كانوا فيها رُحل لا وزن لهم ولا حق فعليًا في الأرض، وأنهم، لذلك، دون واقع ثقافي أو قومي .

وإلى جانب عدائه للصهيونية، فإن العربي مزود بالنفط . وتلك خصيصة سلبية أخري، إذ أن غالبية المسارد المقدمة عن النفط العربي تساوي بين المقاطعة النفطية في ١٩٧٣م ـ ١٩٧٤م (التي أفادت منها رئيسيًا شركات النفط الغربية ونخبة عربية حاكمة صغيرة) وبين غياب أي مؤهلات أخلاقية عربية لامتلاك مثل هذا الاحتياطي النفطي الهائل . والسؤال الذي يطرح في الأعم الأغلب، دون أي من التحسينات الاستبدالية اللبقة المعتادة، هو لماذا يمتلك بشر كهؤلاء العرب حق إبقاء العالم المتطور (الحر، الديمقراطي الأخلاقي) مهددًا ؟ ومن أسئلة كهذه ينبع الاقتراح المتكرر بأن تقوم قوات الجيش البحرية الأمريكية بغزو حقول النفط العربية .

في الأفلام والتلفاز يرتبط العربي إما بالفسق أو بالغدر والخديعة المتعطشة للدم. ويظهر منحلاً، ذا طاقة جنسية مفرطة، قديرًا، دون شك، على المكيدة البارعة المراوغة لكنه، جوهريًا، سادي، خئون، منحط، تاجر رقيق، راكب جمال، صراف، وغد، متعدد الظلال: هذه بعض الأدوار التقليدية لعربي في السينما . وكثيرًا ما يري العربي القائد (للصوص المغيرين، والقراصنة، والعصاة «من السكان الأصليين ») يزمجر في وجه البطل الغربي المأسور والفتاة الشقراء

(وكلاهما مفعم بالصحة والعافيـة) : « رجالي سيقتلونكما، لكنهم ــ يحبون أن يتسلوا أولاً »، وينظر نظرة تنقط خبثًا وشبقًـا فيما يتكلم : وفي أشرطة الأخبار، أو أشرطة الأخـبار المصورة، يظهـر العرب دائمًا بأعـداد ضخمـة : لا فردية، لا خصائص أو تجارب شخـصية . وتمثل معظم الصور الهيجـان والبؤس الجماعيين، أو الإشارات والحركات اللاعقلانيـة (والشاذة حتى اليأس، بالتالي) . وخلف هذه الصور جميعًا يتربص خطر الجهاد المهدد . والعاقبة : الخوف من أن المسلمين (أو العرب) سوف يحتلون العالم .

تنشر الكتب والمقالات بانتظام عن الإسلام والعرب، دون أن تمثل تغيراً إطلاقًا بالقياس إلى المماحكات الزعاف التي سادت القرون الوسطي وعصر النهضة . ولا يصدق على أية مجمـوعة عرقية أو دينية سوي الـعرب أن أي شيء يمكن عمليًا أن يقال أو يكتب عنها دون تحد أو احتجـاج . لقد قال دليل المساقات لعام ١٩٧٥م، الذي وضعـه طلاب الإجازة في كلية كولومـبيا، عن برنامج اللغة العـربية إن كل لفظة من لفظتين في اللغة ذات علاقة ما بالعنف، وإن العقل العربي كما «ينعكس» في اللغة تبجحي دون انقطاع . وبلغت مقالة قريبة العـهد كتبتها «إيمييت تيرل» في مجـلة هاربر درجة أعلى من القـذف والتجـريح والعنصرية الـعرقيـة، إذ طرحت منظومة تقول: إن العرب أساسًا قتلة، وأن العنف والخديعة محمولان في المورثات العربية . ويكشـف مسح دراسي بعنوان « العرب في الكتب الدراسيـة الأمريكية» معلومات خاطئة إلى الحد الأقـصي من الإدهاش، أو بالحري، تمثيلات على درجة قصوي من الفظاظة، لمجموعة عرقية ــ دينية . إذ يؤكد أحد هذه الكتب « أن القلة من أهل هذه المنطقة العربية يعرفون أن ثمـة طريقة أفضل للحياة »، ثم يتابع سائلاً ببراءة سلابة، «ما الذي يربط بين شعوب الشرق الأوسط؟» والجواب، المعطى دون تردد، هو «أن الرباط النهـائي هو عـدائية العـرب ــ وكـرههم ــ لليـهود وللأمـة الإسرائيلية » .

وجنبًـا إلى جنب مع مـثل هذه المادة، ثمـة مـا يلي، في كتـاب آخـر، عن

الإسلام: «بدأ الدين الإسلامي، المسمى الإسلام، في القرن السابع . وقد بدأه رجل أعمال ثري من شبه الجزيرة العربية يدعي محمد . وقد ادعى أنه نبي . ووجد أتباعًا بين العرب الآخرين . وأخبرهم بأنهم اختيروا لكي يحكموا العالم». وتتلو هذه النتفة من المعرفة نتفة أخرى مثلها في دقتها : «بعد موت محمد بقليل، سُجلت تعاليمه في كتاب يدعى القرآن . وصار الكتاب المقدس للإسلام» (١) .

● **أثر الاستشراق على النخبة الثقافية العربية المعاصرة :**

يقول د. «إدوارد سعيد»: (إن الاستشراق، رغم إخفاقاته، ومصطلحه المعاظل الذي يثير الشفقة، وعرقيته التي لا تكاد تحجب، وجهازه الفكري الرقيق رقة الورق، يزدهر اليوم بالأشكال التي حاولت أن أصفها . وبالفعل، فإن ثمة ما يدعو إلى القلق في كون تأثيره قد انتشر إلى « الشرق» نفسه : فصفحات الكتب والمجلات باللغة العربية (وباليابانية، واللهجات الهندية المختلفة، واللغات الشرقية الأخري، دون شك) تمتلئ بتحليلات من الدرجة الثانية لـ «العقل العربي»، والإسلام، وأساطير أخرى، يقوم بها كتاب عرب . وقد انتشر الاستشراق أيضًا في الولايات المتحدة الآن وقد أضافت الأموال والموارد العربية رهجة فتنة لا يستهان بها إلى « الانشغال» التقليدي بالشرق الهام استراتيجيًا . والحقيقة هي أن الاستشراق قد استوعب بنجاح من قبل الإمبريالية الجديدة، حيث لا تفند منطلقاته السائدة، بل إنها لتثبت وتؤكد، المخطط الإمبريالي المستمر للسيطرة على آسيا) .

يقول د. «إدوارد سعيد» : (في الجزء الوحيد من الشرق الذي أستطيع أن أتحدث عنه بشيء من المعرفة المباشرة يمكن اعتبار التلاؤم المتبادل بين الطبقة المفكرة والإمبريالية الجديدة أحد الانتصارات الخاصة للاستشراق . فالعالم العربي اليوم كوكب تابع، فكريًا، وسياسيًا، وثقافيًا للولايات المتحدة . وليس هذا في ذاته بشيء يدعو إلى الرثاء ؛ غير أن الشكل المحدد بعلاقة التكوكبية نفسه يدعو إلى

(١) الاستشراق صـ ٢٨٦ ـ ٢٨٨ .

ذلك . خذ بعين الاعتبار أولاً أن الجامعات في العالم العربي تدار بشكل عام تبعًا لنسق ما موروث عن، أو مفروض مباشرة من قبل، قوة مستعمرة سابقة . وتجعل الظروف الجديدة واقـعيات المنهج الدراسي قـبيحة حـتى الرعب تقريبًا : صـفوف يحتشـد فيها مئـات الطلبة، جهاز تدريس مـدرب تدريبًا سيئًا، ومـرهق بالعمل، ويتلقي رواتب سيـئة، تعيـينات سياسيـة، الغياب شبـه المطلق للأبحاث المتقـدمة ولوسائل البـحث العلمي، وأهم من ذلك، الافتقـار إلى مكتبة واحـدة لائقة في المنطقة بأسرها . وفيـما كانت بريطانيا وفرنسا قـد سيطرتا على الآفاق الفكرية في الشرق بفضل أهميتهما وثـرائهما، فإن الولايات المتحدة هي التي تحتل تلك المكانة الآن، بصورة تؤدي إلى النتيجة التـالية : وهي أن القلة من الطلاب الذين يبشرون بخير والذين ينجحـون في الارتقاء عبر النظام التعليمي يتلقون التشـجيع للحضور إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراساتهم العليا . وفيما يظل صحيحًا أن بعض طلاب العالم العربي ما يزالون يذهبون إلى أوروبا للدراسـة، فإن الغالبية العظمي يأتون إلى الولايات المتحـدة، ويصدق هذا على طلاب ما يسمى الدول الجـذرية بقدر ما يصدق على الدول المحافظة كالمملكة العربية السعودية والكويت .

وإلى جانب ذلك، فإن نظام الرعاية في عـالم الدراسة، والأعمال، والبحث العلمي يضع الولايات المتحدة في موضع الآمرة ذات السلطة الكلية على الأمور ؛ فالمصدر مهما بلغ من عدم كونه مصدرًا حقيقيًا، يعتبر الولايات المتحدة .

وبقدر ما يسع المـرء أن يصدر تعميمًـا كاسحًا، فإن الميـول المحسوسة للثـقافة المعاصرة في الشـرق الأدني تسير على هدي النماذج الأوربيـة والأمريكية، وحين قال «طه حسين» عام١٩٣٦م عن الثـقافة العربية إنها أوربية، لا شرقـية، فقد كان يسجل هوية النخبة الثقافية المصرية التي كان هو أحد أعضائها المتميزين تميزًا كبيرًا. ويصدق الشيء ذاته على النخبة الثقافية العربية اليوم) .

(والنتيجة المتوقعة لهذا كله هي أن الطلاب الشرقيين (والأساتذة الشرقيين) ما يزالون يريدون الحـضور إلى الولايات المتـحـدة والجلوس عند أقدام المسـتشـرقين

الأمريكين، ثم العودة فيما بعد لتكرار الشعيرات اللغوية التي ما فتئت أصفها بأنها مذهبيات جامدة استشراقية على مسامع جمهورهم المحلي . ونظام إعادة إنتاج كهذا يجعل من الحتمي أن يستخدم الباحث الشرقي تدريبه الأمريكي ليشعر بالفوقية على أبناء وطنه لأنه قادر على « تدبر » النظام الاستشراقي وفهمه واستخدامه ؛ أما في علاقته بمن هم أسمى منه مكانة، المستشرقين الأوربيين والأمريكيين، فإنه سيبقى « المخبر الذي ينتمي إلى السكان الأصليين» . وهذا هو بحق دوره في الغرب، إذا كان من حسن الحظ بحيث يتاح له البقاء فيه بعد إنهاء تدريبه المتقدم . ومن ثم فإن معظم المساقات الأولية في اللغات الشرقية تُدرس من قبل «مخبرين أصليين» في جامعات الولايات المتحدة اليوم ؛ وكذلك فإن القوة ضمن النظام (في الجامعات والمؤسسات، وما إليها) هي حصريًا تقريبًا في أيدي غير الشرقيين، رغم أن نسبة الشرقيين إلى غير الشرقيين بين الأساتذة المقيمين لا تعطي الأفضلية لغير الشرقيين إلى هذه الدرجة الجارفة .

ثمة إشارات أخرى كثيرة من أنماط مختلفة إلى الكيفية التي يتم بها الحفاظ على السيطرة الثقافية عن طريق القبول الشرقي بقدر ما يتم عن طريق الضغط الاقتصادي المباشر الخام من قبل الولايات المتحدة، وأنها لصدمة موقظة أن نجد، على سبيل المثال، أنه فيما توجد عشرات من المنظمات لدراسة الشرق العربي والإسلامي في الولايات المتحدة، فليس ثمة مؤسسة واحدة في الشرق لدراسة الولايات المتحدة، وهي أعظم المؤثرات الاقتصادية والسياسية إطلاقًا في المنطقة . وأسوأ من هذا، لا يكاد يكون ثمة من معهد ذي مكانة حتى متواضعة في الشرق مكرس لدراسة الشرق نفسه. غير أن هذا كله، في اعتقادي ضئيل بالمقارنة مع العامل الثاني الذي يسهم في انتصار الاستشراق : وهو حقيقة طغيان الاستهلاكية في الشرق . فالعالم العربي أو الإسلامي عامة عالق في صنارة نظام السوق الغربي. وما من أحد يحتاج إلى التذكير بأن النفط، المورد الأعظم للمنطقة، قد امتص امتصاصًا كاملاً ضمن اقتصاد الولايات المتحدة . ولا أعني بذلك وحسب أن شركات النفط العظيمة واقعة

تحت سيطرة النظام الاقتصادي الأمريكي ؛ بل أعني أيضًا أن قاعدة عائدات النفط العربية، كي لا نقول شيئًا عن التسويق، والبحث، والإدارة الصناعية، قائمة في الولايات المتحدة، وقد جعل هذا من أثرياء النفط العرب عمليًا مستهلكين هائلين للصادرات الأمريكية.

والنقطة التي أثيرها هي أن العلاقة علاقة وحيدة الاتجاه، تمثل فيها الولايات المتحدة زبونًا مختارًا لعدد ضئيل جدًا من المنتجات (النفط، واليد العاملة الرخيصة، رئيسيًا) ويمثل العرب مستهلكين شديدي التنوع لعدد هائل من منتجات الولايات المتحدة، المادية والعقائدية.

وقد كان لهذا عواقب كثيرة . ثمة عملية تشويه هائلة للذوق في المنطقة، متجسدة لا في الترانزستورات، والجينز الزرقاء، والكوكا كولا وحسب، بل كذلك في الصور الثقافية للشرق التي توفرها وسائل الإعلام الأمريكية وتستهلكها دون تفكير جماهير التلفاز الضخمة . وليست المفارقة الضدية المتجسدة في أن يعتبر عربي نفسه «عربيًا» من النمط الذي تنتجه وتسوقه هوليوود سوى النتيجة الأكثر بساطة لما أشير إليه .

وهناك نتيجة أخرى هي أن اقتصاد السوق الغربي وتوجهه الاستهلاكي خلقا (ويخلقان بنسبة متسارعة) طبقة من المتعلمين يوجه تشكلهم الفكري نحو إرضاء حاجات السوق . فثمة تأكيد كبير على الهندسة، والأعمال، والاقتصاد، مما هو واضح ؛ لكن طبقة رجال الفكر الإنتلجنسيا هي ذاتها عنصر مساعد فيما تعتبره الاتجاهات الرئيسية التي أطفئت في الغرب .

وقد رسم دور هذه الطبقة وصيغ لها بوصفها طبقة «مُحدثنه»، أي أنه تمنح الشرعية والسلطة المرجعية لأفكار حول التحديث والتقدم والثقافة تتلقاها من الولايات المتحدة بصورة رئيسية . ويقوم الدليل الباهر على هذا في العلوم الاجتماعية . وهكذا فإذ ينجلي كل شيء ثمة تقبل مشارك في صور الاستشراق

ومذاهبه . وثمة أيضًا تعزيز قوي جدًا لهذا في التبادل الاقتصادي والسياسي والاجتماعي : فالشرق الحديث ـ بإيجاز ـ يشارك في شرقنة نفسه)[1] .

* * *

وهكذا يتأكد لدينا نتيجة لهذه الدراسة الفذة للدكتور «إدوارد سعيد» ما كان يتردد من قبل في الصدور حول دور الاستشراق في تشويه صورة الإسلام، ويصبح لدينا اليوم يقين ـ نتيجة لتلك الدراسة بأن الاستشراق ما هو إلا مؤسسة تنوم بدور تاريخي كجهاز مناعة تعضي ـ أو قل إن شئت «تعضون» ـ في بنية الحضارة الأوربية وتغلغل في أعصابها وشرايينها وعظامها ليرد عنها أي اقتراب إسلامي، مغلقًا منافذ تلك البنية دون أي شعاع حقيقي من الإسلام .

حتى ما يود البعض منا أن يعتبره تحسنًا أو إنصافًا في آداء بعض المستشرقين، فإنه حسب دراسة «إدوارد سعيد» (استراتيجيات لإعادة التصرف بـ «المادة» ضمن «الحقل» وتوزيعها) إنه يؤدي إلى تغيرات ضمن الحقل ثم يعين على خلق وضع جديد، مثلما يؤدي إدخال بوصلة جديدة على سطح توجد عليه عشرون بوصلة إلى اهتزاز البوصلات جميعًا . ثم إلى استقرارها في تشكيل جديد قادر على الاستيعاب[2] .

أما خروج مستشرق ما على الحقل ليعلن إسلامه فإنه يصبح طبقًا لجهاز المناعة ذاك سببًا كافيًا لإخراجه - حسب مواصفات المؤسسة الاستشراقية - من زمرة البحث العلمي المعترف به في المؤسسة ليصير أي شيء غير كونه مستشرقًا «رصينًا» .

وهكذا تقوم المؤسسة الاستشراقية بالدور الفعال ـ لا في فهم الإسلام وتقديمه للغرب المسحيي « موضوعيًا » كما كان يفترض ـ ولكن في زرع الألغام في الحقل الذي يفصل ما بين الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية .

---

(١) الاستشراق صـ ٣١٩ ـ ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق صـ ٢٧٥ .

الحل الإسلامي لمشكلة الحضارة بين التعدد والصراع

● **بين التعدد والصراع :**

هل يمكن أن يكون الحل في انتصار الحضارة التي تقوم على العرقية وتعمل وفقًا لسياسة التطهير العرقي، والإبادة البشرية والتصفية الجسدية : في الأندلس، وفي أمريكا « الهنود الحمر» وفي إفريقيا (مئات الملايين في تصدير السود إلى أمريكا) في التفرقة العنصرية، وأخيرًا في شرق أوربا، البوسنة والهرسك، والشيشان، وبلاد البلقان، وحلف الناتو الذي أعلن عدواته للاتجاه إلى الإسلام [(١)] ثم في شرقنة الإسلام ؟

تلك حضارة غبية لا تري أبعد من وقع أقدامها .

كيف لهؤلاء أن يطهروا العالم من المسلمين ؟

مليار مسلم ؟

هنا تظهر عناية الله بالمسلمين في التكاثر وزيادة النسل . إنهم لا يبتعدون في سياستهم تلك عن غباء السياسة الإسرائيلية التي تظن أنها يمكن أن تسحق مائتي مليون عربي .

فعناصر المقاومة في الإسلام مكفولة :

أ - القنبلة الذُّرية، في مواجهة القنبلة الذَّرية .

ب - المقاومة الخالدة في بقاء قدس أقداس هذه الحضارة « القرآن».

جـ - بشارة الرسول ﷺ :

« **بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ** » .

إن الاستمرار في هذا الغباء لن تجني منه الإنسانية غير المواجع والآلام .

ولكنه ــ أبدًا ــ لن يحقق أغراضهم في إزالة « الآخر» وتلك عمق عماق سياساتهم .

---

(١) انظر تصريح الأمين العام للحلف في صحف ٣/٢/١٩٩٥ .

● مقارنة :

إننا نقول لقيادات الحرب في صفوف الحضارة الغربية .. لقد وسعناكم في إطار أهل الكتاب .

ففي أي إطار وسعتمونا أنتم ؟ وبماذا سميتمونا ؟ .

هل وسعتنا حقوق الإنسان الصادرة عنكم وهي حقوق مشروطة بالتخلص من حركة النهضة الإسلامية ؟ .

هل وسعتنا حريتكم الفكرية، وهي تحتضن مقولات الفسق والفجور في روايات سلمان رشدي وما أشبهه ؟ .

ولا تسع بحثًا علميًا حول مصداقية إبادة اليهود في ألمانيا كتبه روجيه جارودي؟ .

هل وسعتنا علمانيتكم، وهي مشروطة بالتخلص من الإسلام باعتباره لا يأخذ بالعلمانية ؟ .

هل وسعتنا ديمقراطيتكم وهي مشروطة بالتخلص من الإسلام باعتباره آخذًا بشريعة إلهية ؟ .

هل وسعنا نظامكم العلماني ـ في شرق أوربا ـ البوسنة والهرسك، والشيشان، وبقية المسلسل ؟ .

هل وسعتنا نظمكم التربوية، وأنتم الذين لا زالت مناهجكم تلقن تلاميذكم الأكاذيب والأحقاد ضد الحضارة الإسلامية ـ كما هو ثابت في الدراسات التي تناولت هذا الموضوع في مصادركم نفسها ؟

● ما الحل ؟ وأين التعدد ؟

إذا أردنا أن نجيب من منطلق قيمي بحت فلا بد أن نتفق على أن الحل الوحيد هو في انتصار الحضارة التي تسمح للآخر بأن يوجد على ظهر هذه الأرض .

الحل هو في انتصار الحضارة التي تتعايش في ظلها الأقليات والطوائف .

الحل هو في انتصار الحضارة التي تؤمن للثقافات المختلفة أن تعبر عن ذاتها؟

الحل هو في انتصار الحضارة التي تسمح للأفكار المختلفة بأن تعبر عن ذاتها في كافة أرجاء المعمورة ولو وقفت منها (حضارتنا الرائدة) موقف النقد والنكران.

الحل هو في انتصار الحضارة التي تؤمن بأنه ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

الحل هو في انتصار الحضارة التي تمتثل أمر الله في قوله تعالى :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

الحل هو في انتصار الحضارة التي تؤمن بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات: ١٣].

الحل إذن هو في انتصار الحضارة الإسلامية، فهي التي انطوت - مع الخلاف - على السماحة، ومع الإنكار على التسامح : نظريًا كما انطوت على ذلك عمليًا .

ولأمر ما ــ وربما كان هذا الأمر هو ما نحن فيه. . ضمن الإسلام (لأهل الكتاب، موقعًا حصينًا في المجتمع الإسلامي .

وقام المسلمون على تقدير هذا الموقع، ولم يخامرهم قط خاطر التطهير العرقي، أو إبادة « الآخر» .

لقد كانت الحضارة الإسلامية وعاء انصهرت فيه القوميات والجنسيات والعروق والشعوبيات، ابتداء من أقصي الشرق في الصين، مرورًا بفارس، والشرق الأوسط وتركيا والأندلس .

وكما يقول شيخ الأزهر الراحل (الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق

رحمه الله) في رسالة له إلى مؤتمر برلمان « أديان العالم» الذي انعقد في شيكاغو في الفترة من ٢٨/٨ إلى ٤/٩/١٩٩٣م :

(إن المسلمين لم يقترفوا في تاريخهم الطويل ما يشينهم .

فلم يضطهدوا شعبًا ولم يُكرهوا أحدًا على الدخول في الإسلام .

ولم يقوموا بعمليات تطهير عرقي أو تفرقة عنصرية، ولم يحدث أن أبادوا أتباع دين من الأديان الأخرى . وليس أدل على ذلك من أن البلاد التي دخلت في الإسلام ـ منذ كان وفي العصور المتعاقبة وللآن ـ ما زال بها الجمع الغفير من الديانات الذين كانوا بتلك البلاد حين دخلها الإسلام، ولو كان الحكم الإسلامي وقتذاك قد مارس ما يمارسه أصحاب الديانات الأخرى في العصر الحاضر ما بقي في بلاد المسلمين من أتباع الأديان الأخرى أحد)[1] .

وانظر إلى ما يقوله الأستاذ الدكتور «أحمد طربين» ـ أستاذ التاريخ الإسلامي عن معاملة الدولة العثمانية للمسيحيين: « يبدو أن كثيرًا ممن كتب في هذا الموضوع، يرى أن الدولة العثمانية أساءت معاملة غير المسلمين، وخاصة بعد أن ضمت إليها العالم العربي الإسلامي . . . وبالمقابل فإن عديدًا من المؤرخين المنصفين يرون أن السلاطين برغم اعتقادهم في قرارة نفوسهم بأن المسيحيين لا بد أن يكونوا حلفاء طبيعيين للقوي الأوربية المسيحية المعادية للعالم الإسلامي، فإنهم لم يتجاوزوا حدود معاملة المسلمين السمحة ـ السابقة ـ بل كان تسامح الأتراك العثمانيين مع مسيحيي الولايات العربية أشد وضوحًا من تسامحهم مع مسيحيي البلقان الذين كانوا في بلادهم أغلبية تتآمر مع النمسا . كما يرون أن الدولة العثمانية حافظت على أملاكهم وحرية عبادتهم وكنائسهم، وفتحت لهم أوسع أبواب العمل الحر في الزراعة والصناعة والتجارة، فانتظموا في سلك الحرف المختلفة على قدم المساواة مع زملائهم المسلمين، وكانوا معهم في تعاطف وود،

---

(١) مجلة الأزهر ـ ديسمبر ١٩٩٣م .

بل إنهم برزوا في ميـدان التجارة الخارجيـة لصلتهم مع الأوربيين، وتكونت منهم طبقة برجوازية غنية، وها هي ذي سجلات المحـاكم الشرعية في مختلف الحواجز العربية تشهد بذلك . . . »[1] .

إن عجز الحضارة الأوربية المعاصرة عن دور التسامح هذا هو الذي يشكك في إمكانية التعدد الحضاري بعيدًا عن مظلة الإسلام .

إن الإسلام هو المرشح الوحيد لوراثة الحضارة المعاصرة ـ لمصلحة الإنسانية ـ وليقوم بنفس الدور الذي قـام به في وراثة الحضارة اليونانية والرومانيـة والفارسية من قبل .

هناك كانت الوراثة بأن ضم العمل إلى العلم .

واليوم فإن الوراثة بأن يضم الإيمان إليها .

وهذا لا يعني القول بأن الحضارة الإسلامية تنحصر ضمن قيود ضيقة، أو أنها خاضعة دائمًا لتفاصيل ما تم إنجازه في تاريخ الحضارة الإسلامية .

إن أقصي ما نقرره من قيود للحضارة الإسـلامية لا يتعدي الثلاثية التي أشرنا إليها : العلم والعمل والإيمان .

وهي بعد ذلك ـ ومع ذلك ـ تقبل أن تتم إنجازها في صـور متعددة، ولكنها متـقاربة، فيصـبح التعدد هنا كالتـنوع داخل الجنس الواحد، فيخـرج إلى الوجود حضارة إسلامية ينتـجها العرب، كما يخرج إليه حضارة إسلامـية ينتجها الفرس، أو حضارة إسلامية ينتجها العثمانيون، أو حضارة إسلامية تنتجها أوربا .

إن الجمع بين أركان الحضارة الثلاثة التي هي العلم والعمل والإيمان هو مجمع تحديات المسـتقبل بالنسبـة للإنسان على هذه الأرض، وهنا تبدو لنا مـلامح نصرة الإسلام في مسـتقبل صنع الحضارة خصـوصًا إذا لاحظنا بعض الظواهر التي تبدو أمامنا منذ الآن ومن أهمها :

---

(٢) انظر المجلة العربية للعلوم الإنسانية التي تصدر عن جامعة الكويت العدد ٣١ ص (٢٦٩) .

١ - أن العالم المسيحي صائر حتمًا إلى الأخذ بوجهة نظر الإسلام عن المسيح، وهذا ما تؤكده الدراسات التي يقوم بها اللاهوتيون الكبار في أوربا .

٢ - أن الملحدين في العالم يتحولون - كما نري - إلى الأخذ بدين من الأديان، إذ هم يتناولون إلحادهم كدين وهم سوف يلتفتون حتمًا إلى إجراء المقارنة بين ديانة الإلحاد، وبين الأديان الأخرى، وليس غير الإسلام دين يصلح لمخاطبة هذه العقول .

٣ - أن عالم القوة النووية صائر حتمًا - كما نرى - إلى فقدان القدرة على استخدامها، ولو تعجل في استخدامها لكان ذلك ضد مصلحة العالم الذي يملكها إذ تتساوى حينذاك في الخراب جميع الأقدام .

٤ - أن العالم الإسلامي صائر حتمًا إلى ولادة جديدة، وهذا هو مصدر الفزع عند كهنة الحضارة الغاربة .

والخطر الذي يتهدده هو خطر التعجل، تعجل الولادة قبل أوانها من ناحية، وخطر الغفلة عما تستوجبه ساعة الميلاد من ناحية أخرى، وعليه أن يستفيد من درس العروبة في معالجاتها الخاطئة، لقضية الخلافة الإسلامية عند سقوط الدولة العثمانية أولاً، وقضية الوحدة العربية ثانيًا، وقضية فلسطين ثالثًا، وقضية النظام العالمي الجديد أخيرًا .

ويبقى عبء خطير على العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يعدوا أنفسهم لهذا الميلاد بالتخلص من سلبياتهم، ومنها ما يقع فيه بعض فصائلهم من خشونة في الأسلوب تارة، ومن نظرة تشاؤمية للمستقبل تارة، ومن فقر في القدرة على الاجتهاد تارات .

* * *

وراثة الحضارة

إذا كانت الصين ـ فيما يقال ـ تتطلع بمليارها إلى وراثة هذه الحضارة المتداعية، فقد يتساءل البعض منا : ـ لم لا نتطلع بدورنا ـ إن صلح أمرنا كما يقول الدكتور «رشدي فكار»[1] ـ إلى مكاننا في هذه الوراثة ؟ بمليارنا الإسلامي الذي يرتكز على الوطن العربي والذي يمتد إسلاميًا في آسيا وإفريقيا ؟

الآخرون المتطلعون إلى هذه الوراثة يتفاوتون في ارتكازهم على وحدة الأرض، أو وحدة اللغة، أو وحدة التاريخ، أو وحدة العقيدة، بينما نحن المسلمين نرتكز على هذه الركائز جميعًا ؟

لقد فاتت الفرصة على اليابان لوراثة هذه الحضارة فيما يقوله «هارولد لاسكي»: (لقد كان من الممكن أن تتعلم اليابان كيف تكون قنطرة بين الشرق والغرب، ولكن يبدو أنها لم تستفد شيئًا سوي ذلك الدرس الغث : الاستعمار الاقتصادي، لقد اكتشفت «المهارة» في لندن وبرلين وباريس ونيويورك، ولكنها ـ أي اليابان لم تكتشف مثلهم الهدف الكبير الذي تهب له هذه المهارة)[2].

ويتفاءل بعض المفكرين الغربيين بوراثة الإسلام لهذه الحضارة المتداعية، إذ يقول «روجيه جارودي»: (لقد سبق للإسلام أن أنقذ إمبراطوريات متهافتة من الفناء في القرن السابع الميلادي) .

ولعل هذا هو ما يبيته القدر للإسلام مرة أخرى أن يرث الحضارة المعاصرة ليعطيها ما قد فقدته : هدف الإيمان

أن تكون الحضارة لله .

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الأعراف: ١٢٨] .

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] .

---

(١) محنة الديمقراطية لهارولد لاسكى جـ ١ صـ ١٢ ـ ١٣ .

(٢) انظر كتابة « نهاية عمالقة» صـ ١٣٧ - ١٣٩ .

ويقول تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]

ويقول تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧] .

ويقول ﷺ : « بدأ الإسلام غريبًا ويعود غريبًا كما بدأ » صحيح مسلم.

لكن السؤال الذي ينبغي أن يلح على المسلمين اليوم هو : إذا كان الإسلام هو المرشح الوحيد لإنقاذ هذه الحضارة أو لوراثتها، فهل المسلمون المعاصرون مرشحون أيضًا لهذه الوراثة ؟

إنه كما يقول بعض المفكرين - الدكتور «يحيى الرخاوي» -: لا يمكننا ذلك (ونحن لا نفعل إلا أن نكرر حياتهم على مستوي أفشل وبمحتوي أضحل) .

(ولن يغير من الأمر شيئًا أن نضيف إلى نموذجهم نشاطًا خاصًا بالجانب الوجداني القلبي المتدين . . وليس بديلاً ما ندعيه من ممارسات إسلامية لمجرد أن اللافتة تعلن شيئًا مختلفًا عن لافتتهم، نمارس تحته ما يملونه علينا .

ولن ينفعنا أن نشق أنفسنا إلى نصفين : فنعيش حياتنا العلمية والسياسية والاقتصادية بأسلوب علماني تمت صياغته هناك . ونعيش حياتنا الروحية بتسليم عاطفي حالم .

ولن يصلح من شأننا أن نستغل الحماس للإسلام لتجميع طاقات الشباب لتحقيق تغيير يؤدي في النهاية إلى الوجه الآخر من نفس الحضارة العلمانية التي نشيع قرب غروبها) .

ثم يستمر قائلاً : (ليس بالضرورة أن يكون تأزم حال المسلمين يعني تأزم الإسلام .

فكما نكرر دائمًا : « أزمة جيل ليست بأزمة مصير » و « أزمة نخبة ليست بأزمة أمة ») [1] .

---

(١) الأهرام ١٦/ ١/ ١٩٨٤م

غير أن المسلم المرشح لهذا الدور لن يتحقق عن طريق الإشباع الاستهلاكي، والتطلع إلى شهوات الدنيا ومتاعها أو جمع فتات موائد الكبار من الصواريخ وأسلحة الدمار .

وإنما يتحقق مستعيدًا لذاته، وبنائه، كإنسان في عصر عزت فيه إنسانية الإنسان.

فهو بمليـاره الذي نطمع أن يتحلي في سلوكه بالقرآن، يمثل الإنسان المتوازن المتعادل روحًا وجسدًا ونفسًا . . المتعادل في مشيته وإنفاقه، بل حتى في صوته الخاشع لربه، ومنه يستمد الهدي والنور .

الإنسان الذي يعيد إلى التصميم الهندسي للحضارة كما أراده الله : جانب الإيمان في ثلاثيته : العلم والعمل والإيمان .

هذا المسلم بسلوكه المتميز يمكنه أن يكون هو أداة التصحيح لمواريث هذه الحضارة، بإرجاعها إلى طريق « الحضارة لله » .

الإسلام ممثلاً في عصر النبوة بالوحي الخالد، والسنة الشريفة والاجتهادات البناءة في تراث المسلمين هو الذي يشق طريقه الآن إلى قلوب البسطاء في كل مكان، كما يشق طريقه إلى العمالقة في حضارة الغرب، بعد أن أعيتهم الطرق، طالبين النجاة لعقل كرمه الله، وإنسان أسلم وجهه لله .

ولكن ذلك كله لن يكون إلا وفق سنن الله في الكون .

إن العناية الإلهية تظللنا في جميع أدوار حياتنا، ولكن من العناية الإلهية أيضًا أن يكون هذا الكون خاضعًا لنظام، وأن تكون الحضارة خاضعة لقوانين .

إنه لا عناية بغير النظام .

ولا رحمة بغير القوانين .

قوانين الله في التغيير، قوانين الله في النصر، قوانين الله في الحصول على

الدنيا، قوانين الله في عموم البلاء، قوانين الله في التلاؤم بين الحكام والمحكومين، قوانين الله في نمو المال، قوانين الله في أكل الحلال، قوانين الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قوانين الله في قبول الدعاء أو رده . . . !

كيف نطلب الرحمة بإبطال القوانين ؟

كيف نطلب الرحمة باللارحمة ؟

فكيف نتصور إذن أن يكون مسلمو اليوم هم وراث هذه الحضارة ؟

ما الحكم في قوم كلما وجه إليهم أمر للتنفيذ مصمصوا شفاههم قائلين : عفوًا نحن غير قادرين؟

أليس من قوانين الله ــ منطقيًا ــ أن يتم الاستغناء عنهم ؟

ما الحكم في قوم كلما واجههم تكليف إلهي مصمصوا شفاههم قائلين : نحن غير قادرين ؟

إذا دُعُوا إلى التخلص من الربا قالوا : إن كان حرامًا فنحن غير قادرين ؟

إذا دُعُوا إلى الجهاد قالوا : إن كان واجبًا فنحن غير قادرين .

إذا دُعُوا إلى الوحدة قالوا : خير، لكن نحن غير قادرين ؟

إذا دُعُوا إلى الأخوة الإسلامية : قالوا : جميل، ولكن نحن غير قادرين ؟

وإذا دُعُوا إلى تصحيح في سياسة التعليم يربط فيه بين العلم والعمل والإيمان قالوا : تحيرنا بين النظريات والبرامج، وما نحن بقادرين .

وإذا قيل لهم : صححوا علاقتكم بالدنيا واجعلوها في أيديكم لا في قلوبكم قالوا : تلك صوفية، وما نحن بقادرين .

وإذا قيل لهم :احرصوا على الحرية، واسلكوا إليها من باب العبودية لله وحده . . قالوا : تلك مثل عليا، وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى شيء من الاقتصاد يبتعدون فيه عن الإسراف والتبذير وتمويل رأسمالية العدو، قالوا عادات، وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى قلب المعادلة السائدة بينهم بين اللهو والجد، خذوا أنفسكم بالجد، واجعلوا اللهو هامشًا محدودًا قالوا : تلكم دعوة إلى الكآبة ، وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى تحري الحل في مأكلهم ومشربهم، والبعد عن الحرام والمشتبهات، قالوا : وكيف نعيش ؟ نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا : وما شأننا ؟ نحن غير قادرين ؟

وإذا دُعُوا إلى الأخذ على يد الظالم قالوا : صعب، ونحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى مخاصمة الفسق في الفن وفي الإعلام . . قالوا : إزاي؟ نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى إلزام نسائهم بالحجاب، قلبوا شفاههم، وقالوا : نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى تربية أولادهم على طاعة الله . . قالوا نحاول، ولكن نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى العفة وما يوصل إليها من الكف عن إثارة الشهوات، نظروا بجانب من عيونهم إلى نظريات في علم النفس، وعلم الجمال، وقالوا: نحن غير قادرين .

وإذا دُعي علماؤهم إلى الجهر بكلمة الحق، قالوا : نحن غير قادرين.

وإذا دُعي حكامهم إلى عدم موالاة الكافرين . . قالوا : حسنًا، ولكنا غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى التكافل المعيشي مع الذين يموتون جوعًا بالآلاف، قالوا : نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى التضامن مع المستـضعفين من إخوانهم الذين يذبحون بالآلاف، قالوا : نحن غير قادرين .

بماذا شهد هؤلاء على أنفسهم ؟

هل ينطبق علـيهم رفـع التكليف في قـوله تعـالي: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أليس معني الآية ابتداء أن الله لا يكلف إلا بالوسع ؟ فـهم ما داموا قد كلفوا فمعني هذا أنه في وسعهم ؟

وعلى هذا الأساس يكون قولهم نحن غير قادرين محض كذب وتهرب !!

وهل ينطبق عليـهم رفع التكليف إذا كانـوا هم أنفسـهم مساهمـين بدرجة أو بأخرى في صنع الخطأ أو الخطيئة ؟

أو مستفيدين بدرجة أو بأخرى ـ باستمرار هذا الخطأ أو الخطيئة ؟

أليست الأغلبية اليوم دائرة بين هذا وذاك . . بين صانع، أو مستفيد ؟

قد يقـال: المشكلة ترجع إلى تضـارب الأفكار، واختـلاطها، وعلى سـبيل المثال: يقول بعضنا : العلمانية، كلها شـر، ولكن آخرين يرفعون إمكانية التضامن معها، والتصالح مع بعض فصائلها .

هكذا فإن الرؤية قد أصيبت بالاختلاط .

حسنًا، فمتى يكشف الحق ؟

هنا : لا بد من الابتلاء .

قد يقال : المشكلة ترجع إلى اخـتلاط في البشر، حيث لا يظهر فـيهم مؤمن خالص، من منافق خالص، من كافر خالص .

ويقول بعض هؤلاء : تحتاج الحركة الإسلامية إلى فصل هذه الفصائل، وإلا وقعت الحركة في شر النتائج، شر الفشل .

حسنًا : فمتي ينفصل هؤلاء من هؤلاء ؟

هنا : لا بد من عذاب ينزل للتمييز، فالمؤمن ينجلي كما ينجلي الذهب في النار، وغيره يتساقط كما يتساقط التراب، أو كما يتساقط الغبار .

هنا لا بد من سريان قانون التمييز .

قال الله تعالى : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] .

وقال: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] .

وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]

قد يقال : التميز موجود، فنحن نعرف الطريق، ونعرف من هم أربابه، ولكنا غير قادرين .

غير قادرين على فعل شيء .

والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

فعندئذ يقال : وإذا كنتم قد خرجتم من إطار المكلفين فما معني وجودكم ؟ إنكم بذلك قدمتم شهادة الإزالة .

هنا : لا بد من عذاب ينزل ـ لا لمحض الابتلاء، ولا لمحض التمييز ولكن لغرض المحق، والإزالة كما تمت إزالة أقوام من قبل .

منطقيًا : ماذا ينتظر لقوم كلما واجههم تكليف إلهي مصمصوا شفاههم

قائلين: لا حـول ولا قوة إلا بالله، نحن غـير قـادرين ؟؟ وهم قد أخـرجوا إلى الوجود أصلاً من أجل القيام بهذه التكاليف ؟

أليس المعقول أن ينتظروا الإزالة ؟

أما حسابهم يوم القيامة فشيء آخر .

أليست الإزالة هي الحل الوحيد في شأنهم ؟

ليأتي قوم غيرهم .

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٨]

إن هؤلاء ــ نحن ــ أكثـر الأجناس على وجه هذه الأرض ترشيـحًا للإزالة، لعدة أمور :

أولاً : لأننا إنما خرجنا على ظهرها وارتفع ذكرنا فيهـا لمهمة خاصة هي القيام برسالة الإسلام .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

فعندما نتخلى عن هذه الرسـالة ــ ونحن نكاد نفعل ــ يزول سبب وجودنا، ونذهب شراذم بددًا، في طرائق قددًا .

ثانيًا : لأننا لو بقـينا وانتصـرنا على أعدائـنا بنصر الله لكان في ذلك نـصر للزيف الذي نحن فيه، وإعـلاء لشأنه، وهذا لا يمكن أن يكون، لأنه لا يجوز في حق كماله تعالى .

ثالثًا : لأننا بخلاف أعدائنا، لا نحن عملنا من أجل الدنيا كما يعملون، فننال وعد الله كما ينالون ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥].

ولا نحن عملنا من أجل الآخرة، كما عمل بناة الأمة الإسلامية، فننال وعد الله كما نالوا:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥]

إننا أولى الناس بالإزالة لولا . . .

لولا ضمان من وعد الله لبقية تبقي .

هي التي سيوكل إليها بناء الحضارة الإسلامية، ووراثة الحضارة الغربية المتداعية .

في رواية لمسلم بسنده عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ :

« إني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة [١] .. وألا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم[٢] وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك : ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا » .

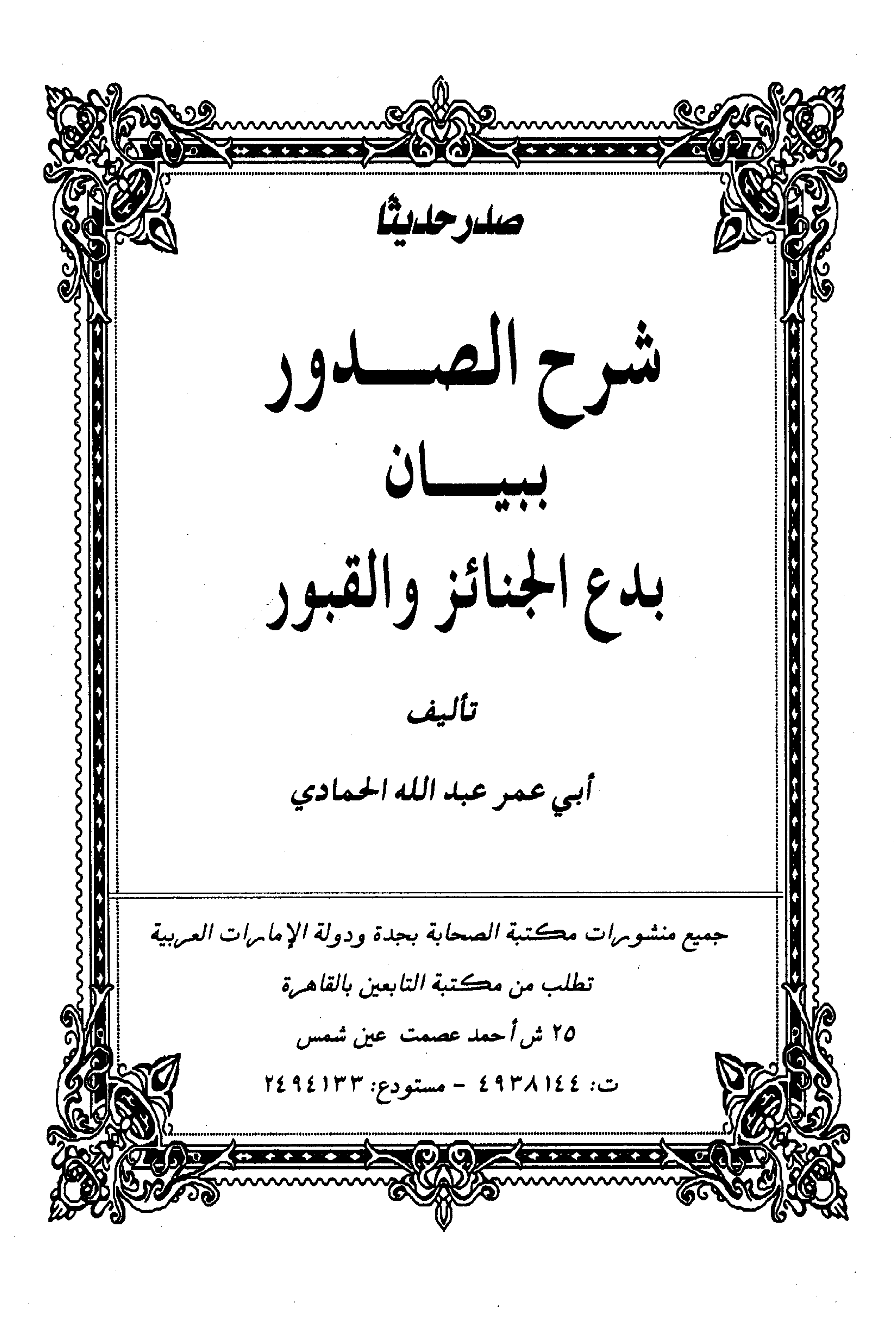
* * *

(١) أي كارثة عامة .

(٢) أي جماعتهم .

* فهرس الموضوعات *

الموضوع *الصفحة*



صدر حديثًا

شرح الصدور ببيان بدع الجنائز والقبور

تأليف

أبي عمر عبد الله الحمادي

جميع منشورات مكتبة الصحابة بجدة ودولة الإمارات العربية
تطلب من مكتبة التابعين بالقاهرة
٢٥ ش أحمد عصمت عين شمس
ت: ٤٩٣٨١٤٤ - مستودع: ٢٤٩٤١٣٣